مراد داؤد

حكايا نصف الليل

رواية

تدقيق لغوي : أ. علي حسين وردة

تصميم الغلاف : م. علاء مراد داؤد

مقدمة

من يقرأ للقاص والروائي مراد داؤد يجده دائم الترحال فهو متى طلبته تجده مهاجرا وعندما يتحدث عن عالم رحلاته تجد نفسك وقد انتقلت إلى عالم مسحور . ولكن سحر عالمه يمتاز بانه يخرج بين الواقع والخيال . فهو يتصور خيالاً حاضراً دائماً ، لذا فإنك وإن سرحت معه في خياله هذا تشعر أنك لم تبرح عالم الواقع . فالخيال مسحور ، والواقع مسحور به . وهذه براعة منقطعة النظير ، فسحر الواقع إلى واقع آخر ممكن ، وسحر الخيال إلى واقع أكثر إمكاناً ومعقوليةً.

وإذا استعرضنا روايته هذه " حكايا نصف الليل " نجد أن الكاتب أبدع رواية استعراضية وتمثيلية جرت وقائعها عبر السنين ، ولكن الراوي استطاع أن يرويها على حلقات عديدة وفي ليلة واحدة . لقد فرض الروائي واقعاً من الصداقة حدثت فصولها صدفة ، وغالبا ما تحدث الصدف مثل هذه العلاقة من الحميمية واللحمة التي لا تنفصم عراها . ومن البراعة أيضاً أن يفرض الروائي جيلاً من الأصدقاء لا يلتزم في مسألة العمر الزمني .

فيما أن بطل الرواية ومن خلال الزواج بامرأتين ، واحدة منهما سرقها منه القدر والثانية تبعتها أنجب ولدين ذكر وأنثى ، أشرف على تربيتهما بشكل غير مباشر شأنه شأن أولاد الذوات . فقد درسا منذ الحضانة وحتى انهيا تعليمهما الجامعي كطالبين داخليين في مدرسة تعتمد هذا النظام من الدراسة ، ولم يكونا يعيشان معاً وإنما عاشا بعيدين عن والدتيهما أولاً وعن والدهما ثانياً وعاشا بعيدين عن بعضهما ايضاً . لذا اعتمد هذا الأب على مبدأ الصداقة المرحلية ، وكانت حياته تعتمد على التجارة التي انتهت بعد فشل عدة مشاريع تجارية ناجحة بسبب زواجه غير الموفق من فتاتين عرف أهلهما طريقة النصب بأسلوب تزويج فتاتهم التي تتسلط على شاب وتورطه بالعبث معها ليصبح ملزماً بالزواج القسري إزاء تصرفه الخاطئ مع الفتاة . وهذان الزواجان بإضافتهما إلى زواجيه السابقين يكون الرجل قد اكتسب صفة المزواج ، ولكن الزواج الفاشل الذي ذكره الكاتب لم يعبر إلى الواقع بشكله النظامي والأخلاقي وإنما كان صفقة تجارية خاسرة كلفته كل ما يملك من أموال وشركات، ومن الطبيعي أن تعود الامور إلى ما كانت عليه قبل الزواج بسبب غياب الزوجة السلعة حاملة معها ثروة الرجل عائدة إلى أهلها بانتظار صفقة جديدة ، أو غائبة عن الحياة العامة كليّاً لأنه ربما تحرك ضميرها لتترك زوجها العابر ولتترك أيضاً أهلها،

لتشكل من ذاتها غاية بعد أن استخدمت كوسيلة هدفها ابتزاز الرجال من ذوي اليسار ، ويبدو أنها ملت من هذا العمل الدنيء الذي كان أهلها يستفيدون منه وتبقى هي خالية الوفاض

فبطل قصتنا لا ينام بهذه السهولة فهو رجل سهر طار النعاس من عينيه وهو يقاوم الاستسلام للنوم ، لان عليه مهمة ليؤديها ، فهو يحب التسلية ويستل ذلك بأن يشاركه تسليته هذه رفاق ليلته. فالكأس تجر الكأس والحديث يجر الحديث ، وفي كل وقت حديث ولكل زمان حكاية ، وكل حكاية مرتبطة ببعضها لارتباطها بحياة الرجل ، فلو أخذتها كل واحدة على حدة فهي قصة قصيرة أو حادثة ولكنك لا تستطيع عزلها عن غيرها من حكايات السهرة لكي تنتظم في رواية يرافقها التشويق . وعالم أنك إذا بدأت بقراءة الرواية ، فلا تجد نفسك قادرا على تركها حتى النهاية ، وكأني في قصص الماضي ، تلك التي كان يرويها المختص بالحكايا اليومية ، فلأن الراوي لا يستطيع قراءتها في ليلة واحدة فإنه يترك الناس أمام عقدة تستلزم الحل ، فهو يذهب إلى النوم ويذهب السامعون للرقود أيضاً ، ولكن بعض الناس لا يستطيع سماع هذه القدة والوقوف عندها ، فعندما يقع نترة بالأسر ، أو يُلقى بالبطل في السجن فإن بعض الحضور الذين يحاولون النوم يقلقون ليلتهم هذه على مصير البطل ،

فالبطل في أذهانهم لا يسجن ولا يؤسر ولا حتى يموت وقد يلجا البعض منهم لكسر هذا الحاجز النفسي لديه إلى السير حتى بيت الراوي طالباً منه حل العقدة لأنه لم يطق أن تبقى هذه العقدة بلا حل في هذه الليلة ، لأن المجهول لا يضمن له البقاء لليلة أخرى وهو مشغول البال دائم التفكير.

حقاً إن حكايا نصف الليل رواية جديرة بالقراءة ، وإني في تقديمي هذا أحيي فيها روح الراوي وجلده على مصارعة آفاق الزمان .

وإني أهيب بالكاتب مزيداً من النجاحات على صعيد الكتابة فإذا كانت الكتابة في حدّها فناً عريقاً فإن الرواية هي فن الخيال ، وكما قلت فإن الروعة تتجلى بالقدرة التي يتميز بها كاتبنا من نقل الخيال إلى عالم الواقع فكأن الأحداث تمر أمامك وتشارك فيها ، فانت مشاركٌ الرواية بحسك وبعقلك ، خاصة عندما يعرض علينا الأمور الأخلاقية . فهو يلامس عتبة الشعور ، فالجنس لم يعد حاجة إنسانية ضرورية تحتاج لإرواء مستمر ، وإنما يجعل من الجنس هدفاً تربويا تعليميا يقف القارئ أمام حوادثه محكّما ضميره ، لأنه مما لا شك فيه سيتعلم من البطل كيف يضع قدمه على الأرض عندما يخطو في طريق إرواء هذه الحاجة ، فعليه ان يخاف المجهول الذي سيظهر له فجأة وكأنه عقاب أو محاسبة قانونية مصدرها الحدس الداخلي، فلا يجد نفسه إلا وقد

تراجع بعد ان يصدر الأمر الذاتي بالتراجع ، فما هي إلا عملية وعي وحكمة تعلمها القارئ من خلال الرواية

وأكرر تحيتي الحبيّة للكاتب مراد راجيا له كل التوفيق والنجاح

سلمية في 2015/5/15

أحمد علي زهرة

غـادرت مسـافرا إلـى العاصـمة لزيـارة أحـد أقـاربي فـي المشفى، بعدما أجري لـه عمل جراحـي فـي العمود الفقري. دخلـت المشـفى، وبعـد اسـتعلام مكتـب الـدخول عـن مكـان تواجـده ، قصـدت تلـك الغرفـة وكانـت فـي الطـابق السـادس ضـمن متعلقـات قسـم الجراحـة ، حيـث خصـص هنـاك قسـم صــغير للــذين يتعــافون بعــد أن يكونــوا قــد اجتــازوا كــل الاختبارات والفحوصات التي تدل وبشكل غير قابل للشك أن مـا أجري لهـم قد تم بنجـاح . لـذا يـتم فـرزهم إلـى حيـث تـتم مراقبتهم من قبل القيمين علـى ذلك القسـم ، والذي كـان من صـميم واجبـاتهم الاهتمـام بمن تجـاوزوا مرحلـة الحـرج ومالـت حـالتهم للشفاء ، وبـذلك يتخلصـون من مسؤوليتهم تجـاههم . دخلت غرفة كبيرة حوت ثلاثة أسرّة خصص لقريبي أوسطها كان يجلس مسترخيا علـى مسـاند طريـة وضـعت تحت ظهره ورقبته ، ليتمكن من ممارسـة هوايتـه، ألا وهـي، تلك الحشرية اللطيفـة ، إذ كـان يثيره أي شـيء يصـدر عمـن هـم حولـه ، كونهـا المـادة الصـالحة لموضـوعات يباشـر بتناولهـا فـور حـدوثها . وكـان إبّـان ذلـك يشـير بكلتـي يديـه وهـو يتحـدث بموضـوعات لـم أفهـم منهـا وقتهـا سـوى أنـه كـان يتحـدث عـن نفسه.

وهو بحالته هذه انتبه لي وأنا ألج الباب. توقف عن الكلام فجأة وكأنه صدم بوجودي إذ بقي فمه مفتوحا وكذلك بقيت كلتا يديه حيث كانت .

ظل هكذا هنيهة إلى أن بادرت بالسلام محيياً الجميع مطمئنّا على حالهم عندها انفرجت أساريره وهو يستدير ليتولى ناصية الحديث مهلا ومرحبا بي ، وبعد أن هنأني بسلامة الوصول وجه كلامه لزملائه في الغرفة قائلاً :

- هذا ابن عمي جاسر ، وقد أتى لزيارتي. ومن ثم التفت نحوي متابعاً حديثه :
- " هذان زميلاي في الغرفة ، السيد محمود والسيد حسين، وهما من المنطقة الشمالية وقد أجريت لهما عمليات جراحية كحالتي ، ولوجودهما معي دور هام في تسريع عملية شفائي فهما نديمان من الطراز الأول .."
- أهلاً بكما ، كيف صارت حالتكما الآن ؟
- الحمد لله ! يلزمنا بعض الوقت كي نعود لعهدنا السابق.
- إن شاء الله تغادرون هذا المكان وأنتما بكامل صحتكما
- شكراً يا أخي ، أهلاً بك كيف حال العالم خارج هذا المكان
- ممتاز ، هل تستفسر عن شيء محدد؟
- نعم
- ما هو؟

- بخصوص ما تنوي تلك الدولة الطاغية
- من طبيعتها التدخل في كل شيء وبالأخص في منطقتنا
- معك حق ولكن ما نسأل عنه: هل ستقود ذلك الهجوم ؟
- نعم هذا ما يتردد حالياً على ألسنة الناس وكذلك ما يدلي به قادة ذلك البلد المتغطرسون
- هل يستطيعون القيام بذلك حسب رأيك؟
- نعم ، يستطيعون ذلك وبسهولة لأنهم يمتلكون من القوى الشيء الكثير بالإضافة إلى ما لهم من تأثير وسيطرة على تلك الهيئة الدولية والتي كان من أهم أسباب نشوئها حل وفض النزاعات وبالتالي منع الاعتداءات بين الدول . ولما لهم من سلطة مالية وتأثيرات اقتصادية استطاعوا وبكل قوة الإمساك بقدرات ومصائر دولٍ عدة وتسييرها في ركابهم مجندين كل ما يملكون من قوة في سبيل تحقيق مطامعهم تلك .
- صحيح ، فالفعل كله للمال فسلطته لا تقاوم
- ليس بالمال وحده استطاعوا السيطرة على مقدرات العالم بل بتقاعس وعمالة رجالات استولوا على سدة الحكم في بلادهم بشتى الوسائل وبالأخص الدعم المطلق من تلك الدولة ، والتي كانت قد خططت لوضعهم حيث هم لتُحَرِّكَهُم كيفما تشاء ومتى تريد في أي وقت كان

- معك الحق كله : فما أكثر هؤلاء في عالمنا وبالأخص في منطقتنا
- في منطقتنا وبقية أنحاء العالم
- صحيح ، رغم انفراد بعض الدول التي اتصفت قياداتها بشيء من الوطنية فبالرغم من إمكاناتها المحدودة إلا أنها شكلت ولم تزل عقبة في وجه تلك القوة الغاشمة
- رغم أهمية ذلك لكن إن لم تتحد كل القوى المناوئة لجموح تلك الدولة فالأمور ستصير إلى الأسوأ والكارثة ستقع على عاتق البشرية جمعاء فيصبح كل فرد من أفرادها عاملاً وخادماً في كنف أسياده الجدد
- إذاً وحسب رأيك الكارثة حاصلة لا محالة
- نعم يا سيد حسين وإن كنت أتمنى عكس ذلك
- هذا أقصى ما يتمناه الجميع بمن فيهم نحن لأنه إن حدث ستغرق المنطقة بالفوضى وستعم الويلات لتشمل الجميع – أجارنا الله من شر ذلك –
- نعم أجارنا الله لكن الدعاء وحده لا يكفي
- ما الذي باستطاعتنا فعله ؟
- نستطيع أن نوحد قِوانا كدول في هذه المنطقة ونشكل قوة رادعة إن لم نرهب تلك الدولة ووليدتها المدللة نستطيع جعلهما يفكران ألف مرة قبل اتخاذ أي قرار

- هذا محال إذ أن معظم من هم في سدة السلطة من صنائع تلك الدولة فهم يقرّون لها بالولاء.
- نعم وهنا الطامة الكبرى
- وهنا أشار لي ابن عمي بأن أفتح الخزانة وأحضر من داخلها علبة الحلوى لآخذ حصتي وأقدم لزميليه بعضاً منها . قمت وأحضرتها ونفذت ما كان قد أشار لي بفعله ومن ثم سألته :
- كيف حصلت على هذه الحلوى ؟
- أحضرها أخي على معه يوم أمس
- كيف سمحوا له بذلك ولم يسمحوا لي بإدخال ما كنت قد أحضرته لك ؟
- هل منعك أولئك الحمقى ؟ انتظر وسأريك ما أنا فاعل بهم.
- عندها ضغط على زر جانبي ليحضر أحد الممرضين على الفور
- إذا سمحت أبا عبدو أرسل أحداً من قبلك لإحضار ما جلبه لي ابن عمي من حاجات
- هل منعه أولئك الحمقى من إدخالها؟
- نعم.
- تكرم أبا رائد ، ولكن ما اسم ابن عمك؟
- جاسر.

- حالاً سأرسل من يقوم بذلك هل تطلب شيئاً آخر؟
- شكراً لك أبا عبدو.
- كيف تطلب من شخص كهذا ما طلبته؟
- لا عليك فقد عقدت معه ومع بعض من زملائه علاقة صداقة متينة.
- أحسدك على طبيعتك هذه يا رجل.
- هذه منة من الله.

غادرت المشفى بعد أن رتبت له كل أغراضه في الخزانة على أن أعود ثانية قبل أن أسافر . وفي طريقي أثناء عودتي حيث استقللت حافلة صغيرة تتسع لأكثر من عشرة أشخاص وكانت جلستي بجانب شخص متوسط القامة أسمر البشرة يرتدي ثياباً عربية من جلابية وفوقها سترة طرزت بخيوط منسقة التفت نحوه لأجده محدقا بي مدققا في وجهي ، ابتسمت له وحييته قائلا :

- مساء الخير.
- مساء النور ، ألم نلتق من قبل؟
- ربما ولكنني لا أذكر.
- وجهك مألوف لدي.
- يخلق من الشبه أربعين كما يقول المثل.

- من أي البلدان أنت ؟
- من إحدى قرى المنطقة الوسطى.
- من قرية تل التفاح؟
- تماما.
- ألست من آل أحمد؟
- نعم صحيح ، كيف عرفت ؟
- من ملامحك.
- وهل ملامح آل أحمد مميزة إلى هذا الحد؟
- نعم لأن لكم سمة خاصة لا يشابهكم فيها أحد.
- ما هي ؟
- طريقة تحريككم لرأسكم حين تمشون وتتكلمون بالإضافة إلى تكوين جفونكم العليا.
- كيف ذلك؟
- إنكم تتميزون بتلفت مستمر بالإضافة لما تقومون به من حركاتٍ بجفونكم وخاصة العليا إذ أنها وبتكوينها تشبه إلى حد كبير أجفان سكان الهند الصينية.
- ألهذا الحد!؟
- أجل.
- " لم أنتبه لذلك قبلاً " قلتها وأنا أنظر في مرآة تعلو رأس السائق حيث تأكدت من صحة ما قاله هذا الرجل ثم تابعت قائلاً:

- لم أتشرف بمعرفتك.
- أنا عمر العاصي صديق ابن عمكم أبي رائد.
- أبو رائد !
- نعم لقد خدمت وإياه فترة طويلة في سلك الشرطة قبل أن نتقاعد
- ألم تسمع بما حدث له؟
- خير ..!؟ . قالها بتوجس . ما الذي حدث له ؟
- لقد أجرى عملية جراحية في العمود الفقري ، وكنت في زيارة له قبل قليل.
- هل أنت قادم من المشفى؟
- نعم.
- لِمَ لم تقل لي قبلاً؟
- لم يفت الأوان فباستطاعتك النزول والعودة إن شئت ذلك.
- الآن صعب جداً لأني أقصد محطة الانطلاق حيث قمت بحجز تذكرة في رحلة مغادرة بعد قليل إلى مدينة السويداء.
- هل تقطن هناك؟
- لا فأنا أُقيم قي إحدى قُرى طرطوس.
- خير إذاً ما سبب سفرك إلى تلك المنطقة؟

- أقصد شركة خاصة تنتج غراس زيتون مهجنة كان بعض معارفي قد نصحني بها
- أنت ابن منطقة تسمى عندنا " أم الزيت والزيتون " وتقصد ذلك المكان !؟
- نعم لأن أشجارنا الحالية لم تعد تفي بالغرض لذا أصبح لزاما علينا تجديدها
- هل سبقك أحد وجرب زراعتها ؟
- نعم ، كثيرون جداً أولئك الذين قاموا بذلك
- وهل كانت النتائج مرضية؟
- نعم بل ممتازة
- رائع جداً أن نجد من يفكرون بتحسين وتطوير مصادر رزقهم أمثالك
- هذا ما نسعى إليه ... إن لم يكن من أجلنا فمن أجل أبنائنا وأحفادنا
- وفقكم الله .. " من فضلك أنزلني هنا " قلتها للسائق حيث نزلت على ناصية الشارع بعد أن ودعته ودعوته لزيارتنا

اجتزت الشارع إلى الجهة الثانية حيث يوجد درج يؤدي إلى نفق ينقل المارين من هناك إلى بوابة منطقة شعبية . قمت باستدارة كاملة حول مجموعة أبنية قديمة ذخرت معالمها بالبضائع القديمة والتقليدية إلى أن وصلت ساحة

رصفت أرضها بالحجر الأسود الصقيل وكانت تعج بالمقاعد الخشبية التي ركبت هناك لاستخدامها من قبل المارة لاستراق لحظات من الزمن يستردون فيها أنفاسهم بين جولتي تسوق أو تفقد لمعالم تلك المنطقة الساحرة .

اخترت مقعداً يقبع في زاوية قصية من تلك الساحة الجميلة التي كانت تلك البحرة التي ابتدعت زخارفها أياد مبدعة تضفي على كل ما ذكرت رونقاً رائعاً بالإضافة إلى تلك الطراوة التي تنتج عن تيارات الهواء التي تخترق خيوط مائها مسترقة بعضاً من رذاذها المنعش .

جلست هنيهة أراقب المارين في الشارع بشكل عام والجالسين على المقاعد بشكل خاص وكانت غالبيتهم العظمى من النساء والأطفال حيث تتم الحوارات والنقاشات بين من يتشاركون المقعد الواحد أقارب كانوا أم غرباء، وكان التعارف يتم ببساطة جاعلاً من هذا الجو العام سبباً في تحسين ورفع معنويات الناس بالرغم من تلك المعاناة الظاهرة على ملامح الجميع

وأكثر ما أثار انتباهي في تلك اللحظة سيدتان متقدمتان في السن كانتا قد احتلتا مقعدا قريباً من مكان جلوسي ، وكانت كلتاهما غاية في الأناقة والأبهة ، والتي إن دلت على شيء فإنما تدل على المستوى الذي تعيشانه أو على الأقل ما كانت تعيشانه سابقاً

كانت كل منهما تضع على عينيها نظارة طبية وتمسك بعكاز فخم مزخرف بشكل متقن وأنيق ، وتتبادلان الأحاديث الودية التي وددت من كل قلبي أن أستشفّ شيئاً من موضوعاتها .

وأنا بحالتي هذه شعرت أن أحداً جلس على طرف المقعد الذي كنت أحتله . التفتّ نحوه فوجدته رجلاً كبيراً في السن يحمل بيده محفظة من الجلد الفاخر ، وما إن استقر بجلسته حتى بدأ بفتحها بكل روية وتأن ومن ثم قام بترتيب محتوياتها .

دققت كثيراً فيما كان يقوم به ذلك الرجل الهادئ ، إذ شدتني كثيراً طريقته بترتيب وتنسيق وفرز تلك القطع الثمينة ، التي كان معظمها مرصعاً بالفضة وبعض الأحجار الكريمة الرائعة ، وأكثر ما لفت انتباهي تلك الغلايين الفاخرة وكذلك تلك القداحات التي لا تقل عن سابقتها فخامة وجمالاً

انتبه لي وهو يتم عمله فرآني في غاية الانبهار بتلك المقتنيات ، عندها اقترب مني زاحفاً بجسده على أرضية المقعد حتى صارت المسافة الفاصلة فيما بيننا تتسع لتلك الحقيبة وهي مفتوحة، وقال وهو يبتسم:

- هل أعجبك شيء مما أحمل ؟
- كل شيء في هذه الحقيبة يثير إعجابي وإعجاب أي شخص آخر

- تفضل واختر ما تريد وسأراعيك في السعر

صدمني ما قاله حقاً ، كوني كنت قد كونت فكرة عنه غير ما هو عليه بالواقع . انتبه لدهشتي هذه لذا قال :

- لا تقلق يا بني فأنا أعذرك لأن كل من أتعامل معه من أمثالك كان يصدم عندما أعرض عليه بضاعتي ، لظنّه أني من الميسورين ، أو على الأقل من هواة جمع هذه التحف.
- نعم ، صحيح يا عم ، هذا ما كنت أفكر فيه .
- معك حق ، فأنا كذلك وليس كما كنت تظن
- هل أنت فعلاً تبيع تلك البضاعة ؟ أم أنك تحاول المزاح معي تمضية للوقت؟
- لا يا بني ، أنا أبيع هذه البضاعة ومن ريعها أعيش.
- وهل يكفي عائد هذه التجارة لقضاء كل حاجاتك ؟
- نعم ، بعض الشيء ، أو بالأحرى معظم الأيام
- هل لديك مسكنٌ تأوي إليه ؟
- لا فأنا أعيش في فندق من فنادق الدرجة العاشرة حيث أسكن غرفة أدفع بدل إيجارها شهريا
- لِمَ تعيش هناك؟ أليس من الأفضل لك أن تستأجر غرفة عند جيران ؟

- لا ، هناك أفضل بكثير كون القيمين على ذلك الفندق يقومون بتأمين كل متطلباتي أياً كانت لذا تراني بهذه الهيئة دائماً
- عجيب أمرك يا رجل! لهذه اللحظة أنا لا أصدق كل ما قلته ، اعذرني على صراحتي هذه.
- أعذرك يا بني لكن صدق كل ما قلته لك فهو الحقيقة.
- كيف ذلك ؟ ألم يكن لك منزل في سابق أيامك ؟
- نعم ، ليس منزلاً بل قصراً فارهاً يعج بالخدم
- عدت للمزاح ...!
- لا فأنا لا أمزح إطلاقا.
- يا رجل قل غير هذا الكلام فأنا أعرف الكثيرين من أمثالك من الباعة المتجولين وبالأخص أولئك الذين يتعمدون الظهور بكل أناقتهم لزوم المصلحة
- لا يا بني ، فأنا اعتدت على الحياة هكذا منذ نعومة أظفاري ، حيث كان لي من الخدم والحشم العشرات ، منهم من يهتم بملابسي ومنهم بأكلي وغيرهم بمرافقتي إلى المدرسة وآخرون لمتابعة كل هواياتي وأهمها ركوب الخيل والسباحة والصيد .

- هززت رأسي مستغرباً -

- معك حق ، فلو كنت مكانك لتصرفت كما تتصرف ، لأن كل ما قلته لا يقرب الواقع بشيء ، لكن صدقني يا ولدي بأن كل ما ذكرته لك حدث فعلاً.
- ولم آلت حالك إلى ما أنت عليه إذاً ؟
- لعدة ظروف، وليست ناتجة عن سبب واحد إذ ترافقت مجموعة معطيات وتحالفت مشكِّلةً قوة غاشمة جردتني من كل ممتلكاتي وتركتني هكذا كما تراني.
- هل يزعجك إن طلبت منك شيئاً ؟
- أعرف ما هو.
- ما هو؟
- تريد مني أن أقص عليك قصتي بالكامل
- كيف عرفت ؟
- كوني تعرضت لذلك مرات عدة من قبل ، ولا مانع عندي أن أكررها أمامك وأمام كل من سيسألني لاحقاً .
- تفضل إن كان ذلك لا يسبب الإزعاج.
- بكل سرور ، لكن فاتك أن تعرفني بنفسك.
- عفواً سيدي الكريم ! أرجو أن تقبل اعتذاري عن سهوتي هذه.
- لا مشكلة تفضل
- أنا جاسر أحمد من قرية تل التفاح التابعة لمنطقة جميلة من مناطق الوسط الهادئ

- أعرفهـا جيـداً ، أليسـت بلـدة سـامي الكـلاح وفيصـل المداح؟
- نعم ، وهل هما من معارفك ؟
- أجل هما كذلك.
- من أيام الغنى أم من زمن الفقر؟
- من أيام الفقر ، وهل أيام الغنـى تترك أصدقاءً كهؤلاء الأوفياء؟
- معـك حـق لأن صـداقات عهـد الغنـى جلهـا تقـوم والمصـلحة نبراسـها ، أمـا مـا يقـوم مـن علاقـات إبـان مرحلة الفقر فتكون بغالبيتها ناتجة عن معاناة إذ تجمع الظـروف القاسـية النـاس فتجعلهم أكثر إنسـانية وأرهف شعوراً وبالأخص مع الآخرين
- كل ما قلته صحيح ، فالشخصان اللذان ذكرتهما عانيا الأمرين حتى وصلا إلى ما هما عليه الآن . لكنهما لا يزالان على عهد صداقتهما بي ، إذ يقومان بزيارتي في الفندق بين الحين والآخر ، وفي معظم الأحيان يقومان باصطحابي إلى حيث تقام لهما السهرات الخاصة وأثناء نزهاتهم ورحلاتهم العائلية
- نعم فهما لا يردان طلباً لأي شخص يتقدم لهما إن كان بمقدورهما فعل ذلك
- الأصيل يبقى أصيلاً أينما عاش وكيفما صار

- كلام كله درر ، فالأصيل يبقى على أصله وأما التقليد فيذهب هباءً عند أول نسمة
- هل اقتنعت بكلامي ؟
- نعم ، وأريد أن أطلب منك طلباً
- تفضل قل ما تريد قوله.
- أريدك أن ترافقني كي نمضي بقية يومنا هذا في منزل ابن عمي سعد الدين
- ألن نشكل له حرجاً بذلك ؟
- لا ، فهو مدمن عزوبية ، وسيفرح كثيراً بذلك.
- أمتأكد مما تقوله ؟
- نعم.
- إذا عليك بمرافقتي إلى الفندق كي أودع هذه البضاعة وأبلغهم بعدم عودتي الليلة.
- بكل سرور تفضل.
- قام بإغلاق المحفظة وبكل هدوء انتصب واقفاً حيث وضع قبعته على رأسه بكل رزانة وشد صِدَارتَه بكلتي يديه ثم قال : " تفضل يا سيدي " مع انحناءة النبلاء الأصيلين.

دخلنا الفندق وكان بناؤه قديماً جداً إذ كانت سلالمه من الخشب القديم ، وعلى الرغم من قدمه إلا أن القيمين عليه وحسب ما بدا لي كانوا قد بذلوا جهوداً كبيرة للمحافظة على رونقه القديم الذي يجلب للنفس الراحة ، وللنظر متعة تدعو زائريه للحظة استرخاء لذيذة ، فكل ما يراه الإنسان هناك يذكره ببعض مشاهد كانت تعرضها سينما أيام زمان والتي رسخت عميقاً بذاكرتنا رغم كل ما مر علينا ، وما شاهدناه من تطور في عالم البناء ، وبالأخص ما تميزت به تلك المنشآت السياحية.
دخلنا غرفته بعد أن قام باستلام المفتاح من مناوب الفندق الذي ما إن رآنا حتى قام من وراء طاولته مرحباً ومهللاً بالسيد " شاهر بك ". تلفتُّ نحوه لأجده ينظر إلي مدققاً ومتابعاً ردة فعلي آنذاك وقال:
– هذا اسمي ولقبي ، والشخص الوحيد الذي ما زال يناديني به هو هذا الرجل الطيب
– لم هذا الشخص بالذات مازال يكن لك كل هذا الاحترام؟
– لأننا نشأنا معاً في قصر والدي الذي آل إليَّ لاحقاً وكان والده من أكثر مستخدمي القصر آنذاك قرباً من والدي

– آه ، الآن فهمت ، وبالرغم من كل ذلك فهو إنسان وفيٍّ جداً وهذا ما يندر وجوده في عصرنا هذا

– نعم لذا فضلت المكوث هنا حيث يعمل دوناً عن كل الفنادق الأخرى إذ أنني أشعر براحة جمة لمجرد ملاقاته إياي بالشكل الذي رأيته حيث يحيي فيّ أشياء كادت تموت داخلي وأهمها تلك الأحاسيس الجميلة التي يتبادلها معظم البشر .

– أعذرك تماماً ، فقد أثرت فيّ شجوناً كنت أفضل أن تبقى نائمة

– " لا يا بني ، فأنا أنصحك بألا تدع شيئاً ينام فيك " .

قالها وهو يراوح بمكانه أمام خزانة صغيرة كان قد وضع فيها حقيبته ثم قام بقفلها بعد أن رش على يديه وثيابه قليلاً من ماء الكولونيا ومن ثم قادني خارجاً حيث يجلس ذاك الرجل الطيب والذي أراد أن يلاقينا في منتصف الطريق إلا أن السيد شاهر أوقفه بإشارة من يده حيث بقي مكانه لكن واقفاً وبحالة تأهب حتى وصلنا. بادره السيد شاهر قائلاً :

– أبا محمد ، أنا ذاهب برفقة صديقي " جاسر أحمد " وهذا رقم الهاتف حيث نكون.

وتلفت نحوي كي أقوم بإملاء الرقم عليه . فعلت ذلك أوتوماتيكياً وكان أبو محمد يقوم بتسجيل كل ما كان السيد

شاهر يقوله في دفتر صغير كان أمامه . وما إن انتهى من ذلك حتى رفع رأسه وقال :

- هل ستبيت ليلتك هناك ، سيدي؟
- نعم ، وإن أردتني لأي أمر اتصل على ذاك الرقم.
- بالتوفيق سيد شاهر.
- إلى اللقاء أبا محمد .
- مع السلامة سيدي ، وعد لزيارتنا سيد جاسر
- يحصل لنا الشرف أبا محمد وسأفعل ذلك في يوم من الأيام
- أرجو ذلك .
- إلى اللقاء.

غادرنا الفندق قاصدين منزل ابن عمي بعد أن كنا طلبناه هاتفياً من الفندق لنبلغه بقدومنا، وكان قد سر كثيراً عندما أبلغته بأن شخصاً مميزاً سيرافقني .
استقللنا سيارة أجرة دارت بنا معظم شوارع المدينة الرئيسة حيث شقت طريقها باتجاه ضاحية سكنية كانت قد شيدت حديثاً في الجهة الغربية من هذه المدينة العريقة . إذ مررنا بتلك المناطق التي كانت تثير في أنفسنا سابقاً كل شجن فذاك النهر كان ينشر طراوته المنعشة على كل المنطقة بالإضافة للظلال الكثيفة التي

تهبها أغصان الصفصاف التي كانت تلامس رؤوس وأذرع المسافرين آنذاك . إلا أنه وفي أيامنا هذه ، صار كل شيء مغايراً ، إذ انخفض مستوى النهر إلى أدنى حد ، وكذلك ما امتدت له أيادي البشر العابثين لتخرب هذا الغطاء الطبيعي الرائع.

وصلنا مدخل تلك الضاحية حيث انحرفت السيارة صاعدة نحو المبنى الذي يسكن أحد أجزائه ابن عمي سعد الدين والذي كان بانتظارنا على شرفة منزله كعادته عندما يثيره أمر ما وما إن رآنا حتى دخل كي يفتح الباب ، ولاقانا مذ رآنا نغادر حجرة المصعد بوجهه البشوش الذي يمنح النفس طمأنينة فورية.

رحب بنا وهو يقودنا داخلاً حيث أجلسنا في صالة منزله، وكانت عصرية بكل ما تحمله هذه الكلمة من معنى حيث كان مقسماً إلى عدة أركان كان لكل ركن منها نكهة خاصة– ثم غادر إلى غرفته ليغيب برهة ثم يعود وقد بدل ثيابه إذ ارتدى ثياباً فضفاضة مريحة أقرب ما تكون إلى ما اعتاد أبناء العشائر وأهل الخليج ارتداءه . عرفته بصديقي قائلا :

- أقدم لك صديقاً مميزاً تعرفت به هذا اليوم فقط وبالرغم من كل ذلك فإنني أحس بأني أعرفه منذ زمن بعيد .." السيد شاهر بك "

- أهلاً وسهلاً بك سيد شاهر، أنا سعد الدين أحمد ابن عم جاسر، وقد تشرفت بقدومك هذا. قالها بكل لباقة وكياسة كعادته إذ كان سيد من جامل .
- أهلاً بك سيد سعد لقد أعدت إلى ذاكرتي كل ما كنت أحاول نسيانه
- ألهذا الحد أثرنا شجونك ؟
- كلا سيدي الكريم ، لقد أحييتم فيّ على الأقل، بأن الدنيا لم تزل بخير وأن هناك من يعترفون بالقرابة والصداقة حتى الآن .
- الدنيا مليئة بكل المتناقضات ، ففيها المخلصون المتفانون في سبيل الغير ، وبالمقابل فيها الطفيليون الانتهازيون ، ورغم أن نسبتهم هي العظمى إلا أن ما تبقى من الفئة الأولى لهم الكفة الراجحة في ميزان الأخلاق الذي لا يزال خالق الأكوان ينصبه بين البشر ، لأن هؤلاء هم الأحياء أما الباقون فهم ميتون ، رغم أنهم لا يزالون على سطح الأرض يرتقون كيفما شاؤوا ، وهكذا فإن الأرض لكي تستمر بالدوران لا بد لها من وجود هذين القطبين الباقيين ما دامت الحياة على وجه هذه البسيطة . فالنهار في كثير من الأحيان تتضاءل مدته لحساب الليل الذي يسير بفعل أولئك الأموات ، أما عندما يزيد عدد الأحياء فنجد أن النهار يتطاول

ويتمادى على حساب الليل وإلا كان ذاك الليل قد طال مضخماً مساحته ليطغى على الكون بتلك السحب الداكنة إلا أنه ولولا ذلك القطب الموجب والذي يكمل تلك الشرارة التي تدفع أمامها ذاك الطيف السميك مفسحة المجال لبريق متمرد كي يثقب ذاك الحاجز ناثراً ما اختزنه وخبأه من خير يروي ظمأ الظمآن ويدخل البهجة إلى قلب الإنسان

- بداية رائعة سيد سعد الدين ، والمكتوب يقرأ من عنوانه
- ما الذي تقصده سيد شاهر ؟
- إننا سنمضي سهرة ممتعة حسب تقديري
- إن شاء الله ، وسنبذل كل جهدنا ليكون ذلك
- بارك الله فيكما أنتما الاثنين.
- أهلاً بك سيدي الكريم، والآن دعنا من حديث المجاملة هذا ولنلتفت إلى ما هو أهم.
- ما هو ؟ أنا بأمركما.
- سنرتب جلسة شاعرية تناسب لقاءنا هذا
- هذا ممتع ! ما هو دوري لأقوم به ؟
- هل تفضل شراباً معيناً ؟
- لا ، فكل ما ستقدمه سيكون لذيذاً برأيي.
- كما قلت : " بداية جيدة "

- قم يا جاسر وجهز كل ما تحتاجه السفرة من مقبلات ، أما أنت يا سيد شاهر فعليك تجهيز المشروبات التي تجدها هناك في الخزانة . أما أنا فسأقوم بتحضير بعض الأطعمة والتي سأعدها حسب مزاجي ، وستنال إعجابكم إن شاء الله .
- كل ما ستقدمه ودون أن أتذوقه سيكون لذيذاً فالجلسة بالجليس
- شكراً سيدي الكريم.

وما هي إلا لحظات حتى كانت في زاوية من تلك الصالة مائدة عامرة بما لذ وطاب . جلسنا كل في جهة من تلك المائدة بحيث صرنا – نحن الثلاثة – متقابلين . رفعنا الأنخاب في البداية ، وبعد أن أنزلناها بادر السيد سعد الدين قائلاً :

- خذا راحتكما في مأكلكما وشرابكما فلا يتقيد أي منكما بالآخر لكي تتحقق المتعة التي أرجو من كل قلبي تحقيقها في هذه السهرة
- حياك الله يا سيد سعد ، هذا ما كنت سأقوله لأنني أتعرض كثيراً للإحراج من قبل الكثيرين ممن يلجون عالم السمر والسهر والذين يحسبون أن ذلك يتحقق من خلال تقليد من هم في قبالتهم لذا تجدهم يسقطون في هاوية الانتقاد والسخرية في كثير من الأحيان .

- هذا رأيي أيضاً لذا تراني أدع كلاً يفعل ما يشاء وحسب رغبته وطاقته
- " كأسكم " رفعت كأسي حاسماً ذاك النقاش الحامي
- بعد مضي قليل من الوقت التفتُّ نحو السيد شاهر وبادرته قائلاً :
- أتمانع سيدي الكريم بأن تقص علينا قصتك من بدايتها كما وعدتني؟
- بكل سرور إن لم يكن ذلك يسبب الإحراج .
- سامحك الله يا رجل ، فأنت ضيف لطيف ولا يصدر عنك إلا كل ممتع ومفيد
- شكراً على إطرائك سيد سعد .
- اسمحوا لي يا سادتي بأن أبدأ قصتي منذ طفولتي ، والتي قد تفيدكم العبر التي مررت بها كثيراً خلال رحلتي المديدة تلك
- تفضل ، قلها ، كلنا آذان صاغية

.....

" ولدت لأبوين من أثرياء هذا البلد الكبار واللذين كان قد مضى على زواجهما وقت طويل قطعا الأمل خلاله في أن يرزقهما الله بالخلف لذا رتبا حياتهما على هذا الأساس إذ باشرا بتنظيم كل متعلقات حياتهما حيث خصصا وقتاً طويلاً كل عام للرحلات وبالأخص الخارجية والتي كانت في بعض الأحيان تشمل أواخر الربيع وكل الصيف ومن بعدها يعودان ليستقرا بعض الوقت ويقوما بترتيب رحلة العام المقبل.

مرت عدة سنوات وقد قارب والداي الأربعين من عمرهما ، وبالرغم من أن والدتي تصغر والدي بعدة سنوات إلا أن ما مر وضعهما بنفس المصاف. وفي إحدى زياراتهما لدولة أجنبية وبينما كانا يمضيان سهرة لطيفة في كنف عائلة تربطهم بها صداقة وقرابة . لكن من بعيد . بادرت ربة ذلك البيت قائلة :

- لم لا تعرضين نفسك على طبيب هنا يا سيدتي ؟
- قمت بذلك عدة مرات لكن دون جدوى .
- الآن ، لقد اختلف الأمر كليا ، فكل شيء في هذا المجال تطور وتقدم ، وقد قدم إلى هذه المدينة طبيب كان قد تخصص في هذا المجال في دولة كبيرة ومتطورة، وهو ذو سمعة طبية جيدة ، وعلى يديه . كما يقال . حملت نساء عدة ممن قطعن الرجاء في ذلك منذ زمن .
- دعيني من كل ذلك ، لا أريد أن أصدم مرة أخرى.

- بل عليك أن تحاولي ، فلن نخسر شيئاً جراء ذلك.

تدخلت حينها في الحديث عدة نساء ممن حضرن تلك الأمسيّة ، وتحالفن عليها حتى أجبروها على الموافقة ... "

- هل وافقت بالفعل أم أنها مررت ذاك الموقف بهذه الطريقة؟
- لا لقد وافقت ، ففي اليوم التالي حضرت بضعة من أولئك النسوة واصطحبنها إلى عيادة ذلك الطبيب الشهير. وكان تشريفي على يديه الماسيتين إذ كان لنبأ حمل والدتي الميمون وقعه الحسن بل السار على مسامع كل المحبين والأقارب وكذلك الأصدقاء ، فأقيمت حفلات عدة كما أن بعض المحبين قاموا بإلزام أنفسهم بنذور إن تم ذلك الأمر على خير.
- هل نفذوا ما كانوا قد وعدوا به؟
- نعم ، لم يبق مقام أو مزار أو دير إلا وقدّمت له أضحية وكان كل ذلك يتم في جو عام ، حيث تتم دعوة كل المعارف حيث تقام تلك الطقوس ، فيُضرب عصفوران بحجر واحد إذ تستغل تلك المناسبة لإجراء بعض اللقاءات الجانبية التي يقوم بها البعض لعقد صفقات مالية أو اجتماعية ، فكانت معظم تلك المناسبات تسفر عن عقود خطبة ومن ثم زواج .

- ألهذا الحد كانت أوضاعكم ممتازة؟
- قل أكثر من ذلك ، كون والدي من سلالة ثرية في هذا البلد ويمكنك القول أنهما كانا من ركائز الفعاليات الاقتصادية هنا.

عند ذلك غادر سعد الدين قاصداً المطبخ إذ أنه كان طيلة الفترة التي مرت دائم النظر إلى ساعته وكأنه ينتظر شيئاً ما لدرجة أنه لفت انتباهي فسألته :

- ما لك ؟ لم أنت قلق هكذا؟ أتنتظر أحداً ؟
- لا شيء إطلاقاً وإنما أعد لكما مفاجأة

سكتُّ عندها وكل تفكيري قد انحصر بأمر واحد ألا وهو كونه كما عهدته من مبتكري البدع والمفاجآت ، وأحسب أنه قد رتب إحداها بمجرد اتصالي به لأعلمه بحضورنا. عاد بعد قليل وهو يحمل بين يديه طبقاً كبيراً وقد لف بالكامل بورق الألمنيوم وكان البخار يتصاعد من عدة أماكن في سطحه وحوافه. وضعه على الطاولة ، وفرك يديه اللتين كانتا قد شارفتا على الاحتراق رغم ارتدائه كفوفاً واقية من القماش السميك وقال :

- هذه هي المفاجأة ، انظروا وأعطوني رأيكم ..
- ما الذي أعددته أيها الماهر ؟
- ارفع غطاء الألمنيوم هذا ، وسترى بأم عينك ما أعددت

وبالفعل قمت بذلك بواسطة سكين وشوكة ورفعت ذلك الغطاء الرمادي لينكشف أمامي مشهد يثير اللعاب وبالأخص أنا كوني أعشق تلك الأكلة

- " السمكة الحرة ...!؟ " قلتها بصوت عال.
- نعم ، وأرجو أن يكون صديقنا شاهر بك من محبي هذه الوصفة.
- أوه ... أحبها كثيراً ، وقد مضى على آخر مرة تناولتها عدة سنوات.
- حسنٌ ، هكذا أرحتني كوني كنت قلقاً من ذلك الأمر .
- شكراً يا سادة لقد أعدتموني لأجواء صارت بالنسبة لي من الماضي بل أصبحت حلماً يراودني بين حين وآخر أثناء نومي.
- حسنٌ ، فقد أتت سهرتنا بفائدة ما .
- كل الفائدة ، والله العظيم يا رجل مجرد لقائي بكما هكذا دون سابق إنذار وموعد هو الكسب الحقيقي الذي بتُّ أهتم به في هذه الأثناء .
- أهلاً بك سيد شاهر، فأنا كذلك أسعد كثيراً بمعرفة أشخاص مميزين من أمثالك .
- شعور متبادل يا سيديَّ.
- " كأسكما .. " قلتها لأنهي وصلة المجاملات هذه.
- " كأسك .. "

قالاها معاً وبعدها رشف كل منا قليلاً من كأسه وأعادها إلى مكانها على الطاولة . عندها أخذت صحناً وملقطاً وملأته من ذاك الطبق وقدمته للسيد شاهر الذي تناوله مني شاكراً، ومن ثم سكبت لابن عمي واحداً مماثلاً ، وأخيراً ملأت صحني وقلت :

- باشرا الطعام ، فهذا الصنف لا يؤكل إلا ساخناً ، لذا استغلوا الوقت واقضوا عليه.

ضحكا وهما يتناولان قطعاً من ذلك اللحم اللذيذ، حيث تبادلنا الأحاديث المتضمنة بعض الطرائف، ثم قام كل منا بعدما أنهى طبقه إلى حيث الحمّام، حيث أزال عن يديه ما كان قد علق بهما من آثار ذاك الطعام الشهي.

انتقلنا بعدها إلى ركن آخر من أركان الصالة كان قد جهز لحلقة سمر عادية، إذ وازت كل منا طاولة صغيرة حوت عدة أطباق ملأت بالمكسرات وبعض الفاكهة المقطعة بالإضافة إلى وعاء ملئ ثلجاً.

- أرجو أن تكون قد أعجبتكما مائدتي.
- كل ما تقدمونه حضرتكم رائع كونه وكما قلت سابقاً :" الجلسة من الجليس ، والنديم قبل المدام ".
- هذه لباقة تحسد عليها يا سيد شاهر
- لا ، صدقني سيد سعد ، فأنا لم أقل إلا الصدق ، كون الزمن علمني إن أوجّه الكلام كما يجب أن يقال ،

وللشخص صاحب العلاقة بالذات ، بكل واقعية دون أي مواربة أو ممالأة.

- معك حق فالإنسان العاقل هو من يعلمه الزمن.
- كلام جميل ، لأن من لا يتعلم من الحياة مع مرور الزمن لا يكون قد حقق أي شيء حتى وإن نال أعلى درجات العلم وحقق أعظم المكاسب المادية.
- سلم الله فاكُما ، ألا تنتهيان من زِجالكما هذا وتتحولان للاستمتاع بهذا الشراب الرائع وهذه السهرة الساحرة؟
- عفواً سيد جاسر ، لقد أهملناك قليلاً ، وأنا معذور كوني لم أستطع إخفاء إعجابي بابن عمك السيد سعد بشكل عام وبسعة أفقه وثقافته بشكل خاص ، وذلك إن نم عن شيء فإنه ينم عن مخزون هائل من الثقافة والخبرة . آه صحيح أنت لم تقل لي . ما هو عملك سيد سعد ؟
- أنا صحفي .
- صحفي حر أم أنك مرتبط بعمل رسمي لدى إحدى الوسائل الإعلامية ؟
- لا ، أنا موظف في وكالة الأنباء الوطنية منذ زمن بعيد ، ولي اهتماماتي فأقوم بتزويد بعض الصحف الصادرة في بلدنا أو في البلدان المجاورة ببعض المساهمات والموضوعات.
- ممتاز فالعمل في هذا المجال ممتع وشيق.

- نعم ، رغم كل متاعبه فهو كما ذكرت " ممتع وشيق " إذ يستطيع المرء التعبير عن كل ما يختلج في نفسه مباشرة وبطرق عدة .
- رائـع ... رائـع ... لقد كسبت صـديقاً مميـزاً ، فعـلاً أنـا محظوظ.
- بـالعكس يـا سـيدي ، فـنحن المحظوظـان كوننـا التقينـا بشخص مثلك.
- شكراً على ما أوليتماني إياه حتى الآن ، بالرغم من عدم اطلاعكم إلا على النذر اليسير من سيرة حياتي.
- المكتوب يقرأ من عنوانه سيد شاهر.
- ليس دائماً إذ صار من الصعب على الشخص استقراء دواخل أي شخص آخر بالنظر إلى وجهه أو إلى ما بان مـن هيئتـه، كـون مـن أتقنـوا فنـون النصـب والاحتيـال أصـبحوا كثيـرين جـداً إذ لا يكفـي مـا نـراه مـن علامـات على ملامح الشخص وكذلك هيئته ومظهره العام للحكم عليه بدقة.هذا ما حدث بيني وبين السيد جاسر إذ لزم إيضـاح أمـر بسـيط ممـا كـان يثيـر قلقـه، جهـدٌ كبيـرٌ ، وصل لمرحلة أنني قدته إلى الفندق كي يشاهد كل شيء أمام عينيه

هززت رأسي موافقاً ومؤيداً صحة كلامه لابن عمي ، الذي كان يرمقني بعينه ، ليتأكد كالعادة

- صحيح تماماً إذ يجب أن نتخذ الحيطة والحذر عند تعاملنا مع أشخاص نلتقيهم أول مرة كي نتجنب الوقوع في المشاكل
- " كم عمرك سيد شاهر ؟ " . قلتها لأغير الموضوع .
- اثنان وسبعون عاماً.
- ما شاء الله ..! هذا غير واضح على هيئتك سيدي، فمن يراك دون معرفة لا يمنحك من العمر أكثر من خمس وخمسين سنة وإن زادها ستون سنة
- الحمد لله ، لأني لا أعترف بالسنين وأعدادها ، بل أعترف فقط بالوقت الذي يمر دون أن أكتسب فيه شيئاً ، وليس بالضرورة أن يكون ذلك المكسب مادياً فقط ، لذا تراني أعد ذلك الوقت وأراكمه مزيداً من مخزون معرفتي وثقافتي التي بالتأكيد ستأتي بالفائدة عاجلاً أم آجلاً
- هذه فلسفة جيدة في الحياة تستدعي الوقوف عندها والتفكير فيها أليس كذلك يا جاسر؟
- بلى ، معك حق ، فهذه حكمة ، ومن المفيد تجريبها وتطبيق فحواها

- أنصحكما بتطبيقها فما إن تعملا بها حتى تحسا بأن الوقت يمر بطيئاً كون لحظات الفائدة قد تكون قليلة وربما نادرة في كثير من الأحيان ، لذا ستجدان نفسيكما باحثتين عنها في كل شيء يصادفكم وقد تبحثون عنها في وجوه كل من تقابلون وتحتكون بهم.
- لأجل ذلك اخترت المقعد الذي كنت أجلس عليه هناك في الساحة!
- نعم صحيح ، كوني تفرست في ملامحك وأنا أتجه نحوك دون أن تلمحني.
- ما الذي شدك نحوي وجعلك تتجه إلي مباشرة ؟
- راقبتك وأنت تبحث عن مقعد منعزل ، وكذلك رأيتك تتفرس في وجوه جميع من مررت بهم ، وكأن لسان حالك يقول : " ليتني أحظى بشخص أمضي معه بعض الوقت ".
- كيف عرفت ما كنت أفكر به ؟
- ألم تكن تفكر بذلك ؟
- بلى ، لكن قل لي ، كيف عرفت ذلك ؟
- خمنت ذلك تخميناً ، كونك كنت تراقب الشخص القادم نحوك رجلاً كان أم امرأة بتحفز ، وكنت تصاب بشيء من خيبة الأمل عندما يمر بك دون أن يلقي عليك حتى السلام . لذا قصدت مقعدك وتصرفت كما رأيتني.

نظرت إلى ابن عمي الذي أثاره الموضوع لدرجة أنه كان قد شنف أذنيه ليلتقط كل همسة نقوم بها ، عندها قلت له :

- أترغب بالكتابة عن ذلك ؟
- إنه موضوع هام ، ويجدر بي الكتابة عنه لكن بعد أن أستوضح الأمر من السيد شاهر
- أنا جاهز متى شئت.
- سنرتب لأجل ذلك موعداً لاحقاً.
- " أو كي (.OK).... " قالها شاهر وهو يرفع كأسه ليرتشف منها بضع قطرات
- هل أعجبك السيد شاهر يا سعد ؟
- كل الإعجاب.
- ما الذي أعجبك فيه؟
- كل شيء فهو كتلة من المشوقات ، ما إن تنهي موضوعاً حتى تكتشف آخر أكثر تشويقاً
- على مهلك سيد سعد ، أنت تلبسني ما ليس فيَّ على الإطلاق.
- يكفيك تواضعاً يا رجل . هذه حقيقة لمستها بيدي وبحسي الصحفي أيضاً.
- معقول ..!؟ لذلك كنت صامتا طوال المدة الماضية !
- نعم لقد كنت صامتاً عن الكلام ، بينما كان عقلي يعمل بسرعة الضوء محللاً ومدققاً ومحاولاً فكفكة رموزك.

- يا رجل ..!؟ وضعت لي رموزاً أيضاً!
- ليس بالمعنى الحرفي للكلمة بل إن ما قصدته من وراء ذلك أن ما خفي من شخصيتك أكثر مما ظهر بكثير لذلك قلت ذلك.
- هذا أمر عادي ، كون معرفتنا لم يفت عليها سوى بضع ساعات.
- معك حق ، فالإنسان فطر على الاستعجال ، ونحن بشر كما تعلم.
- صحيح ، هذا أمر آخر أريد أن أنوه إليه أمامكم.
- كيف؟
- عليكما أن تتحليا بالصبر في كل مراحل حياتكما وأن تبتعدا عن الاستعجال والتسرع في الوصول إلى النتيجة . مهما كانت تلك النتيجة مهمة في حياتكما . لأن ما هو آت سيأتي، لكنه سيأخذ وقته بالكامل ، لذا نجد من يستعجلون ذلك غالباً ما يصابون بخيبة أمل أو ربما بالإحباط لأن ما تمنوه لم يتحقق رغم كل ما بذلوه من جهد. ألا ترون أن ما يقوم به أولئك المتطورون هو العمل بكل تأنٍ ودقة ليعطوا كل أمر حقه من الوقت والجهد، لذا تراهم يحصدون نتيجة ذلك بشكل ايجابي وبذلك يسبقوننا بعدة أشواط، هذا هو الفرق بيننا وبينهم

كوننا دائماً مستعجلون بينما هم وبالرغم من حاجتهم الماسة لنتيجة ما يفعلون إلا أنهم متأنون.

- كلام جميل سيد شاهر كيف توصلت لهذه القناعة؟
- الزمن .. الزمن وحده كان معلمي الفذ.
- أكنت مستعجلاً كثيراً فيما مضى من حياتك؟.
- كثيراً ، بل يمكن القول أني كنت متهوراً لذا تراني هكذا.
- " هكذا " ، ما الذي تعنيه بهذا الكلام؟
- كما تراني .. بوضعي الحالي.
- أنت على أحسن ما يرام ، بل أنت بوضعك هذا أفضل من الكثيرين.
- نعم الأمر كذلك إن قارنتني بالناس العاديين أما لو أنك اطلعت على سيرة حياتي لقلت غير ذلك.
- صحيح ، فإنك لم تقم بإطلاعنا على ذلك.
- ليس الآن ولكن لاحقاً سأوافيكم ببضع نقاط علام في حياتي الخاصة.
- اعذرنا على طلبنا هذا ، إن كان يثير لك شجنا معيناً نسحب طلبنا هذا واعتبره شيئاً لم يكن
- لا أبداً ، لكن ما قصدته بـ " سأوافيكم لاحقاً " أنني وخلال جلستنا هذه سأنفذ ذلك إن سمح الوقت.
- لدينا الوقت الكافي، فنحن من هواة السهر والسمر ومن عشاق الاستماع للأحاديث الطريفة والمثيرة.

- ممتاز ، فأنا كذلك أحب ما ذكرتم بل أكثر من ذلك إني أعشقه.
- رائع جداً ، فما نسمعه منك مريح سيد شاهر.
- الحمد لله على ذلك ، ولكن قل لي سيد جاسر ما هو عملك ؟
- أنا متقاعد حالياً .
- أكنت موظفاً ، أم عسكرياً ؟
- لا ، كنت موظفاً لدى إحدى دوائر الدولة.
- ما الذي تفعله في وقت فراغك هذا ؟
- لدي قطعة أرض أعتني بها.
- ممتاز ، وهل تدر عليك إيراداً مقبولاً ؟
- بعض الشيء وحسب المواسم.
- هل عندك أولاد ؟
- نعم لدي خمسة وقد أنهوا دراستهم وشق كل منهم طريقه في هذه الحياة.
- كم عمرك سيد جاسر ؟
- حوالي الستين وقد مضى على إحالتي للمعاش سنتان فقط وذلك بناءً على رغبتي
- جيد وهل أنت مرتاح هكذا؟
- بعض الشيء ، كون روتين العمل الوظيفي كان يقتل وقتي أما الآن فوقت فراغي صار كبيراً لذا تراني أقوم

بجولات عدة ومنها هذه ، إذ قمت بزيارة قريب لنا في المشفى قبل لقائنا في تلك الساحة

- جيد أن يقوم المرء بواجباته الاجتماعية ، وهو أمر أفتقده أنا كثيراً
- لماذا ؟ أليس لديك أقارب ؟
- لي الكثير منهم لكنهم هجروني وتفرقوا من حولي عدما أصبحت حالتي هكذا
- ذكرت كلمة " حالتي هكذا " عدة مرات خلال حديثك ، مم تشكو حالتك ؟
- حالتي هذه مقارنة بما كنت عليه ، شيء لا يسر ، بل مخزٍ ومنفّر.
- كيف كانت حالتك سابقاً ؟
- ألم أذكر لكم في بداية حديثي عن وضع أسرتي المادي.
- حال أسرتك وليس حالك
- حال عائلتي هي حالي كوني الوريث الوحيد لكل ما تركوه من ثروات .
- وهل كانت تلك الثروة كبيرة ؟
- كبيرة جداً ، بل قل لا تأكلها النيران " كما يقول المثل الشعبي ".
- ما الذي جرى لتصير إلى ما أنت عليه ؟

- هذا ما كنت قد نوهت إليه بقولي " سأذكر لكم بعض نقاط العلام ".
- لماذا ؟ وهل آلت حالك إلى ما هي عليه على مراحل ؟
- على مراحل ، وكل مرحلة كانت تأخذ معها نصيبها مما كان بين يدي .
- " كأسكم يا سادة ، لقد قلبتم جلستنا هذه إلى جلسة محاكمة " قالها سعد وهو يرفع كأسه ، جاريناه بأن رفعنا كؤوسنا وارتشفنا منها قليلاً بعد أن قرعناها ببعضها.
- أهلاً وسهلاً بك سيد شاهر.
- أهلاً بك ، شكراً سيد سعد.
- هل أنت مرتاح ؟ قل لي إن كان هناك ما يزعجك .
- لا ، فأنا سعيد جداً وأشعر أن شهيتي على الكلام قد زادت ، دع الأمور تسير كما هي ولا تشغل بالك بأي شيء
- ممتاز هذا ما يسعدني كثيراً
- اسمعا يا سادتي: سأبدأ بقصّ بعض من سيرتي التي وحسب ما رأيت أنها أثارت فضولكما
- نعم ، إننا بأمس الحاجة والشوق لمعرفة بعض من تلك التفاصيل إن كان ذلك لا يسبب لك الإزعاج

- لا أبداً لأن ما سأرويه لكم صار بالنسبة لي من الماضي ، بل من الماضي البعيد ، وكما قلت لكم هذا أمر لا يهمني فأنا أعتبر نفسي كسبت رغم كل خسارتي المادية لأن رصيد فائدتي ومعرفتي كبير وهو بالنسبة لي أحسن وأفضل من أي كنز قد يقتنيه أي شخص
- قناعاتك هذه تثير إعجابي ، وهي جديرة بأن يفكر الإنسان بها ويطبقه إن أمكن
- نعم ، ربما ولكن أنا أعتبر أن لكل شخص طريقته في التفكير ، وبالتالي في الحياة لذا وطوال عمري لم أقم بفرض قناعاتي على أحد
- معك حق ، فكل شخص حر في الطريقة التي يسيّر بها حياته
- لذا يا سيدي الكريم سأبدأ من محطة طفولتي والتي لم أزل أذكرها حتى اللحظة.
- تفضل يا صاحبي .
- طفولتي كانت رائعة ، فوالداي كانا بكامل قوتهما ونشاطهما والأهم من كل ذلك أن ثروتهما كانت لا تزال على حالها لذا كنت طفلاً مدللاً بكل ما لهذه الكلمة من معنى ، وكل مرحلة مررت بها كانت تأخذ كل حقها من المتطلبات

إبـان طفـولتي الأولـى كانـت أسـرتي قـد اسـتقدمت مـن أفضـل مشـافي هـذا البلـد آنـذاك أفضـل وأمهـر الممرضـات للعنايـة بـي وبوالدتي لأن حالتها الصحية قد تأثرت كثيراً بعد ولادتي بعملية قيصرية مما ترك أثراً سلبياً على صحتها.

لذا صارت غرفة نوم والدتي وبالتالي غرفتي أشبه ما تكون بغرفة عناية مركزة ، إذ عُقِّمت بشكل تام ومُنِع الدخول إليها بتاتاً أو حتى الاقتراب منها واقتصر ذلك على الممرضات ، وكـان زوارنـا يلقـون علينـا النظـر مـن خلـف زجـاج البـاب والنوافذ.

استمر ذلك حتى تماثلت والدتي للشفاء وكذلك أنا إذ كنت قد تجـاوزت مرحلـة الحصـار الـذي يفـرض عـادة علـى المواليـد الجـدد لـذا تـم نقلـي إلـى غرفـة جانبيـة بعيـداً عـن أمـي التـي كانـت تسـتقبل زوارهـا فـي غرفتهـا بسـبب منعهـا مـن الحركـة نهائياً وقت ذلك لأن الأطباء اضطروا إلى استئصال رحمها نهائياً .

أما أنا فقد فرز لـي عدد من المشرفات الصحيات والخبيرات بالتغذيـة وقـد ظـل الوضـع هكـذا حتـى أنهيـت عـامي الأول. وقتهـا كانـت والـدتي قـد اسـتردت صـحتها تمامـاً لـذلك قـررت وبإصرار أن تقيم لـي احتفالا بمناسبة إتمامي السنة الأولى

- من روى لك كل ذلك؟

- والدتي ، عندما وعيت لما يدور حولي إذ كانت تجالسني لساعات طويلة يومياً في محاولة منها لتَلقيني أهمّ مبادئ الحياة وأساليبها ، لكن بشكل مباشر وجاف مما ترك مفعولاً عكسياً لدي وكان السبب المباشر في كل ما كنت أقوم به من تصرفات .
- كيف ذلك؟ فسر لي الأمر من فضلك – قالها سعد –.
- يا سيدي كي تقنع رجلاً بأمر ما يلزمك بعض الشرح المرفق بالبراهين ، فما بالك أن تقوم بزرع أمر ما أو أي مفهوم في ذهن طفل لم يكتمل نموه العقلي بعد. إذ يتوجب عليك اختيار الأسلوب والطريقة التي تجعل ذلك الطفل يتقبل كل الوارد له دون اعتراض وكل ذلك يتطلب جهداً مضاعفاً وهذا ما لم يكن متوفراً لدى والدتي ولم تكن تعيه تماماً لذا كانت ردة فعلي هكذا.
- ها .. ها .. معك حق ولكن ألم يتدخل أحد من جيش المربيات اللاتي أحضرن للعناية بك آنذاك؟
- الطفل ليس بحاجة لمربية أو مشرفة بل هو بحاجة لحنان أمه وعطف أبيه وكل ما عدا ذلك يصبح ثانوياً
- ألم تُحَط بذلك من قبل والديك ؟
- نعم ولكن كان لفارق السن بيني وبينهما الأثر الأكبر في ذلك وفي الوقت نفسه لن يفسحوا المجال للمربيات كي يقمن بذلك رغم كل ما قدمنه من نصائح

- مشكلة ... كيف يتثنى لكهل أن يعتني بطفل صغير ..!؟ فعلاً هذه مشكلة دائمة الحدوث في مجتمعاتنا.
- نعم، هناك العديد من الأمثلة على ذلك.
- المهم ، كيف سارت الأمور لاحقاً ؟
- استمر الوضع على حاله حتى صرت في سن الروضة
- وهل كانت الروضات موجودة في ذلك العهد ؟
- نعم ، وكانت كلها فرنسية أو بإشراف فرنسي
- صحيح لقد فاتني ذلك كون ولادتك قد تمت في عهد الانتداب
- أجل وهذه المرحلة من حياتي هي الأحب إلى قلبي لذا لم تزل راسخة في ذاكرتي حتى هذه اللحظة وكأنها حدثت أمس
- لماذا ؟
- لأنها كانت أول اتصال لي بالعالم الخارجي وبالأخص لمن هم في مثل سني ، فتبدّلت حياتي تماماً حيث صرت هادئاً وغير متمردٍ أو معترض وصرت أقبل الأمور بكل بساطة في الوقت الذي كنت أعارض وأعاند وأرفض كل شيء لمجرد الرفض سابقاً. بالإضافة لما كنا نتلقاه من معارف وغيرها من أمور مفيدة والأخص تلك الأحرف والألفاظ الغريبة والجديدة التي كانت تلقننا إياها مدرسات رائعات فائقات الجمال.

- أتقصد اللغة الفرنسية ؟
- نعم وكنت أجد لذة كبرى في لفظ تلك الأحرف وأولى الكلمات.
- وهل لا تزال تجيد تلك اللغة حتى الآن ؟
- نعم هي والانكليزية وقليلاً من الإيطالية والإسبانية.
- حقاً ما تقوله ..!؟
- نعم.
- وكيف تعلمت كل ذلك؟
- ستعرف ذلك لاحقاً لأن لكل لغة مما ذكرت محطة في حياتي.
- معك حق ، أنا آسف ، لقد فاتني ذلك.
- كما قلت لكم كانت سعادتي لا توصف في تلك المرحلة كوني أقمت علاقات صداقة مع صبيان وبنات من عمري وكنا نلعب معاً ونتبادل الهدايا والدفاتر وغيرها ، والأحلى من كل ذلك ما كنا نقوم به أثناء رحلاتنا التي كانت تتم داخل المدينة وخارجها وكان المشرفون على تلك الروضة ينظمونها.

بقيت هناك حتى صرت في سن المدرسة النظامي أي أنني كنت قد أطفأت الشمعات الست التي كانت قد غُرست في قالب حلوى كبير جداً كان بعض من أصدقاء أهلي قد قدموه في تلك المناسبة.

- هل كانت مرحلة المدرسة ممتعة كمرحلة الروضة.
- ليس تماماً بالرغم من انتقال العديد من رفاقي ورفيقاتي في الروضة معي إلى تلك المدرسة إلا أن كل شيء قد تغير بدءاً من النظام إلى المناهج الذي أصبح أكثر صعوبة وقساوة حيث تولى تدريسنا ذلك مدرسون ذكور إلا بعض المواد كالرياضة والرسم والموسيقا حيث تولت تدريسنا إياها مدرسات فرنسيات لذا كانت تلك المواد الأحب إلى قلبي وقلب معظم رفاقي.
- معك حق. المادة التي تقوم بتدريسها مدرسة فرنسية لطيفة وجميلة غير المادة التي يقوم بتدريسها رجل جلف وخشن "قلتها له".
- نعم ولكن ليس هذا هو السبب الوحيد بل إني كنت لا أحب تعلم تلك المواد المعقدة كالحساب والعلوم وغيرها.
- ما الذي كنت تحب تعلمه إذاً؟
- المواد الأدبية كالأدب والشعر والقصة واللغة لذا عانيت كثيراً.
- المهم أنني تجاوزت مرحلة التعليم الابتدائي والذي كان ينتهي عند الصف الخامس حيث يمنح الطالب وقتها شهادة كانت تعتبر كبيرة في وقتها وكانت تسمى «سرتفيكا» وكانت تؤهل حاملها التدريس في مدارس الدولة لكن والداي كانا قد رفضا أن أكتفي بهذه الشهادة

لذا عَمَدا إلى تسجيلي في مرحلة التجهيز وهي ما يطلق عليه حالياً «الإعدادي» وهنا كانت معاناتي الكبرى والحقيقية إذ زادت تلك المواد صعوبة وتعقيدا، وبالرغم من كل ذلك قمت بالضغط على نفسي وتمكنت من التأقلم بعض الشيء مع الجو الجديد . والذي كان له الدور الفعال في كل ذلك وجود بعض من الفتيات معنا في نفس المدرسة، ورغم قلة عددهم كان لوجودهم الأثر الكبير في تلطيف وكسر خشونة ذاك الجو.

- ألم تقم علاقة غرامية في تلك المرحلة؟
- نعم ولكن لم تكن غرامية بالمعنى الحرفي للكلمة كون مشاعر الولد في هذه المرحلة لم تكن قد استقرت بعد.
- لكنها مرحلة لذيذة من عمر الإنسان.
- نعم، إنها لذيذة جداً. أنا أوافقك الرأي في ذلك.
- هل حصلت على الشهادة الإعدادية؟
- نعم، حصلت عليها بالرغم من كل الصعوبات التي لاقيتها آنذاك لأن والداي كانا قد كلفا بعض المدرسين الخصوصيين لمتابعتي ومواكبتي في كل ما كنت أتلقاه من معارف يومياً مما أدى لترسيخ تلك المعلومات في ذاكرتي.
- هل التحقت في المدرسة الثانوية؟
- نعم ولكن ليس هنا بل في بيروت.

- لماذا في بيروت؟
- لأن الحركات والثورات التي كانت قد اشتعلت في كل مكان من البلد قد حالت دون ذلك إذ حدَّت من حرية حركة الطلاب والمدرسين وفي الوقت نفسه خوف أهلي عليَّ كوني وحيدهم لذا ولضمان سلامتي قاما بإرسالي إلى بيروت حيث سجلت في مدرسة داخلية. وكانت تلك المدرسة تدار من قبل رهبان أجلاء. وكان والداي يقومان بزيارتي بين الحين والآخر وكلما سمحت لهما الظروف الأمنية بذلك.
- هل كانت تلك المرحلة مريحة لك؟
- جداً يا سيد سعد.
- لماذا؟
- لأن الأوضاع هناك كانت هادئة وكذلك طريقة وأسلوب ومنهاج الدراسة والذي كان مريحاً جداً لذا تراني لم أجد صعوبة تذكر طيلة تلك المرحلة الممتعة من عمري.
- تقول ممتعة. قلتها له وأنا أغمز بعيني.
- لا تغمز، لأني سأروي لكم ما حدث كوني قررت ذلك من قبل.
- هات أسمعنا من فضلك. ولا تقاطعه. قال سعد.
- حاضر يا سيدي.

- يا سيدي كانت الدراسة هناك مختلطة وكانت الفتيات هناك أكثر تحرراً وانفتاحاً من بنات بلدنا آنذاك لذا كان الوضع يسمح بإقامة علاقة صداقة وقد تتطور لتصل لمرحلة العلاقة العاطفية.
- هل أقمت علاقة هناك؟
- بل علاقات ولكن ما كان قد نصبه لي والداي من حواجز . أعاقت ذلك . بل منعته تماماً لذا اقتصرت العلاقة على المعاملة الودية فقط.
- لم أعاق والداك ذلك؟
- لأسباب عدة وأهمها الدين.
- لا حول ولا قوة إلا بالله . هذه المشكلة القديمة الجديدة التي تعترض حياة الشبان والشابات في كل زمان ومكان.
- هذا شرع لا يمكن تجاوزه.
- يمكن ذلك وببساطة.
- كيف؟
- بالرجوع إلى النصوص بشكل علمي ومنطقي، عندها نجد أن كل شيء عادي وسهل وممكن.
- أمعقول ذلك؟ قلتها لسعيد.
- نعم ولولا ذلك لما كان الغرب قد تجاوزه منذ زمن.
- هناك يوجد انحلال واضح ومتفشي بشكل كبير.

- نعم قد يكون الأمر زاد عن حده الطبيعي لكن المشكلة الأساسية حُلَّت لذا ترك الأمر للأفراد كي يقرروا ما يريدونه بأنفسهم.
- أتظن أن من الممكن حدوث ذلك في مجتمعاتنا.
- لم لا، يمكن ذلك ببساطة.
- كيف؟ ألا ترى هذا الكم الهائل من المعيقات.
- لا أدري.
- نعم وكن على يقين من ذلك فقد تعرض دعاة الحرية لأشد أنواع الضغوط . ولكن ولتضافر الجهود تمكنوا من فرض ذلك.
- كيف فرضوا ذلك؟ وهل من الممكن فرض أي شيء على شخص هكذا؟
- لم يفرضوا ذلك بالقوة ولكن ضمن منهاج عام لتغير العادة والتقاليد وتطويرها تدريجياً فبذلك سهل الأمر كثيراً.
- وهل من السهل تغيير العادات والتقاليد؟
- نعم وببساطة ولكن بشيء من الهدوء ووفق منهج واضح ومدروس ومنطقي مضافاً إليه تضافر جهود كل المتفهمين لذاك الأمر لأن العادات والتقاليد ليست أمراً منزّلاً من السماء، بل هي تكرار لفعل واحد ولمدة طويلة من الزمن لذا تجد أن الشخص يقوم بتنفيذها ببساطة

ودون تفكير، هذا وعندما يتم تغيير تلك العادات تدريجياً ودون أية تصادمات، قد تعيق ذلك وتؤجج معارضة المستفيدين من كل ذلك بجميع هيئاتهم اجتماعية كانت أم دينية.

- أنت تبسط الأمور أكثر من اللازم.
- لا يا بن العم. هذا هو المنطق إذا بقينا محافظين على تلك العادات والتقاليد التي أكل الدهر عليها وشرب سنبقى هكذا "مكانك راوح" مدى الحياة.
- معك كل الحق يا سيد جاسر، لأن من أسباب تخلفنا الأساسية تمسكنا بتلك العادات والتقاليد البالية والأهم من كل ذلك اِتِّباعُنا لتلك التفسيرات الخاطئة للكثير من تعاليم وإرشادات أديانا بشكل عام.
- أوصلت أذرعكم لتعاليم الأديان!؟ قلتها مستغرباً.
- لا لم نمس الأديان وتعاليمها إنما نرفض التبعية المطلقة لأولئك الذين ينصبون أنفسهم قيمين على تلك التعاليم والإرشادات والذين قاموا بتفسيرها على هواهم وحسب ما تقتضيه مصالحهم الشخصية.
- لكن من ذكرتهم، يُعتَبَرون المصدر الأول للمعلومات ويمنحون ويتمتعون بثقة الغالبية العظمى من تلك الشريحة الكبيرة في مجتمعاتنا.
- هنا الطامة الكبرى يا سيد جاسر.

- لماذا؟
- لأن الغالبية العظمى تسير مغمضة العين خلف أولئك دون تفكير لذا قام وعمل هؤلاء بترسيخ تلك الأفكار والمفاهيم في أذهان وعقول أتباعهم لدرجة أن كل من أولئك المتلقين قد قاموا بإغلاق وسد منافذ مخهم وعقلهم على ما دُسَّ به من أفكار وغيرها رافضاً فتحها والبحث فيها خشية ضياعها كما يقولون.

وكون المخ النظيف هو المخ الذي كان قد شرع نوافذه لتلقي كل ما هو جديد من كل الجهات تماماً كالغرفة إذا تم سد كل نوافذها وأبوابها. يفسد هواؤها وتصبح غير صالحة للاستعمال إلا بعد أن تفتح تلك النوافذ ليتجدد هواؤها وتصبح أكثر صحية.

- تعبير رائع سيد سعد. هذه قناعتي أنا تماماً وهذا ما كان يرفضه كل من التقيتهم سابقاً، حيث رفضوني وقاطعوني وأكثر من ذلك بل رموني وألصقوا بيَّ صفة الإلحاد.
- هذه تهمة جاهزة بيد أولئك المعممين الأدعياء. وللأسف نجد من ينفذ ذلك ويتقيد به دائماً ويلتزم به.
- صحيح ولكننا لا نستطيع تغيير ذلك بهذه البساطة.
- لم نقل يجب تغيير ذلك بكبسة زر، بل قلنا بكل هدوء وروية وعلى مراحل وقد يستغرق ذلك سنوات قد تصل

لعقود، لأن التسرع في مثل هذه الأمور يأتي في كثير من الأحيان برد فعل عكسي يخرب أكثر مما يصلح.

- إن كان الأمر هكذا، معكم حق ـ المهم يا سيد شاهر حدثنا عن غرامياتك في بيروت ـ
- بيروت ـ آه من بيروت وليالي بيروت وسهرات بيروت ! ماذا أقول؟ وكيف أصف لكم ذلك؟

بيروت يا سادتي كانت مدينة رائعة وراقية بكل ما تعنيه هذه الكلمة من معنى إذ كانت مركز الإشعاع الحضاري والثقافي في ذاك الزمن كون دور النشر والمطابع المنتشرة والناشطة هناك هي كل ما كانت تمتلكه كل المدن الغربية وقتذاك. وإن دلّ ذلك على شيء فإنه يدل على ما كان لهذه المدينة من دور في نشر الوعي والثقافة.

- كل هذا نعرفه جيداً ولكن. الآن حدثنا عن النساء: قلتها له.
- يا سيدي الكريم. منذ أن وطأت قدميَّ أرض تلك المدرسة وقع نظري على مجموعة شبان وشابات كانوا يتحلقون حول طاولة حجرية كانت قد غرست في ارض تلك المدرسة. ذات الحديقة الوارفة، وكان من بينهم فتاة سبحان خالق الأكوان. كم هي جميلة.
- صفها لنا.

- سأصفها لكم يا سيد جاسر لأنه إن لم أقم بذلك فلن يكون لحديثي أية بهجة ومتعة.
- ألهذا الحد كانت جميلة؟
- بل قل أكثر من ذلك . يا سيد سعد . إذ كانت وحسب ما رأيتها من بعيد بيضاء البشرة، سوداء الشعر، ذات وجه كالبدر في تمامه، عيناها لوزيتان فمها كحبة الكرز، وشكلها العام كان يدل على أنها رقيقة البنية.
تقدمت حولهم كالمسحور وسلمت معرفاً بنفسي.
- ردوا بكل لباقة وهم واقفون. مددت يدي وسلمت عليهم كل بدوره حتى جاء دورها. مددت يدي لألتقط يدها سرى تيارٌ كاد أن يصعقني. بحيث شددت على يدها وأنا أنظر في وجهها بكل وجل. بقيت هكذا دون حراك ولا كلام حتى قامت هي وبكل لطف ولباقة بسحبها
بقيت هكذا وجلاً حتى قامت بمبادرة لكسر حدة الموقف حيث قدمت نفسها ومن ثم قامت بتقديم كلٍ من زملائها بعد ذلك.
- ما كان اسمها؟
- سوزان وكانت طالبة في الصف الثاني الثانوي الفرع الأدبي.
- أي أنها كانت تكبرك بعام تقريباً.

- نعم. لقد كانت تكبرني بعام واحد، ومنذ تلك اللحظة لازمتها كل الوقت، وحيث تسمح الظروف. فتوطدت علاقتنا كثيراً خلال سنتي الدراسة المقبلتين.
- وهل كان يحصل لقاءات وعلى انفراد فيما بينكما؟
- نعم كثيراً.
- ما الذي كنتم تفعلونه خلال ذلك؟
- أراك، قد بدأت تتعمق أكثر في أسئلتك سيد جاسر.
- نحن نتسلى وفي الوقت نفسه مثل هذه الأحاديث تثير بعض الحنين.
- يا سيدي ذات يوم وبينما كنا نسير في ممرات ذاك المكان ذي الأشجار الكثيفة والعالية. اقتربت منها أكثر وقمت بمسك يدها، حاولت في البداية الإفلات منها إلاّ أن قبضتي كانت قوية بحيث صَعُبَ عليها ذلك لذا استسلمت خانعة.

سرنا هكذا فترة لابأس بها حاولت ترك يدها أثناء ذلك مرات عدة حيث تململت في البداية إلا أن إصراري على ذلك دفعها لأن تدع الأمور تسير على سجيتها علمت من خلال ذلك عدم رفضها ومعارضتها للأمر.

عندها توقفت واستدرت نصف دائرة لأصبح قبالتها تماماً وقمت بمسك يدها الثانية ومن ثم قمت بإفلات يديها لأقوم بضمها من خصرها وشددتها نحوي وسط دهشتها

من تلك الحركة المفاجئة وبكل سرعة لثمت فمها وتركتها وابتعدت قليلاً تحسباً لردة فعلها آنذاك والتي قد تكون عنيفة.

وقفت مكاني مراقباً إياها حيث بقيت للحظات كالمنومة وهي تنظر إليَّ بملء عينيها وبفم مفتوح قليلاً. عندها اقتربت منها وأمسكت يديها ونطقت معتذراً، في تلك اللحظة. استعادت وعيها إذا قامت بنفض يدها اليسرى من يدي وقادتني دون كلام إلى أن وصلنا أقرب مقعد حيث جلسنا متباعدين. لفترة قامت بعدها بشدي نحوها حيث صرنا متلاصقين، مر وقت طويل دون كلام إلى أن بادرت بمد يدي إلى وجهها حيث أدرتها نحوي وحدثتها بهدوء قائلاً:

- اعذري همجيتي تلك، إذ أني لم أستطع تمالك وضبط نفسي حيال جمالك الآخاذ.

عندها فترت شفتاها عن ابتسامة لتلمع أسنانها البيضاء كانبلاج شفق الصباح من بين جمر آخر جذوة الليل دون أن تتكلم.

جلسنا هكذا إلى أن قرع جرس المدرسة الكبير معلناً انتهاء الفسحة ووجوب العودة إلى مقاعد الدرس.

- وهل استمرت علاقتكما طويلاً؟

- نعم حيث توطدت لتصير أكثر حميمة إذ قررت أن ارتبط بها رسمياً فور حصولي على الشهادة الثانوية.
- هل فعلت ذلك؟
- لا. لأنها غادرت المدرسة قبلي بعام، وفي الوقت الذي كنت فيه أتقدم لفحص الشهادة الثانوية غادرت إلى باريس لتباشر دراستها الجامعية هناك.
- هل التقيتها بعد ذلك؟
- نعم. ولكن بعد مرور وقت طويل.
- هل كانت لم تزل على عهدها؟
- لا كونها كانت قد تزوجت بعد سفرها بعدة أعوام وأنجبت وهي لم تزل تعيش هناك.
- أما زالت على قيد الحياة؟
- نعم. ولو أنك رأيتها لحسبتها لم تتجاوز الخمسين من عمرها.
- يعني أنها لم تزل تحتفظ بجمالها.
- بل أصبحت أكثر جمالاً وإشراقاً من قبل حيث ذاك الوقار أضفى على كل ما فيها جاذبية يصعب وصفها كلامياً.
- هذه نظرة محب.
- لا أنكر ذلك، كون ما ذكرت هو الحقيقة بعينها.
- متى رأيتها آخر مرة؟

- منذ سنتين حيث غادرت إلى هناك برحلة سياحية.
- وهل كانت كما عهدتها مخلصة لصداقته وعلاقتها بك؟
- نعم، وأكثر من ذلك إذ قامت بتقديمي لأولادها بصفتي صديق صباها وشبابها.
- هكذا ببساطة!
- نعم لأن ذلك يعتبر أمراً عادياً هناك.
- يا سلام يا بن العم، كم الفرق شاسع بين مفاهيمنا ومفاهيم أولئك!
- هذا ما كنا قد قلناه سابقاً من حيث وجوب ذاك التغيير.
- يا سيدي معكم كل الحق، فحديث السيد شاهر عن تلك العلاقات وطبيعة البشر يثير في النفس شجناً وأسىً كبيرين.
- معك حق يا سيد جاسر، لذا تراني وكما أسلفت اعتبر لحظات سعادتي تلك هي الأوقات التي عشتها لذا قمت بوصفها بأنها حلقات أو محطات في سلسلة عمري المديد.
- كم صار عدد تلك الحلقات حتى الآن؟
- أكثر من عشرين وستتعرفون عليها من خلال سياق حديثنا هذا.
- إذاً أنت لم تزل ابن العشرينات من العمر.

- تستطيع قول ذلك. كأسكم. قالها وهو يرفع كأسه ليرتشف قليلاً منها.

قمنا بتقليده وكل منا يسرح بخياله بعيداً.

- قل لي يا سيد شاهر وبما أنك تملك تلك الخبرة في كل شؤون الحياة. هل من الممكن أن يحدث تغيير في طريقة حياة وتفكير مجتمعاتنا؟
- نعم ولكن يجب أن يتم ذلك بهدوء وتدريجياً.
- كيف؟
- لأن تلك العادات والتقاليد كانت قد ترسخت عبر عقود كثيرة حيث أطلقت جذورها في ذهن الإنسان في مجتمعنا. ولإحداث أي تغيير حيال ذلك يلزم القيام بإجراءات عدة.

أهمها البدء بتغير بعض المناهج التعليمية بدءاً من سني الروضة وصاعداً بحيث يتزامن ذلك مع نشر برامج توعية تقوم بها هيئات اجتماعية تعليمية لبقية المراحل العمرية كي لا تلقى معارضة من أولئك.

- هل تظن أن الأمر بهذه السهولة؟
- نعم بل أنه في غاية السهولة إن توفرت النيات الطيبة والصادقة.
- لكن مجتمعنا يعيش في المرحلة الحالية حالة إرباك وضياع بين فكر متحرر ومتطور لكن طروحاته مستفزة

بعض الشيء. وفكر سلفي متزمت يرغب بالعودة إلى أصول الدين والشريعة كما كانت تطبق قبل قرون من الزمن ناسياً كل ما كان قد حدث من تطورات في كل نواحي الحياة وبالرغم من كل ذلك نجد تحولاً واضحاً في طريقة تفكير وتصرفات النسبة الكبيرة من أفراد المجتمع إلى حيث تكون تلك الفئة.

- كلا الطرفين . خاطئ . لأن الأول ورغم أهميته إلا أنه لا يقوم بما عليه من واجبات سبق ذكرها كونه يقدم وصفة جاهزة وعلى الناس تطبيقها كما هي هكذا.
- أما الطرح الثاني والذي يقوم باستغلال عواطف ومشاعر الناس مستغلاً طيبتهم وتربيتهم التي كان لتعاليم الأديان كافة الدور الأكبر فيها. لذا تراهم يجدون في أولئك تربة خصبة وصالحة لنشر وتنشيط تلك الأفكار.
- ما سبب ذلك برأيك؟
- له عدة أسباب . أهمها . غياب الأحزاب والهيئات السياسية عن الساحة كونها كلها تحولت إلى جمعيات اجتماعية التفت قادتها إلى مصالحهم الشخصية ناسين دورهم الأساسي ألا وهو العمل على تطوير وتقويم مسيرة المجتمع.

وثانيهما، تغاضي أجهزة الدولة وغض نظرها على ما تقوم به تلك الجمعيات ذات الطابع الديني الأمر الذي

ساعد وسهل حركتها ونشاطها وبالتالي انتشارها الواسع. في مجتمع كمجتمعنا.

أما السبب الثالث والأهم حسب رأيي . هو . البرامج التعليمية والتي لم تكن لتواكب التطور الحاصل في المجتمع البشري بشكل عام وفي منطقتنا بشكل خاص لذا نجد أن التلميذ يعيش حالة تشتت بين ما تقدمه له أسرته وبيئته من تعاليم وأفكار وما تقدمه وسائل التعليم من معلومات.

- أنا سأضيف إلى كل ذلك ما تقدمه وسائل الإعلام من أفكار عبر برامج أُسِّسَت وبُرمِجَت لتحاكي عقول الأجيال الصاعدة موسعة الشرخ القائم بين ما يتلقاه الجيل الصاعد من معلومات وأفكار وبين بقية فئات المجتمع، حيث تُقَدَّم تلك الأفكار مقلوبة وبأسلوب شيق ومثير للرغبات في كثير من الأحيان لذا تراهم يتهافتون على ما تقدمه وتطرحه تلك المؤسسات من مواد.

أضف إلى كل ذلك ذاك النظام العالمي والمسمى "انترنت" والذي يمكنه الدخول والوصول لأي منزل إذ أنه أصبح في متناول يد أي مراهق دون أن تتمكن عين المراقب من متابعته ومراقبته... وهنا تكمن الطامة الكبرى لذا وكما ذكرت يجب أن تتوافق الأفكار وتتوحد الجهود بين الأسرة والمجتمع وهيئات التعليم كافة

وبرعاية من جهات الدولة كافة للوقوف في وجه هذا السيل الجارف الذي يجتاح عقول ويربك أفكار الجيل الصاعد من مجتمعنا وبقية مجتمعات العالم الثالث كافة.

- نعم صحيح، أضف إلى كل ذلك ما يتم استيراده أو تهريبه في كثير من الأحيان حيث ينتشر كالنار في الهشيم ضمن تلك الأوساط من تلك البرامج المنسوخة على أقراص مدمجة والتي تقدم الحلول السهلة لأصعب المشاكل . مع قلب كل المفاهيم إذ يصبح المقاوم مجرما وإرهابياً . والقاتل المجرم بطلاً أسطورياً يلذ لهؤلاء تقليده والتمثل به.

وهنا تصل الطامة الكبرى إلى حدها شبه النهائي كون ذاك الجيل والذي يعقد كل مجتمع آمالاً عظاماً عليه، أصبح وبغالبيته ذا فكر مشوه وفي أكثر الأحيان مغيب حيث انتفت من قاموس حياته مفاهيم عدة، وأهمها بل وعلى رأسها التفكير المنطقي والمحاكمة الذهنية، والتي ما أن تأخذ دورها حتى تتغير كل أساليب وطرق تفكير وحياة ممارسيها، لذا قامت تلك الجهات بتكريس ما أُسِّسَ، إذ قامت بتغذية ودعم تلك الأفكار وترسيخها أكثر عبر مغريات أحدث وأمتع.

- معك حق سيد شاهر كون كل ذلك تظافر واتحد موجهاً كل جهوده لضرب وحدة المجتمع وترابطه، لذا توجّب على كل إنسان ذي ضمير ويتمتع بحسٍ إنساني بشكل عام أن يوجه كل جهوده لتصب وتتكاتف مع من يماثله لتؤدي في النهاية إلى مصلحة المجتمع بشكل عام.
- صحيح لذا قلت يلزم الكثير من التأني والهدوء ليحقق كل ذلك هدفه الصحيح والمنشود.
- تماماً لأن حرق المراحل كما أثبتت التجارب أنها تأتي بمفعول عكسي في الكثير من الأحيان.
- هذا ما أردت قوله كوننا لا نريد الوقوع مجدداً بالأخطاء.
- كلام جميل، وهنا يأتي دوركم يا معشر الصحفيين.
- أية صحافة يا رجل؟
- ألست صحفياً؟
- نعم أنا كذلك ولكن....
- لم استغربت طرحي إذاً؟
- كون العمل الصحفي في مجتمعنا مثله مثل جميع الأعمال يخضع لشروط صارمة ومحاذير يلزم العاملين تجنبها.
- وما الضير في ذلك؟

- بـذلك يسـلب الصـحفي أهـم مقومـات عملـه ألا وهـي التفتيش عن العيوب وكشفها وفضحها وبالتالي وضع الحلول إن لزم الأمر.
- وهل أنت ممن ينضوون تحت لواء ذاك المخيم؟
- نعم كغيري من العاملين في هذا المجال، كون لا حول لنا و لاقوة.
- هذا أمر فظيع، بل فظيع جداً، كونكم تمثلون السلطة الرابعة.
- أية سلطة يا رجل؟ دع الأمور كما هي واتركها لباريها.
- هزَّ رأسه، مُستكيناً عن غير رضا لأن متابعة الحديث على هذا النحو سيخلق جواً غير طبيعي وغير مريح وبالأخص خلال هذه الجلسة التي كانت ولغاية هذه اللحظة قد أدخلت السعادة للجميع.
- الآن يا سادة دعونا نؤجل هذا الحديث إلى لقاء آخر ولنلتفت إلى الأهم، ألا وهو هذه المائدة العامرة.

كأسكم، رفع الثلاثة كؤوسهم وشربوها دفعة واحدة حيث بنى كل منهم هدفاً خاصاً به.

- انتظرت قليلاً إذ أفسحت المجال لكليهما كي يرتب أفكاره ويعود لطبيعته، بعدها قلت للسيد شاهر.
- والآن يا سيد شاهر وبما أنك قد حددت حياتك وشبهتها بالسلسلة حتى الآن لم تقم بذكر سوى حلقة واحدة منها.

- ما قصدك من وراء ذلك؟
- فهمكم كفاية سيد شاهر.
- ها ها ، أنت تريد أَن تَسمعَ حديثاً طرياً، إن نفسك خضراء كما يقولون يا سيد جاسر.
- الإنسان في مثل سني يكون بحاجة إلى شيء من التطرية كالآلة القديمة حيث تحتاج بين الحين والآخر لإضافة شيء من مواد التطرية كالزيت والشحم مثلاً.
- تشبيه بليغ سيد جاسر رغم بساطته وبدائيته إلا أن لامس الحقيقة في أكثر من جانب.
- أليس كذلك؟ يعني أنك مقتنع بوجهة نظري.
- نعم تماماً. لأن المرأة والحديث عنها يثير في النفس كوامنها وبالتالي يحفز حركتها التي تزحزح المشاعر والأحاسيس قليلاً قليلاً، ما تلبث بعدها أن تبدأ عجلتها بالدوران بكل سلاسة وسهولة.
- الله، الله، يا سيد شاهر أراك قد حوّلت منحى الموضوع من جهة إلى جهة أخرى.
- لم أحول شيئاً نهائياً فكل الأمور مرتبطة ببعضها، لأن الإنسان المرتاح والسعيد يرى ويعيش كل دقائق حياته بهدوء وروية كونه يكون قد أطلق عقله وذهنه من عقالهما.

أما التعيس فهو عبارة عن آلة خربة هي بأمس الحاجة إلى شيء من الزحزحة والتحريك كي تسلسل حركتها. لذا ترانا بين الحين والآخر نلجأ لجلسات كهذه وغيرها من مكافحات الملك وكاسرات الروتين. قالها وهو يغمز بعينيه لابن عمي سعد.

- ابتسم سعد قائلاً: معك حق سيد شاهر، لذا أعتذر عما كنت قد ذكرته.
- لا عليك يا رجل، فما قام به السيد جاسر كان جيداً كونه قام بزحزحة وتحريك كل شيء فينا من مكانه. لذا وتضامناً مع هذه الفكرة سأروي لكما شيئاً عن الحلقة الثانية من سلسلة عمري.
- ايه يا سيد شاهر. كم أنت لبق!
- لا يا رجل، بل يجب أن نعطي كل لحظة حقها.
- هذه فلسفة أخرى، سأضيفها إلى قاموس حياتي.
- نعم. قم بإضافتها كونها فعلاً هامة جداً لأن أعظم مآسينا، تكمن في أننا نعيش لحظات عمرنا متأثرين بلحظات كانت قد مرت وانتهت، إذ بدلاً من استخلاص العبر مما قد مرَّ، نبقى نفكر ونعيد وفي أغلب الأحيان بيننا وبين أنفسنا مما يرهق كياننا وكيان من يعيش معنا ويبادلنا اللحظات نفسها.

لذا تراني يا سيد سعد أعيش حياتي لحظة بلحظة، ولا ألتفت إلى الخلف نهائياً.

- ألا يخطر ببالك الماضي نهائياً؟
- بالطبع ولكن عندما يحضر يكون بحجم أكون قد حددته أنا مسبقاً بذلك أمنعه من إعاقة حياتي الحالية، ولولا ذلك لكنت قد صرت في عداد الموتى أو في أفضل حالاتي أحد نزلاء تلك المصحات المنتشرة بكثرة في كل مكان.
- كيف تمكنت من تحجيم ذاك الماضي.
- كما أسلفت، كنت أعتبر منه وما تبقى أضعه ضمن حجم محدد وأتركه جانباً لذا تراه عندما يستطيع التطفل على حياتي يحضر بحجمه هذا والذي لا يسمح له بالتمادي كثيراً إذ كان أقصى ما يمكنه فعله هو إشغالي عندما أكون وحيداً.
- لهذا السبب أنت تسعى دائماً لإقامة علاقات ومع أشخاص جدد في كثير من الأحيان لم تكن قد عرفته قبلاً، إلا أنهم ليسوا من الماضي.
- لا، ليس تماماً، لأن معرفة أشخاص جدد يحفز عقلك ونفسك ويعطيهما دفعاً إلى الأمام، فمعرفة الناس كنز مؤجل الدفع والصرف.
- كيف ذلك؟

- كون من تتعرف عليهم . عليك اختبارهم . وبالتالي إن كانوا ممن يستحقون لقب صديق وبالرغم من قلتهم بل وندرتهم في كثير من الأحيان هم ذاك الكنز الذي ذكرت وإلا فسيمرون كمرور اللحظات نفسها، إذ لا يبقى منها سوى ما كان قد وضع ضمن ذاك القالب.
- يا إلهي، كل شيء عندك له فلسفته الخاصة!
- يا رجل تعود وتقول فلسفة، هذه ليست فلسفة، بل طريقة في الحياة.
- كيف توصلت إلى تلك القناعة؟
- الزمن بالإضافة لمعاشرة الناس هما المعلمان الفذان في هذا المجال.
- هز رأسه ابن عمي سعد موافقاً وكأن لسان حاله يقول معك حق.
- مالكما، إذ كلما أعدتكما إلى أرض الواقع تجنحون فوراً إلى عالم الأفكار والنظريات، دعونا نستمتع بما لذ وطاب يا سادة يا أحباب.
- معك حق اعذرنا سيد جاسر. فابن عمك لا يستطيع أن ينسى أنه صحفي، إذ أن حشريته وفضوله يجعلانه دائم الحركة والنشاط وكل همه التقاط أي فكرة أو موضوع ليثير من جرائه قضية قد تدوم طويلاً لأن كل شيء في هذه الحياة له ارتباطاته ومتعلقاته بكل ما يحيط به.

- صحيح سيد شاهر، كون ما ذكرت خارج عن إرادتنا لأن طبيعة عملنا وخصوصيته تجعلنا نُظهر هذا تلقائياً وفي كثير من الأحيان دون ترتيب.
- اعلم ذلك لذا تراني أجاريك وأفسر كل ما تسأل عنه.
- لذا اقطع عليه طريق غريزته هذه والتفت إلى ما كنت قد طلبته منك سابقاً.
- معك حق، سأفعل ذلك كي يبقى هكذا يجترّ تساؤلاته ولو لفترة قصيرة.
- حيّاك الله، دعنا منه ولتلتفت للأهم، وغمزت له بعيني.

ابتسم بمكر قائلاً:

- حاضر يا سيد جاسر. إذ لك ولأمثالك أهمية كبرى في هذه الحياة.
- كيف؟
- كون الحياة لا تستمر إلا بركائز ثلاثة: مفكر، ومنفذ ومستفيد.
- ومن أي تلك الأصناف عددتني؟
- من الثالث كونك تحاول الاستفادة من كل شيء وفي كل المراحل دون أن تلتفت للصنفين الباقيين نهائياً.
- وأنت وابن عمي.
- نحن منطقياً يجب أن نعد من أولئك الذين يسمون مفكرين.

- ومن إذن أولئك المنفذين.
- هم الذين وجدوا بالحياة لينفذوا ما كان قد فكر به وخطط له غيرهم على الواقع لذا تراهم دائمي الحركة. وفي أغلب الأحيان، لا يتلقون أو يحصلون على أي شيء من نتائج عملهم نهائياً وإن كان ذلك فيكون غاية في الضآلة لأن المستفيدين استنفذوها لأنها تجرب عليهم.
- معنى ذلك أنا وأمثالي فائزون دائماً.
- لستم فائزين، بل مستفيدين. لأن الفائزين هم من يتلقون نتيجة عملهم أياً كانت، كمحصلة لما قاموا به لذا يسمون كذلك حتى وإن كانوا قد فشلوا في محاولاتهم تلك أكثر من مرة.
- يا إلهي من أين تأتي بكل هذه الأفكار؟
- كما سبق وقلت من الزمن والناس.
- معقول!
- ألا تريدون أن تسمعوا شيئاً من الحلقة الثانية؟
- نعم وبكل تأكيد.
- لذا اصغوا السمع لما سأقوله.
- ذات يوم وبعد أن سافرت سوزان بقيت هكذا محبطاً ولفترة طويلة إلى أن قرعت باب غرفتي فتاة، قد جاءت لتطلب كراساً خاصاً بمادة العلوم.

فوجئت بمجيئها وقتئذٍ، حيث تحركت بسرعة كالملسوع لأحضر لها ما طلبت دون أن أبادلها الكلام إطلاقاً حيث أغلقت الباب بعد أن غادرت وعدت لفراشي وكان صقيع كانون قد نزل واستقر بين أكتافي.

تدثرت جيداً طالباً الدفء، الذي عزّ حضوره، بقيت هكذا فترة طويلة وكل تفكيري آنذاك كان منحصراً بأمر واحد ألا وهو استعادة شيءٍ من ملامحها، ولكن عبثاً لذا قمت من فراشي واتجهت نحو الحمام الخاص بغرفتي حيث بقيت فترة طويلة تحت ماء الرشاش الدافئ محاولاً جلب واستدراج الاسترخاء لأعصابي والتي كانت قد انشدّت إلى أقصى حد، وكذلك باءت محاولتي بالفشل.

لذا ارتديت ملابسي وغادرت الغرفة قاصداً حديقة المدرسة علني أراها هناك. وبالفعل قصدت ذات المقعد الذي كنت قد اعتدت الجلوس عليه منذ أن حطت قدماي أرض هذه المدرسة وبالأخص عندما كنا نلوذ إليه مبتعدين عن أعين المراقبين أنا وسوزان.

جلست وحيداً هناك في تلك الزاوية المنعزلة من حديقة المدرسة تلك، مرت فترة كنت خلالها قد شردت بأفكاري بعيداً في فضاء ذاكرتي الحافلة بكل شيء إلى أن سمعت وقع خطىً آتياً من خلف ظهري مباشرة. تلفت لأجد صبية متوسطة الطول قادمة نحوي وكانت تحمل

بيدها ذاك الكراس. عندها استعدت ملامحها شيئاً فشيئاً وبشكل اضطرادي مع تقدمها نحوي إذ كانت تعقد منديلاً أحمر على جبهتها مرجعة خصلات شعرها إلى الخلف بحيث بان وجهها المدور جلياً ناصع البياض كالثلج وأكثر ما ورد إلى مخيلتي ذاك الوقت حركة شفتيها اللتين كانتا في غاية الجاذبية إذ كانت تخرج الحروف من بينها بغاية السلاسة لتصل إلى زغابات أنفي قبل قبل أذني لأن لطريقتها تلك بالنطق لذة غامضة كعبق عطر الليل.

اقتربت مسلمة، مادةً يدها معرفة بنفسها قائلة:

- أنا أعرفك جيداً، فأنت شاهر زميلنا ومنذ عامين.
- ممتاز هذه بداية طيبة قلتها وأنا أمسك بيدها.
- إن شاء الله تكون كذلك.
- إن شاء الله، تفضلي بالجلوس إن لم يكن لديك مانع أو واجب تقومين به.
- لا أبداً فأنا الآن في فترة الراحة.
- تفضلي إذاً
- حاضر.
- كيف حالك؟
- الحمد لله.
- من أي المناطق أتيت؟

- من الجبل.
- كيف الجو هناك بشكل عام؟
- ممتاز لكنه بارد ليلاً حتى في فصل الصيف.
- لكن هواءه عليل.
- نعم هو كذلك.
- هل تحبين تلك المناطق؟
- نعم كثيراً.
- لماذا؟
- لأني عندما أكون هناك أستطيع أن أعيش على هواي وكيفما أريد إذ أقوم بجولات ضمن تلك الغابات والأحراش بحيث أقوم برصد كل ما تقع عليه عيني. وبالأخص مشهد الغروب والشروق حيث أتابع تلك التبدلات والتباينات التي تحصل ثانية بثانية.
- أنت محظوظة كونك تعيشين هناك.
- نعم أظن ذلك إذ أني أترقب وقت الإجازة بفارغ الصبر لأطير كما تفعل الأطيار حين نطلقها من سجونها وأقفاصها.
- أهنئك على تعبيرك هذا.
- لا تبتئس فأنا أدعوك لزيارتنا في أول فرصة تسنح لك.
- أشكرك. فأنا أتمنى ذلك من كل قلبي لكني أخشى أن يسبب ذلك الحرج لك.

- لا حرج إطلاقاً فأهلي قرويون متفهمون جداً ويسرهم أن أقدم لهم صديقاً جديداً قد انضم إلى مجموعة أصدقائي من كلا الجنسين.
- ممتاز أحسدك مجدداً على ذلك.
- وعلى هذا أيضاً.
- نعم.
- هل قمت بتلك الزيارة؟
- نعم وعند أول فرصة منحت فيها إجازة ولمدة يومين وكان ذلك بمناسبة وطنية حيث تعطل المدارس هناك وحتى الخاصة منها.
- كيف كان استقبال أهلها لك؟
- كانوا في غاية اللطف والدماثة والكرم.
- وكيف وصلتم إلى تلك المناطق؟
- بواسطة الحنتور، إذ كانت كل التنقلات هناك تتم بواسطة الحنتور.
- وهل هي ممتعة تلك الجولات بهذه الواسطة؟
- جداً كون الإنسان يرى الطبيعة حوله جلية واضحة.
- كيف أمضيت تلك الإجازة؟
- مرت كلمح البصر. إذ أقيمت لي عدة ولائم وفي أكثر من مكان تماشياً مع العادات والتقاليد آنذاك إذ كان سكان المنطقة يتبادلون الأدوار فيما بينهم إن حل ضيف

غريب على أحدهم بحيث يلزم الضيف بأن يتناول كل وجبة من يومه في منزل إذ لا يتمكن الشخص من تناول وجبتين في يوم واحد وفي مكان واحد مهما كانت إجازته طويلة.

- هل قادتك في رحلة ضمن رحاب تلك الغابات؟
- نعم.
- وهل كانت بمفردها؟
- نعم.
- وهل كانت ممتعة؟ وغمزت له بعيني.
- نعم. قالها مبتسماً. لقد كانت ممتعة بكل ما لهذه الكلمة من معنى.
- حدثنا عن ذلك.
- يا سيدي الكريم وبعد أن قامت انطوانيت بتجهيز وتحضير بعض المستلزمات والتي كانت قد وضعتها في حقيبة تحمل على الظهر غادرنا المنزل قاصدين غابة قريبة.

استمر سيرنا فترة لابأس بها إلى أن وصلنا إلى منطقة أشجارها متفرقة بعض الشيء حيث قادتني نحو شجرة كبيرة وعلى الأغلب كانت قد اعتادت الجلوس تحتها.

وبالفعل كانت تلك البقعة التي تظللها تلك الشجرة واسعة ونظيفة ومستوية. أنزلت الحقيبة عن ظهرها ثم قامت

بفرش قطعة قماش على الأرض، حيث أفرغت محتويات تلك الحقيبة عليها ومن بعدها قامت وشدتني قائلة:

- تعال لأريك شيئاً.

رافقتها مستسلماً لكل رغباتها إلى أن وصلنا إلى مكان وكأنه قد اقتطع من الجنة منذ قليل. إذ كان هناك نبعة ماء تنبثق من بين الصخور لتجمع مياهه في كل مكان منخفض مشكلاً بركة ماء كبيرة وكان العوسج يتدلى عليها مثل جدائل الصبايا، وقفنا لبرهة هناك متوارين، وبشكل لا شعوري وجدت نفسي أقترب منها وأمسك بيدها وكانت دهشتي الكبرى وقتها كونها لم تمانع ذلك ولم تقم بأي ردة فعل.

شددت على يدها أكثر، عندها طرفتني بنظرة ملؤها الخبث، عند ذلك تركت يدها لأضم خصرها بيدي اليسرى تلك، وكذلك الأمر لم يصدر عنها أية ردة فعل لذا تماديت أكثر.

- ماذا فعلت. قلتها له وأنا أحملق فيه مستعجلاً إياه كي يتابع ما بدأ فيه قبل قليل.
- عندها قمت بشدها مديراً إياها لتصبح قبالتي تماماً حيث قمت بلف خصرها بكلتا يديَّ الاثنتين. شددتها أكثر نحوي لتلتصق بجسدي تماماً، عندها اقتربت بوجهي أكثر منها ومن رأسها بالتحديد حيث عانقتها لفترة،

أحسست خلالها أنها كانت في غاية الراحة والاسترخاء لذا تشجعت ولثمت عنقها، عندها زاغت من بين يديَّ مبتعدة بمكر وغنج، لاحقتها مطولاً، دون جدوى حيث قادتني إلى حيث كانت تلك السفرة.

جلسنا وتناولنا طعاماً خفيفاً ومن بعدها قمنا بجولة ثانية في رحاب تلك الغابة الرائعة.

- كم استغرقت رحلتكم تلك؟
- بضع ساعات وكانت قد انتهت عند حضور شقيقها ليبلغنا بضرورة العودة كون طعام الغداء أصبح جاهزاً وأن هناك العديد من الأقارب والذين حضروا كي يتعرفوا عليّ ويجالسوني.

وبالفعل أمضينا وقتاً ممتعاً جداً، إذ كان من بين الحاضرين رجلٌ بارعٌ بالعزف على آلة البزق . تلك الآلة الرائعة . استمرت تلك الجلسة إلى ما بعد منتصف الليل حيث أمضينا سهرة رائعة. رقصنا وشربنا وكانت أول مرة أتذوق طعم العرق بحياتي.

- هذا المشروب الرائع قالها وهو يرفع كأسه بيديه الاثنتين ويتطلع بها وهو يتابع حديثة ، حيث قام بارتشاف بضع قطرات منها بكل استمتاع وبعد أن أعادها قال:
- لقد رضخت حينها لرغبة كل الموجودين آنذاك كي أجرب هذا المشروب. وبالفعل قمت برفع كأس كان والد

زميلتي قد ملأه لي وشربت منه بشيء من الحذر، لم استسغ طعمه في البداية لكن وبعد عدة رشفات انفرجت أساريري وبالتالي لساني حيث بدأت عقده تنحلُّ شيئاً فشيئاً إلى أن انطلق متحرراً نهائياً من كل قيوده، لذا صرت أغني وأرقص وأقوم بترديد بعض العبارات الفكاهية التي كنت قد تعلمتها أثناء معاشرتي لتلك الشلة من زملاء المدرسة هنا.

- وبعد ذلك، ما الذي حدث؟
- عدنا معاً إلى المدرسة صباح اليوم التالي لنلتحق بمدرستنا.

استمرت علاقتنا ولكن في هذه المرحلة كانت قد تطورت لتصير أكثر جدية حيث وصلت إلى نهايتها لتصبح أكثر حميمية.

- ماذا تعني بكلامك هذا؟
- يا سيد سعد، لقد توصلنا بعلاقتنا لمرحلة الارتباط الفعلي والرسمي.
- وهل تم ذلك؟
- كاد أن يتم لولا تدخل فَعَلَةِ الخير.
- عند من تم التدخل، عند أهلك أم عند أهلها؟
- لا عند أهلي طبعاً حيث فوجئت بحضور والديَّ دون أي إنذار إلى مكان سُكنايَ.

- لم حضرا بهذا الشكل؟
- لمنع قيام تلك الرابطة كون الفتاة من دين آخر.
- وهل كانت من دين آخر فعلاً؟
- نعم ألم أذكر اسمها أمامكم؟
- يا سيدي ما العمل فالشريعة لا تسمح بإقامة مثل هذه علاقة.
- نعم هكذا برر لي والداي الأمر، إذ يتوجب على المرء أن يرتبط ويتزوج من ملته بالذات كي لا يموت بغير علته كما يقال!
- وهل نفذا قرارهما، بالفعل؟
- نعم.
- كيف؟ ألم تعارض ذلك؟ أو على الأقل ألم تقم بمحاورتهم؟
- حاولت كثيراً، ولكن دون جدوى.
- لو كنت مكانك لقمت بتهديدهم!
- قمت بذلك، إذ هددت بأن أُقدِم على الانتحار في حال إصرارهم على موقفهم هذا، ولكن كل ذلك لم يثمر بتاتاً.
- كم كانوا قساة القلب!
- لا لم يكونوا كما ذكرت، إلا أنهم كانوا وحسب مفهومهم يحاولون المحافظة عليّ.
- كيف يحافظون عليك؟ وقد هددتهم بالانتحار.

- هم كانوا في غاية الثقة من أني لن أقدم على ذلك لذا قاموا بإقناع إدارة المدرسة كي توافق على نقلي إلى مدرسة مماثلة هنا في بلدي فبذلك كانوا قد ضمنوا فراقي الأبدي لتلك الفتاة الرائعة.
- هل نقلوك فعلاً؟
- نعم حيث حصلت على شهادتي الثانوية من هنا.
- ألم تتابع دراستك الجامعية؟
- نعم فقد حصلت على شهادة الليسانس في إدارة الأعمال ولكن ليس من هنا.
- ومن أين إذاً؟
- من فرنسا.
- إذن سافرت إلى فرنسا أخيراً.
- نعم.
- وهل التقيت بسوزان هناك؟
- نعم.
- ألم تحاول إعادة ما كان قد مضى؟
- لا كونها قد تزوجت من رجل متفهم بعد سفرها بقليل وكانت سعيدة بحياتها، لذا اكتفيت بصداقة تلك العائلة.
- ممتاز، ولكن كيف وافق والداك على إرسالك إلى هناك بمفردك وأنت وحيدهم؟

- لم يكن أمامهم سوى ذلك كون مجالات الدراسة هنا كانت محدودة، إذ أن البلد قد نال استقلاله حديثاً.
- إذاً. هكذا فرطت الحلقة الثانية من سلسلة عمرك.
- نعم هذا ما كان قد حصل.
- والحلقة الثالثة. هل كانت في فرنسا؟
- لا لم تكن هناك، بل في بلد آخر، وقد تستغربون ذلك إن ذكرت اسمه أمامكم.
- أي البلدان هذه؟ قالها سعد الدين.
- هنغاريا.
- المجر؟!
- نعم تلك الدولة الرائعة.
- من أية ناحية؟
- من جميع النواحي وبالأخص الطبيعية منها حيث تضاريسها ومناخها، اللذان كانا قد أثرا إيجاباً على نفسية وطريقة عيش وتفكير أهلها بشكل عام وواضح.
- ألهذا الحد تلك البلاد جميلة؟
- أكثر مما تتصورون أو على الأقل هكذا كانت.
- لم ذهبت إلى هناك طالما كان مقصدك فرنسا؟
- لم يكن من الممكن السفر إلى فرنسا مباشرة هاتيك الأيام كون العلاقات كانت في غاية التوتر بين دولتنا الفتية وفرنسا لذا كان المسافر إلى فرنسا يضطر لدخول دولة

مجاورة أياً كانت ومن هناك يدخل الأراضي الفرنسية وهذا ما حدث معي.

- هات، حدثنا عن تلك البلاد وأهلها.
- يا سيدي كان والدي قد أمن وحقق كل متطلبات السفر مستعيناً على ذلك ببعض من معارفه، حيث كلف أحدهم وكان حينها يعتزم القيام برحلة عمل إلى بلغاريا وعليه المرور بالمجر لزيارة ولده الدارس هناك.
- كيف كنتم تسافرون وقتها؟ بالبحر أم بالطائرة؟
- عن طريق البحر طبعاً.
- لماذا؟ ألم يكن السفر بالطائرة متوفراً آنذاك؟
- كان متوفراً ولكنه كان مكلفاً جداً لذا كان السفر بالبحر أسهل وأيسر وأكثر تسلية.
- وكم كانت تدوم الرحلة من هنا إلى هناك؟
- كنا نمضي أكثر من يومين إبحاراً ويوم آخر للتوقفات الروتينية وفي موانئ عدة.
- هل كنتم تغادرون المركب عند رسوها في تلك الموانئ؟
- في بعض الأحيان
- إذاً كانت تلك الرحلات ممتعة.
- نعم كانت كذلك وبالأخص لحظات شروق الشمس وغروبها، وتحديداً عندما تكون وسط البحر حيث تحيط بك المياه من كل جانب والظلمة تكتنف المكان إلا من

بعض الشموع الربانية المعلقة في سقف تلك القبة الخرافية وما أن يمر الوقت حتى تبدأ تلك الستارة التي كانت تحجب عين ذاك المارد الوحيدة مجبرة إياه على الرقاد لفترة مفسحة المجال لكل المخلوقات كي تركن لراحة لازمة لهم كي يعيدوا ترتيب حياتهم وشحذ همهم ومعنوياتهم ليباشروا جولة جديدة كانت قد فرضت عليهم في سياق ذاك الوعد الإلهي . الخالد.

وقبل أن ينتبه ذاك الراقد، ولكن ما الفائدة، إذ أنه على الدوام قلق وبالأخص أثناء نومه لذا تراه يتململ بهدوء مزيحاً تلك الستارة رويداً رويداً عن عينه التي كانت قد تراكمت على سطحها جمرات قد أحدثتها تلك السهام التي كانت سرايا وعيه تطلقها إبان تمردها على تلك الغشاوة القاتلة التي كانت قد فرضتها تلك الستارة السميكة.

لذا وتحت ذاك الضغط الهائل لتلك السرايا المتمردة يتحرك محاولاً إزاحة ذاك الحاجب مفسحاً المجال لتلك السهام كي تتابع طريقها بعيداً عن سطح عينه ساحبة معها جذوة تلك الجمرات حيث أجبرت ذاك الستار على الانكفاء وبالسرعة القصوى، ملغية بذلك هذا السكون الهائل ملقية تحية الصباح، والتي يرددها كل على حدى حين تدب فيه معالم الحياة.

- لوحة شاعرية. تلك التي ذكرت سيد شاهر.
- لو أنك قمت برحلة مماثلة لكنت وبموهبتك الصحفية وبمقدرتك على الإنشاء لقمت بإنشاء لوحة متكاملة تفرض على أكثر النقاد حنكة الانحناء إجلالاً واحتراماً.
- معقول جداً، فأنا لم أقم برحلة كهذه لذا يصعب عليّ التعليق.
- أنصحكما بذلك.
- إن شاء الله.
- المهم يا سيد شاهر، هل سافرت برفقة ذاك الرجل؟
- نعم، وكانت نقطة الانطلاق ميناء بيروت.
- لم فعلتم ذلك؟
- كون ميناء بيروت، كان في تلك الأيام هو المرفأ الوحيد على هذا الساحل لأن دولة الانتداب كانت قد اعتمدته كميناء رئيسي.
- غادرنا ميناء بيروت باتجاه قبرص حيث بقينا هناك لبضع ساعات ومن هناك وعبر بحر إيجه قصدنا مباشرة السواحل اليوغسلافية، إذ أمضينا أكثر من يومين آنذاك برحلة تعتبر من رحلات العمر كون المشاهد التي رأيتها والتي لا تزال راسخة في خيالي حتى الآن. دخلنا الأراضي الشاسعة الخاصة بتلك الدولة التي كان قد وحدها ذاك الرجل التاريخي والذي قام ببطولات خارقة

حيث حررها من سيطرة دول المحور مشكلاً منها دولة اتحادية ضمت بين جنباتها شعوباً وأقواماً عدة وصارت لاحقاً ولزمن بسيط دولة متقدمة علمياً وحضارياً. اجتزنا أراضي تلك الدولة مارين بمعظم ولاياتها حيث لاحظنا ذاك الفرق الشاسع بين مكونات شعبها ومن كل النواحي وذلك عبر ذاك القطار حيث تجاوزناها ومباشرة باتجاه المجر قاصدين عاصمتها لأن خط سير القطار يمر بها وكذلك كان يفعل ذلك أثناء عودته باتجاه الأراضي التركية مروراً بأراضي بلغاريا.

وعندما حطت رحالنا أرض محطة القطار الرابطة ضمن أراضي العاصمة القديمة والعريقة والتي تقع على ضفة نهر عظيم كان قد شق طريقه مخترقاً أرض دول عدة ليصب في نهاية المطاف في البحر. استقللنا عربة أجرة من هناك إلى حيث كان مرافقي قد حجز مسبقاً في إحدى أهم وأكبر فنادق تلك العاصمة.

دخلنا بهو ذاك الفندق الفاخر الذي كان قد شيد منذ زمن غير بعيد. اتجهنا مباشرة إلى حيث كان مكتب الاستقبال وكان أول ما صادفته هناك فتاة غاية في الجمال والروعة، وكانت قد لفتت انتباهنا رغم كل حالة الإضطراب التي كنت أعانيها أثناء ولوجي هذا الجو والذي كان جديداً علي بكل محتوياته. قام مرافقي

بتسليمها وثائق السفر الخاصة بنا والتي استلمتها وهي ترحب بصاحبي وتناديه باسمه وبكل بشاشة قرأت اسمي بصوت عالٍ، الأمر الذي كان قد زاد استغرابي الذي تبدد لاحقاً عندما علمت أنه من رواد هذا المكان المعروفين لكثرة زياراته وتردده على ذاك الفندق.

- السيد شاهر.
- نعم.
- أهلاً وسهلاً بك في ربوع بلدنا.
- شكراً.
- تفضلا. قالتها وهي تناولنا وثائق السفر ومن بعدها كلفت أحد الندل بحمل حقائبنا ومرافقتنا إلى حيث تقع حجراتنا. وهنا كانت دهشتي الكبرى إذ دخلنا جناحاً فاخراً حوى غرفتين وصالة كانت قد أسست بكل وسائل الراحة والرفاهية.
- سألته: هل سنقيم في هذا الجناح؟
- نعم.
- أليس ذلك مكلفاً؟
- لا عليك يا رجل، فالإنسان يعيش مرة واحدة.
- ربما

بينما رددت بيني وبين نفسي، دع الأمور تسير كما هي فكل إنسان أدرى بأحواله وأوضاعه.

- قم واغتسل وخذ قسطاً من الراحة.
- الآن؟
- نعم لأننا سنقوم بجولة أعرفك بها على كل معالم هذه المدينة الجميلة.
- معك حق. قلتها وأنا أغادر إلى حيث الحمام وحيث اغتسلت واستلقيت فترة من الزمن، استعدت خلالها شيئاً من نشاطي بعد إرهاق نتج عن سفر أيام عدة.

مساءاً صحوت لأجد رفيق سفري جالساً في صالة الجناح وكان بأبهى حلّة حيث بدا لي وكأن الزمن قد عاد به ولأكثر من عشرين سنة، وكان برفقته شاب يكبرني بعدة سنوات.

جلست بالقرب منه بعد أن حييتهم.

- هذا ولدي طاهر يا سيد شاهر.
- أهلاً وسهلاً، تشرفت بمعرفتك سيد طاهر.
- أهلاً بك.
- لمَ لمْ تجهز نفسك بعد؟
- حاضر، سأقوم بذلك حالاً

وكنت قد نسيت ما كان قد وعدني به السيد أبو طاهر.وبالفعل قمت وجهزت نفسي حيث غادرنا مقرنا هذا حيث استقللنا سيارة أجرة.

ركب طاهر في المقعد الأمامي بينما استقللنا نحن المقعد الخلفي حيث قام بدور الدليل السياحي.

قدنا مباشرة إلى حيث تقع تلك المقاصف والمطاعم التي كانت قد أسست على ضفاف ذاك النهر الرائع. وبالأخص عندما حلّ المساء حيث عكست مياهه الساكنة الأضواء القادمة من كل حدب وصوب.

وبعد أن تنقلنا في عدة أماكن التفت إلى ولده قائلاً:

- إيه يا طاهر، هات أرنا شيئاً جديداً لم نكن قد شاهدناه سابقاً كترحيب بابن صديقي أبي شاهر.
- على الرحب والسعة يا والدي سأقودكم إلى حيث تقع تلك الجزيرة الرائعة.
- أية جزيرة.
- جزيرة "مجت سيكد".
- وأين تقع تلك الجزيرة؟
- وسط النهر.
- قدنا إليها مباشرة كونك شوقتنا لرؤيتها.

عندها أشار للسائق إلى حيث يقصد.

- ما كانت تلك الجزيرة؟ قالها سعد الدين.
- يا سيد سعد. كانت جزيرة شبه صناعية حيث أسست وطورت وسط النهر لتحيطها مياهه من كل جانب حيث

قامت الدولة هناك بإنشاء جسر يربط كلتي ضفتي النهر بتلك الجزيرة.

- هل كان الوصول إليها سهلاً؟
- نعم ولكن سيراً على الأقدام فكلا الجسرين الذين كانا يربطانها بقسمي العاصمة القديم والجديد قليلي العرض حيث سرنا مسافة غير قليلة وكان القصد من وراء كل ذلك أن يمر الزائر بذاك الإحساس الرائع حيث تلفه أنسام ذاك النهر من كل جانب بالإضافة لما كانت تعكسه مياهه من مشاهد خلابة. وقتها تصبح حالة الإنسان في أسمى مراحل الغبطة والنشوة.

دخلنا بوابة. كان في استقبال الزوار عندها فريق من أجمل بنات ذاك البلد وكانت العادة المتبعة وقتذاك أن تقوم كل واحدة منهن بمرافقة زائر حيث تتولى كل ما يتعلق به ويطلبه.

وكان من نصيبي واحدة لم أكن قد رأيت لجمالها مثيلاً من قبل إذ كانت تتمتع بقدٍ ممشوق وطلّةٍ سبحان الخالق.

بادلتها بعض الكلمات بالفرنسية تلك اللغة التي كنت قد تعلمتها أثناء دراستي الابتدائية، وكانت ترد عليَّ بفرنسية مكسرة كونها كانت تجيد الإنكليزية أكثر.

- ما الذي حدث بعد ذلك؟

- قادونا إلى مكان عندما ولجناه ظننا أننا قد دخلنا الجنة من بابها العريض لأن ما شاهدناه من مناظر لم تكن تخطر على بالنا أن نشاهد مثلها إلا في الحكايات الخيالية والتي كانت قد قُصَّت علينا سابقاً.
- قل لي يا سيد شاهر، متى بدأت بإضافة تلك الحلقة؟
- بعد أن استقر بنا المطاف في زاوية قصية من ذاك المكان حيث أحاطت بنا شلالات ماء كانت مياهها تتساقط من أماكن مجهولة حيث تتابع طريقها وعبر مجاريَ حفرت بإتقان بين تلك الصخور إلى قلب النهر. أمضينا فترة رائعة حيث تناولنا ألذ ما تشتهيه النفس من أطعمة بالإضافة لما قمنا به من جولات رقص وغيرها من مسليات كان برنامج ذاك المكان قد أعدها مسبقاً وكانت تلك الفتاة تبتعد قليلاً وما تلبث بعدها أن تعود لتعرض خدماتها وبالأخص عليَّ أنا شخصياً. لذا وبعد محاولات عدة طلبت منها أن ترافقني في جولة ضمن رحاب ذاك المكان وكان قصدي من وراء ذلك أن أفسح المجال كي يختلي الوالد بولده وفي الوقت نفسه أتمكن من مبادلتها بعض الحركات والمواقف حيث رقصنا أثناء مرورنا بحلقات كان شبان من كلا الجنسين قد عقدوها في أماكن عدة من طريق مرورنا هذا. ومن بعدها قادتني إلى مكان أكثر علواً كوننا اضطررنا لتسلق سلّمٍ

درجاته متباعدة أي أنه توجب على الشخص الذي يريد الوصول إلى حيث تقع تلك المقصورات أن يبذل جهداً مضنياً بعض الشيء وكان القصد من وراء كل ذلك أن يتلقى الزائر بعد كل ذلك متعة لا تضاهيها متعة. حيث ما أن يستقر المرء بجلسته ويتنفس الصعداء حتى تبدأ تلك المتغيرات بالظهور أمامك إذ كان طيف الضوء الذي كانت تبثه أجهزة كانت قد زرعت في جدران ذاك المكان حيث كانت تخلق جواً ساحراً يرفعك من حيث تكون إلى رحاب فضاء خيالي يصعب عليك الفكاك والتخلص منه بسهولة.

- كيف خرجت من تلك الدوامة؟
- لم أخرج بمحض إرادتي.
- كيف إذاً؟
- كون الفترة المحدودة لذاك الوضع كانت قد انتهت، لأن لذاك المكان برامجه المتغيرة والمحددة بالزمان والمكان.
- ما الذي فعلته بعد ذلك؟
- نزلنا من هناك عبر سلم متحرك.
- لماذا أخذتك عبر ذاك الطريق الوعر طالما يوجد في المكان سلالم متحركة آلياً؟
- لو لم نسلك ذاك الطريق لما كنا قد وصلنا إلى تلك الدرجة من السمو الروحي.

- أكمل من فضلك، لقد أججت شوقنا لمعرفة البقية.
- بعد أن وصلنا أرض ذاك المكان، تأبطت ذراعي بحركة من يريد أخذ شخص إلى مكان قد قرر الذهاب إليه مسبقاً.
- إلى أين أخذتك؟
- قادتني إلى مكان أقل إضاءة حيث دخلناه وعبر بوابة قليلة الارتفاع لدرجة أننا اضطررنا للسير ونحن نحني ظهورنا مسافة لا بأس بها إلى أن صرنا وسط مكان أشبه ما يكون بالمغاور التاريخية المنتشره بكثرة في أماكن عدة من بلادنا.

دهشت لما رأيته في البداية كونه كان غريباً عليَّ بكل ما كانت تعنيه هذه الكلمة من معنى. لذا بادرت وبكل لطف نحوي متحدثة بفرنسية مكسرة محاولة كسر حاجز دهشتي هذا مفسرة ما يعنيه هذا المكان.

- ما كان ذاك المكان؟
- يا سيد سعد كان عبارة عن فسحة بنيت يدوياً على شكل مغارة خرافية وبعد أن صرنا داخلها ما لبث نظرنا أن تأقلم مع ذاك الضوء الخافت وبان كل شيء بوضوح. إذ كانت تحوي كل ما يخطر على بال الإنسان من أشكال فتشكل بالعادة في أمكنة كهذه وعبر الزمن كالصواعد والنوازل وكذلك بعض الكتل العشوائية والتي كان يمر

من بينها ذاك الماء الجاري والذي يصدر أثناء مروره صوتاً عذباً يداعب حنايا قلب كلِ إنسان.

وقفنا وسط هذا المكان كطفلين دخلا محل ألعاب حيث تسمرنا مجيلين نظرنا بانبهار في كل شيء. كوننا نريد كل شيء وفي الوقت نفسه لا نستطيع الاختيار.

وقفت بجانبي فترة تركتني خلالها أشيع كل رغباتي إلى أن عدت بنظري إلى نقطة البداية. عندها اقتربت مني أكثر وأمسكت بيدي بشيء من الرقة وقادتني إلى مكان يصلح لجلسة شاعرية، قدم لنا مجموعة من النادلين الذين برزوا من أحد جدران ذاك المكان بعض المشروبات وبكؤوس صغيرة جداً تشبه إلى حد كبير ما يستخدمه الخياطون بأصابعهم.

تناولنا أثناء ذلك أكثر من نوع كان خدم عدة وبهيئات مختلفة يقدمونها وكل قصدهم دفع الزائر كي يختار نوعاً محدداً وذلك من باب الدعاية لتلك المشروبات وبالتالي لترويجها حيث يضطر الزائر لطلب ما كان قد أحبه من أصناف.

- فكرة رائعة، كيف اهتديتم إليها؟ سألتها.
- بالتجربة والتخطيط حققنا ذلك.
- وبعد ما الذي حدث؟

- عندما طلبت ما كان قد لذ لي من مشروب حيث لعب لعبته في رأسي كما كان لسحر ذاك المكان دوره الكبير في ذلك إذ أحسست بنفسي وكأني أجلس على بساط يقوده سندباد ماهر أثناء جوله في رحاب فضاء ساحر. عندها اقتربت مني أكثر لدرجة مكنتها من الاسترخاء على كتفي هكذا، لذا قمت بضمها وشدها نحوي لدرجة أحسست بنبض وريدها حيث لامس عنقها أعلى كتفي. الأمر الذي دفعني لإدارتها كي تستلقي على ركبتيَّ عندها عانقتها عناق المحبين إلى أن صار ما لم يكن بالحسبان، حيث حط بساط الريح ذاك مفسحاً المجال لنا كي نعود إلى أرض الواقع.
- رائع، وكم يوماً أمضيت في ذاك البلد؟
- خمسة أيام.
- وهل دامت علاقتك بتلك الفتاة؟
- نعم حيث قامت بزيارتي في الفندق.
- هل أعدت الكرة هناك؟
- نعم ولأكثر من مرة.
- ما الذي حدث بعد كل ذلك؟
- ذات يوم حضرت على غير عادتها، استغربت الأمر لذا سألتها عن ذلك.
- جئت لأحدثك بأمر، أرجو أن توافقني عليه.

- ما هو؟ سألتها.
- أنت غادرت بلدك قاصداً فرنسا للدراسة.
- نعم.
- لم لا تدرس هنا؟ فالجامعات في هذا البلد تعادل بل تضاهي جامعات فرنسا ومن كل النواحي.
- ولم أفعل ذلك؟
- أريدك أن تبقى بقربي.
- لا أستطيع.
- لماذا؟
- لأن والدي أراد ذلك وقد قام بتأمين القبول وكذلك السكن.
- أريدك أن تبقى هنا معي وسأؤمن لك كل ما ذكرت وبسهولة.
- لا أستطيع ذلك وإن رغبت أرسل لك من هناك بطاقة كي تلحقي بي ومن بعدها نتم كل الإجراءات.
- أوتظن أن الأمر بهذه السهولة؟
- لم لا يكون كذلك؟
- ألا تعلم ما الذي أحدثته التقسيمات السياسية في هذه القارة؟
- ما دخل ذلك فيما تحدثت به؟
- له كل العلاقة.

- كيف؟
- كوني من رعايا دولة شرقية لا يسمح لي بدخول أراضي دولة غربية دون توفر شروط عدة.
- نستطيع توفيرها.
- صعب جداً.
- سأبذل جهدي.
- أنت تحلم، كون ما وُضع من شروط يصعب على أمثالي تأمينها.
- سأبذل كل جهدي وسترين.
- أنصحك بأن تفكر جيداً بكل ما طرحته عليك.
- حسناً. اتركي لي فترة أفكر بها وربما أسافر إلى فرنسا ومن هناك أقرر. وبذلك أكون قد كونت فكرة واضحة عن تلك البلاد إذ يصبح اتخاذ القرار أكثر يسراً.
- حسناً، أنا بانتظار ردك، وغادرت على ذاك الأمل.
- هل أرسلت بطلبها؟
- حاولت كثيراً إلا أن كل ذاك باء بالفشل.
- ألم تلتقِ بها بعد ذلك؟
- لا... نهائياً كوني لم أعد لزيارة ذاك البلد إطلاقاً.
- ألم تراسلك؟
- نعم وكنا قد تبادلنا الرسائل إلى أن يئسنا من ذاك الوضع، عندها انقطعت تلك المراسلات.

- هذا ما كنت ترغب فيه كونك انتقلت للعيش هناك في بلاد الحرية.
- ليس تماماً ولكن الإنسان في كثير من الأحيان يصبح أسير ظروفه.
- لاتقل هذا. أنت رغبت بتغيير فتاتك.
- لا أنكر ولكنها بقيت فترة لا بأس بها تداعب خيالي كون ما قدمته لي وأحاطتني به من حنان وعطف أثر في نفسي ولفترة طويلة. وها أنتم قد أعدتم شريط ذكرياتي.
- إذاً هذه كانت الحلقة الثالثة من سلسلة مراحل عمرك قد انعقدت.
- نعم. كاسكم... ورفعنا كؤوسنا عالياً.

غادرنا الأراضي الهنغارية وبواسطة القطار أيضاً حيث دخلنا أراضي يوغوسلافيا وتحديداً أراضي كرواتيا، حيث دامت رحلتنا هذه لأكثر من خمسة أيام مررنا خلالها بمواقف أكثر معاناة كانت عند نقطة الحدود المجرية اليوغسلافية إذ كان التدقيق على أشده وخصوصاً في تلك المرحلة حيث حطت الحرب أوزارها مما دفع بالعديد للنزوح باتجاه أراضي الدول الغربية فراراً من بلدانهم التي صارت تحت سلطة نظم اشتراكية حديثة النشوء لذا كان التدقيق شديداً وصارماً كون جل الذين يقومون بعمليات الفرار تلك هم من خيرة

العقول والخبرات ومن كل الاختصاصات طمعاً بمكاسب مادية كون ما كان يقدم لهم من قبل تلك الدول إغراءات كبيرة وكثيرة جداً.

وهناك وضمن الأراضي الكرواتية عبر القطار بنا ضمن أرضٍ غاية في الروعة والجمال، وما أعاق تقدمنا آنذاك أن إدارة تلك الشركة فرضت علينا البقاء ضمن عربات القطار طيلة تلك الرحلة إلا عندما كان يتوقف في المحطات حيث كنا نغادر على أن نبقى ضمن حرم المحطة. وكل ذلك منعاً للتسلل.

وبالرغم من كل ذلك كنا في غاية الراحة كون كل الخدمات التي كانت تقدم لنا هناك كانت شبه مجانية، وفهمكم كفاية.

- لماذا؟
- لأن الأوضاع كانت هناك في غاية القلق إذ لا شيء واضح ومستقر حيث كانت القوانين والتشريعات تسن وفي معظم الأحيان ارتجالياً وحسب مقتضيات الأمور والظروف. لذا قام الكثيرون باستغلال ذلك حيث حققوا أرباحاً هائلة ومكاسب عظيمة.
- كيف سمح لهم باستخدامها في بلد خضع للنظام الاشتراكي؟
- لم يسمح لهم لأن معظمهم كان قد هرّب أمواله إلى الدول المجاورة حيث أقاموا مشاريعهم الخاصة هناك وأصبحوا من كبار الرأسماليين إلى أن انهار ذاك النظام منذ فترة.

- معك حق لأن لكل مرحلة من مراحل تطور الأمم والشعوب مقتنصو فرص، يكونون ثرواتهم مستغلين حالة الضياع والقلق التي تنتاب الفئات الحاكمة وكل ذلك مرده لأن من يقوم بتلك الحركات وغيرها يقوم بها هكذا وعلى السجية دون تخطيط مسبق ، تاركين الأمور تسير على هواها بحيث توضع لكل مرحلة قانونها ونظامها.
- هذا ما حدث في بلادنا قبل فترة من الزمن.
- ليس في بلادنا فقط بل في كل بلدان العالم والتي مرت وتمر بنفس الظروف.
- هل كانت تجارة الرقيق الأبيض سائدة آنذاك؟
- نعم وبشكل كثيف إذ استغل أولئك تلك الظروف وقاموا بتهريب جيوش من الفتيات وبالأخص صغار العمر منهم إلى دول عدة، بقصد التبني وفي كثير من الأحيان لأعمال منافية للأخلاق.
- هل كانت السلطات هناك تحارب ذلك؟
- ظاهرياً نعم ولكن بالسر كانت تفسح المجال كونها كانت تحسب ذلك يحقق أكثر من هدف لها وأولى تلك الأهداف تخفيف نسبة البطالة وما ينتج عنها من مظاهر سلبية وثانيها جلب عملات صعبة تعينها على الظروف المستجدة آنذاك.
- إذاً كانت تلك التجارة تحقق بعض الفائدة لتلك الدول.

- نعم ومن يقول غير ذلك فهو مخطئ.
- وهل كان الفقر متفشياً آنذاك؟
- لا، أو على الأقل هذا ما لمسناه إذ كان كل شيء رخيصاً جداً.
- لم تحسوا بذلك كونكم كنتم تعاملون بالعملات الأجنبية وبالأخص الدولار حيث الفرق شاسع بين قيمة الصرف لتلك العملة وعملات هذه الدول.
- معقول جداً ما تفضلت به.
- هذه هي الحقيقة، القديمة الجديدة لأن عملات البلدان الفقيرة تقل قيمتها الشرائية مقارنة بالقيمة الشرائية لتلك العملات المدعومة من اقتصاد قوي ومتطور والتي تبقى دائماً محافظة على قيمتها.
- حتى في زمننا هذا لا تزال تلك الصيغ سائدة.
- في زمننا وكل زمان، قوة العملة الشرائية تفرض نفسها على اقتصاد العالم.
- معك حق، فكم من دولة تعرضت للانهيار بسبب ذلك ولم تستطع النهوض إلا بعد أن قامت بتغيير قوانينها وبعض من أنظمتها لتلافي ذلك.
- ألم تسمعا بالذي حدث أثناء ذلك لتلك الدولة التي حوّلت نظامها وشكل حكمها من نظام حر إلى النظام الاشتراكي.

- ما الذي حدث هناك؟
- قام سفير دولة كبيرة لدى تلك الدولة بجمع كل أصحاب الفعاليات الاقتصادية من تابعي بلاده والمقيمين هناك والذين كانوا قد استشعروا الخطر القادم على أموالهم وملكياتهم حيث طلب منهم تحويل كل تلك الممتلكات وغيرها من أموال إلى عملة بلاده. حيث قام بتسجيل أرقامها ومن ثم قام بحرقها على أن يتم تسليمهم بدلاً عنها هناك في بلدهم الأم.
- لم فعل ذلك؟
- لأنّ حكومة البلد آنذاك قد سنت قوانين تمنع إخراج تلك العملات من البلد نهائياً.
- ما التأثير الذي تركته تلك الحركة على اقتصاد ذاك البلد؟
- لقد انهار اقتصاده تماماً نتيجة لتلك الحركة حيث خسر مبالغ هائلةٍ من عملة بلاده والتي كانت فيما مضى أساس وركيزة الاقتصاد هناك.
- يا لهم من أذكياء!
- هم كذلك، لكن ساسة ذاك البلد مثلهم مثل كل من تولى السلطة في بلدان حدثت فيها تغييرات جذرية كانوا من الغباء بمكان إذ أنهم لم ينتبهوا لكل ما حدث مما أدى

لذاك الانهيار الذي تم لاقتصاد بلدانهم وما جر وراءه من ويلات لشعوبهم.

- نعم فالأمثلة كثيرة جداً.
- نعم كثيرة جداً، فتلك الأنظمة تقوم بتغيير دستورها بشكل عادي وببساطة، فهذا قمة الخطأ فالدستور يجب أن يكون كالكتب المقدسة له حصانة كبيرة بحيث تضطر حكومة أي بلد للقيام باستفتاء شعبي واسع من أجل تغيير أو تعديل مادة أو جزء صغير من مادة من مواد دستورها، ويجب أن يحوز على موافقة الغالبية العظمى من أصوات المقترعين وكذلك يكون ذاك التغيير مؤقتاً ولفترة انتقالية ليتم اختبار ذلك على أرض الواقع وإلا فسيلغى ذاك التعديل وتعود الأمور كما كانت وكأن شيئاً لم يكن.
- نعم كل ما قلته صحيح كون ذلك هو ما تطبقه تلك البلدان المتطورة والمتقدمة وبالتالي الحضارية.
- المهم كيف كانت رحلتكم من سواحل يوغوسلافية إلى السواحل الفرنسية.
- آه، صحيح لقد ابتعدنا عن محور موضوعنا كثيراً.
- تفضل.. قالها سعد وهو يقدم شوكة حمّلها قطعة من لحم السمك كان قد بللها بصحن حوى مرقة الثوم والليمون.

- شكراً سيد سعد. لقد أتت في وقتها.
- نعم. إن صحبتكم على مائدة الطعام مفيدة جداً كونكم تمضون جل وقتكم بالحوارات والمناقشات بينما أنا أقوم بواجبي على أكمل وجه فبذلك أحقق كلتا الفائدتين، أستمع لتلك الدرر وأملأ معدتي. لذا تابعوا حديثكم، باركككم الله.
- أسمعت يا سيد شاهر؟ لقد كان سعيداً بحديثنا هذا.
- سمعت، وهذا يثبت ما كنا قد قلناه سابقاً، إذ أنه من الفئة الثالثة.
- نعم معك حق، فهو بذلك يحقق الفائدة من كل مرحلة دون أن يتعب عقله وذهنه.
- أنا كذلك يا ابن العم!؟
- أنت اعترفت بذلك وبلسانك.
- لا أستطيع نكران ذلك، فقد كنت أحقق كلتا الفائدتين.
- مبروك عليك ذلك، أقولها من كل قلبي.
- شكراً سيد شاهر.
- العفو، كأسكم. رفعنا كؤوسنا معاً، وعندها استوى بجلسته حيث مد شوكته ليلتقط بضع قطع من صحن السَّلَطَة القابع أمامه.
- قل لي سيد شاهر ما الذي لفت انتباهك أكثر من غيره خلال تلك الرحلة.

- يا سيد جاسر، عندما غادرنا ميناء "دوبروفنيك" في كرواتيا وعبر بحر الأدرياتيكي الزاخر بأهم الحيوانات الضخمة والتي يأتي على رأس قائمتها تلك الدلافين اللطيفة والتي رافقت مركبنا حيث كنا نلقي لها بأشياء من على سطح الباخرة.

بالإضافة إلى كافة أنواع الطيور البحرية كالنوارس والبجع وغيرها من أصناف لم أرها من قبل.

- كيف كانت التيارات البحرية؟ هل كانت قلقة ومتحركة؟ هل حدث ما هو مريب وخطر؟
- لا كون ذاك البحر أقرب ما يكون لخليج منه إلى بحر لذا كان الإبحار فيه ممتعاً.
- أين توقفت باخرتكم في أول محطة؟
- في جزيرة صقلية.
- هل غادرتم الباخرة آنذاك؟
- نعم كون تلك الجزيرة كانت تتمتع بشيء من الاستقلالية لذا كانت الإجراءات سهلة.
- أصحيح ما يذكر عن أهل تلك الجزيرة؟
- من أي ناحية؟
- أنهم وبأغلبيتهم منضوون تحت ألوية المافيات.

- لا، ليس تماماً ولكن ولكونها جزيرة شبه مستقلة استغل ذلك رجال تلك العصابات حيث أسسوا وأقاموا قواعدهم هناك.
- وشعبها، كيف كان؟
- شعب طيب جداً وكريم جداً لذا وكما أسلفت تم استغلال ذلك بحنكة وخبث.
- هل دامت إقامتكم طويلاً هناك؟
- بضعة أيام.
- وهل اختلف الإبحار في البحر المتوسط عن بحر الإدرياتيكي؟
- طبعاً، كون مساحته قد زادت وبالتالي إمكانية تعرضه لتلك التيارات أصبحت أكبر.
- هل تعرضت خلال حياتك لعاصفة بحرية؟
- مرة واحدة ومرت بسلام بعد أن حاق الخطر بنا تماماً.
- ألم تزر تلك الجزيرة بعد تلك الزيارة؟
- لا أبداً لأن الفترة التي أمضيتها هناك لم تكن طويلة.
- لمَ؟ ألم تتابع دراستك هناك؟
- نعم كوني حصلت على شهادتي بفترة قياسية.
- كم سنة دامت تلك الفترة؟
- أربع سنوات.
- ممتاز. بالتأكيد قضيتها كما يحلو لك.

- بالضبط .كما قلت تماماً .لقد كانت مرحلةً رائعةً من مراحل عمري، والتي أنتجت حلقتين من تلك السلسلة الخالدة.
- حلقتين، حلقتين!
- نعم، حلقتين.
- يا رجل .لقد أثرت فضولنا . هات أتحفنا، ولكن قبل ذلك خذ من يديه هذه.

ناولته شوكة ملأتها بقطع اللحم ثم تبعتها بأخرى مليئة بقطع الخضار، ومن ثم ختم كل ذلك برشفة من كأس كان قد اجترعها تلبية لرغبتي.

- المهم يا سادتي الأجلاء، وبعد مغادرتنا جزيرة صقلية أبحرنا باتجاه جزيرة سردينيا، دام ذاك الإبحار يوماً ونصف يوم ، وكانت تلك الجزيرة هادئة نسبياً مقارنة بجزيرة صقلية، حيث كان شعبها عملياً إذ كل شخص كان منهمكاً بعمله دون كلام حتى ينهيه تماماً.

أمضينا هناك بضع ساعات غادرنا بعدها باتجاه جزيرة كورسيكا تلك الجزيرة الجميلة الرائعة.

وكما حدث في جزيرة سردينيا صار معنا حيث غادرنا باتجاه السواحل الفرنسية، حيث أمضينا يوماً وبعض يوم وسط بحر هائج قياساً لما كان قد مر معنا سابقاً حيث

اضطر الربابنة لأن يناوروا تلافياً للالتحام بذاك الموج العالي.

وصلنا أخيراً إلى ميناء مرسيليا الشهير، وهناك أوقفتنا السلطات الفرنسية لأكثر من عشر ساعات لأن خط سيرنا كان قد عبر بلداناً عدة لم تكن كلها على علاقة طيبة معها. كما أنهم قاموا بمنع العديد من المسافرين من دخول البلد.

غادرنا المركب ضحى ذاك اليوم الذي اعتبرته لاحقاً وحتى الآن المحطة الأكثر تأثيراً في مسيرة حياتي كلها إذ أنها كانت نقطة البداية التي منها انطلقت في بحر هذه الحياة.

استقللنا سيارة أجرة من أرض ذاك الميناء وكانت وجهتنا قلب تلك المدنية حيث يقبع ذاك الفندق الفاخر، والذي ما أن دخلناه حتى تقدم منّا أحد المستخدمين مرحباً بلغة كلها رقة ولطافة موجهاً كلامه للسيد "أبو طاهر"، فهو كما علمت من رواد ذاك الفندق الدائمين كالعادة.

قادنا ذاك المستخدم وهو يحمل حقائبنا إلى بهو فخم حيث قامت فتاة تتمتع بجاذبية فائقة بتحية السيد "أبو طاهر" وبكل بشاشة استلمت وثائق سفرنا، حيث نقلت نظرها بيني وبين جواز سفري عدة مرات، ومن ثم قالت:

- "بونجور مسيو شاهر"

- "بونجور مدموازيل"
- "كومانتالي فو؟"
- "سافا بيان"

اتجهت نحو أبي طاهر قائلةً – وبما معناه – أنني أجيد الفرنسية، وافقها على ذلك شارحاً ما كنت قد تلقيته من علوم في بيروت.

وبعد ذلك أشارت إلى نادلٍ كي يرافقنا حتى جناحنا.

- وهل اختصصتم بجناح هناك أيضاً؟
- نعم وكان جناحاً فاخراً.
- ألهذا الحد كان السيد أبو طاهر غنياً؟
- نعم هذا ما لمسته خلال تلك الفترة.
- ما الذي حدث بعد ذلك؟
- طلب مني السيد أبو طاهر أن أتحرر جزئياً من تلك القيود النفسية التي كانت قد واكبتني في الفترة الأخيرة، لأن ما لمسته في هذا الفندق أجج في نفسي تساؤلات عدة أهمها: من يكون السيد أبو طاهر في نهاية الأمر؟ إذ أنني لم أكن أعرف عنه شيئاً غير أنه من معارف والدي فقط إلا أنني أجلت الخوض في هذا المجال لفترة لاحقة. لذا انزويت في غرفتي حيث استحممت واستسلمت لقيلولة دامت حتى العصر، وعندما صحوت وأثناء مروري بصالة الجناح وجدته جالساً وبكامل أناقته

وكان برفقته فتاة فائقة الجمال. استغربت وجودها، إذ أنه لاحظ ذلك لذا بادرني قائلا:

- صح النوم يا بني.
- صح بالك يا عم.
- هل نمت جيداً؟
- نعم.
- لماذا لم تجهز نفسك؟
- لما أقوم بذلك؟
- سنقوم بجولة وستسر فيها كون الآنسة إيزابيل سترافقنا كمرشدة سياحية.
- أشرت له بهزة من رأسي من تكون إيزابيل تلك؟
- الآنسة إيزابيل موظفة الاستقبال في الفندق.
- آه صحيح، لم أتعرف عليها مطلقاً واتجهت نحوها معتذراً.
- هزت رأسها علامة الرضا.

غادرت بعدها لأجهز نفسي حيث غادرنا مستقلين سيارة أجرة فاخرة من ذوات الأربع أبواب والتي تفتح بشكل متعاكس كأبواب الخزانة.

كانت تلك السيارة مريحة جداً كونها واسعة من الداخل بالإضافة لاحتوائها كلَّ وسائل الراحة.

كلمت السائق بضع كلمات فهمت منها أنها كانت تريد التوجه إلى ذاك الحي الشهير والذي كان وحسب ما شاهدت يعج بالمقاصف والمطاعم الفاخرة.

دارت السيارة بعض الشيء بين تلك المتنزهات والمقاهي إلى أن وقفت أمام بوابة كبيرة أمامها فسحة واسعة جداً مخصصة لركن السيارات نزلنا من السيارة، ودخلنا ذاك المكان. وعندها كانت دهشتي التي لا توصف فقد شاهدت ما يشبه المدينة السياحية بكل ما تعنيه هذه الكلمة من معنى ولكن بشكل مصغر، حيث المسابح والصالات والمسارح المكشوفة وغيرها من وسائل الترفيه والتسلية.

قادتنا إلى حيث تقع تلك الواحة والتي تشبه إلى حد كبير تلك الواحات الخيالية القابعة في العادة وسط الصحاري. دخلنا بوابة صغيرة كانت قد قصت من جسم حائط سحري كالذي تسور به الحدائق. قصدنا زاوية قصية من ذاك المكان وكان عبارة عن طاولة وسط ماءٍ جارٍ ويتم الوصول إليها عبر جسر خشبي حيث جلسنا هناك وكان يسمح للزوار بأن يغمسوا أقدامهم بالماء إن أرادوا ولكن بعد خلع أحذيتهم وجواربهم.

تناولنا عشاءً لذيذاً مما تجود به المائدة الفرنسية الشهيرة والعريقة وعلى رأسها ذاك الشراب الرائع.

- النبيذ الأبيض، أليس كذلك؟!
- نعم يا سيد سعد برافو عليك.
- أصحيح أن مذاقه ألذ من النبيذ المصنع هنا؟
- نعم كونه يمر بمراحل تعتيق طويلة لاتقل عن عشر سنوات قبل تقديمه.
- آه لهذا السبب هو لذيذ.
- نعم.
- وبعد ذاك العشاء ما الذي حدث؟
- قمنا بجولة ليلية ساحرة أبدعت خلالها إيزابيل صنوفاً من الإغراء والغنج لم أكن قد لمستها من فتاة قبلها.
- ما الذي كانت تقوم به؟
- لا أستطيع شرح ذلك، كونه يمثل تمثيلاً.
- المهم، وصلنا الفندق أخيراً وكنا في غاية النشوة والانشراح.
- هل رافقتكم إلى حيث تمكثون؟
- نعم. وهذا ما أثار دهشتي، لكني ولِما كنت به من حالة انشراح ونشوة تركت كل شيء يسير على سجيته دون أية عقبات. جلسنا قليلاً في صالة الجناح حيث قامت بتقديم عروضها متابعة لما كان يحصل قبل قليل.

وبعدها وبإشارة من أبي طاهر لم أكن قد انتبهت إليها، وضعت كأسها على الطاولة وكذلك قامت بوضع كأسي

حيث قادتني إلى مكان غرفتي، تلفت نحو أبي طاهر أثناء ذلك محرجاً لأجده يغمز لي بعينه كعلامة رضا، أي اذهب.

استسلمت لها إذ سلمتها قيادة نفسي لتدخل الغرفة وأنا من ورائها حيث كانت تشدني بيدها حتى صرنا قرب السرير عندها تركتني واستدارت لتقف خلفي حيث بدأت بخلع السترة عن كتفي ومن ثم قامت بفك أزار قميصي وبحركات إن دلت على شيء فإنها تدل على حنكة متمكنة وخبرة عالية. فعلت كل ما تلا ذلك بتبعية المستسلم. ولم استفق إلا صباحاً لأجد نفسي وحيداً في سرير واسع كونها غادرت في ساعة متأخرة من تلك الليلة.

خرجت من الغرفة بعد أن استحممت ولففت نفسي برداء الحمام لأجد "أبو طاهر" جالساً يحتسي قهوته ويدخن سيجاراً كوبياً. لاقاني مبتسماً كعادته وبادرني قائلاً:

- كيف حالك يا بطل؟

استغربت كلامه في البداية إلا أنه تابع وبنفس الطريقة محاولاً اكتساح ما كان قد وقف عثرة في طريق إزالة التكليف فيما بيننا.

عندها انفرجت أساريري كون حاجز الخجل والحياء الذي يصادف وينتاب شاباً في مثل سني في حضرة

رجل كامل في مثل عمره، إذ جاريته فيما كان قد بدأه قائلاً:

- متى خلدت إلى النوم أبا طاهر؟
- حوالي الثالثة صباحاً.
- منذ متى وأنت تهوى ذلك؟
- منذ زمن طويل كوني أشعر بمتعة هائلة عندما أعود من سهرة كالتي أمضيناها البارحة. إذ أخلو لنفسي مفكراً مستعيداً كل ما كان قد فات وبالأخص عندما يجري أمامي ما جرى ليلة أمس.
- ما الذي جرى!؟ قلتها بانفعال، خشية أن يكون قد رآني وإياها فعلاً.
- لا تقلق. ما قصدته، الذي حصل معك أنت إذ أجد لذة كبيرة عندما أشاهد ذلك حيث استعيد مغامراتي السابقة.
- لمَ دائما تذكر الماضي، وتكرر مغامراتك السابقة دائماً؟ لمَ كلمة "سابقة" هذه؟
- لأن ما فات لا يمكن إعادته فالزمن لا يعود إلى الوراء.
- لم؟ فأنت لا تزال شاباً بل أنت أكثر حيوية مني.
- هذا ما يظهر لك. لكن الواقع غير ذلك.
- كيف؟ وما أراه عكس ذلك؟

- لا يا ولدي، ما تراه عبارة عن هيكل كالتماثيل المركونة على واجهات المحلات. إذ تبدو رائعة الجمال والتناسق، أما في الواقع فهي عبارة عن قطعة جامدة لا حياة فيها.
- وكّل الله يا رجل، فأنت تضج حيوية ونشاطاً، على الأقل ما رأيته منك خلال رحلتنا هذه.
- ولكن كله عبارة عن حركات تمثيلية أقوم بها لأوهم من أقابلهم بعكس ما أنا عليه.
- ما الذي أنت عليه؟ فعلاً لقد أثرت فضولي.
- يا ولدي هذا أمر يطول شرحه . دعك مني الآن . قل لي كيف أمضيت ليلتك؟
- كانت ليلة من ليالي العمر . ولكن لا تغير الحديث . من فضلك أجبني على سؤالي إن لم يكن ذلك يسبب لك الإزعاج.
- لا حرج فيما تطلب ولكن الأمر قد يسبب لك صدمة معينة.
- لي أنا.... ما علاقتي بالأمر؟
- لا علاقة لك ولكن العلاقة التي نشأت بيننا خلال الأيام الماضية قد تتأثر بما سأقوله.
- قل كل ما عندك وأعدك بأني سأتفهم كل شيء، ألا تثق بي؟
- أثق بك كل الثقة.

- إذاً تفضل وقل لي كل ما تخبئه وتحاول إخفاءه.
- اسمع إن كنت مصراً.
- نعم كل الإصرار.
- يا ولدي، منذ فترة طويلة مضت، وبينما كنت أقوم برحلة عمل في ربوع دولة أفريقية حيث كنت أنهي صفقة قمت من خلالها بتوريد مواد أولية لمصانع النسيج هناك، قررت الشركة وتكريماً لي تنظيم رحلة إطلاعية إلى مناطق طبيعية هناك.

وبالفعل تمت كل التحضيرات وغادرنا قاصدين أدغالاً تحيط بتلك العاصمة، وما إن صارت قافلتنا داخل تلك الغابات حتى تم ركن السيارات داخل منطقة محمية يقوم على الأمن فيها حراس وطنيون.

خصص لكل مجموعة منا عربة تجرها الخيول لتتسم تلك الرحلة بشيء من الهالة والخيالية إذ يظن الزائر نفسه ملكاً أو أميراً من أمراء العصور الوسطى، وهو يقوم برحلة صيد محاطاً بحراسه وجنده.

وبالفعل كانت رحلة رائعة، شاهدنا خلالها كل ما كان خفيّاً عنا وما كنا نرغب في مشاهدته أثناء عودتنا طلبت من رئيس الوفد أن يمنحني حصاناً لأمتطيه بمفردي، رفض في البداية خشية الخطر إلا أنه ولإصراري الشديد رضخ صاغراً خوفاً من المحاسبة اللاحقة من رؤسائه.

لذا وضع شروطاً وحملني ببعض التحذيرات التي يجب مراعاتها كون الخطر قد يحدق بي في أية لحظة في مثل هذا المكان.

وما إن استلمت رسنه من السائس حتى انطلق شارداً باتجاه الغابة لأنه استغرب فارسه.

فشلت كل محاولاتي ورغم خبرتي بالفروسية تابع عدوه وبنفس الوتيرة.

أجفلته أفعى كبيرة وطويلة كانت تقطع الممر الترابي الذي كنا نسير عليه، حيث وقف وهو يصهل وما لبث أن وقف على قائمتيه الخلفيتين ليلقيني أرضاً ومن ثم يقوم برفسي أثناء هربه وكانت رفسته تلك وسط جسدي حيث حطم حوضي وبعض فقرات من عمودي الفقري وكان نتيجة ذلك أني فقدت كل مقدرة منذ ذاك الحين.

لذا تراني أحس بما عبرت عنه قبل قليل.

- أنا أسف جداً، لم أكن أظن أن الأمر بهذه المأساوية.
- لا عليك ياولدي فمتع الدنيا كثيرة إذ يستطيع المرء التأقلم والتكيف مع أي وضع يفرض عليه لذا تراني برمجت حياتي على هذا الأساس بحيث أسعى لمتع عدة. ومنها ما ذكرت.
- أهنئك على قوة إرادتك وحسن تفكيرك هذا.

- شكراً يا ولدي، هذا درس أريدك أن تتعلمه وتفهمه وتنفذه دائماً إذ أن الإنسان العاقل هو من يستطيع تلقي الصدمات بقوة إرادة وحسن تدبير بحيث يقف مجدداً على قدميه ويتابع طريقه وكأن شيئاً لم يكن مهما كانت خسارته كبيرة لأن الحياة بحد ذاتها جديرة بأن تعاش.
- يا عم أنت تدهشني تماماً كونك تفاجئني كل لحظة بصفة لم أكن أعرفها عنك.
- الزمن أكبر معلم يا ولدي.
- معك حق، فالذي تعلمنا إياه التجربة أمتع وأكثر فائدة مما نتعلمه نظرياً.
- لكل أمر في هذه الحياة جانبان، نظري وعملي. وأفضل الأمور هو ما نطبقه عملياً بعد أن نكون قد تعلمناه نظرياً. كون المردود والناتج بالدرجة الأولى مضموناً وصالحاً وبالدرجة الثانية يرضي النفس لأن ما كنا قد قمنا به نابع من قناعاتنا وإرادتنا لذا تجدنا حتى في لحظات الفشل نكون مرتاحين كوننا نعتبره نجاحاً ولكنه مؤجل.
- هذه حكمة، إضافية أتعلمها منك,.
- أحسنت هذا ما أريده منك، أن تتعلم كل الوقت وأن لا تدع لحظة تمر بك دون أن تستخلص منها شيئاً حتى وإن كان بسيطاً.

- أعدك بذلك.
- ألهذا أنت تملك كل هذه الخبرات؟! سألته.
- نعم تستطيع قول ذلك، بالإضافة لما كنت قد تعلمته أكاديمياً.
- كيف؟
- ما كنت قد تعلمته دراسياً.
- معك كل الحق.

عندها قام سعد الدين بحركة مميزة حيث قام من مكانه وهو يصفق بيديه مصدراً أصواتاً رتيبة مع بعض الصفير المعبر ثم ما لبث أن فتح ذراعيه إلى أقصى اتساع لهما، حيث بدأ يدور حول نفسه بهدوء ما لبثت أن أخذت وتيرته بالتسارع إلى أن اتخذت سمة الرقص الذي تخصص به ما يسمون بالدراويش.

لفت انتباهنا هذا جداً لدرجة أننا قمنا من أمكنتنا مشاركيه رقصته تلك إلى أن شعر السيد شاهر بالتعب حيث تهادى على مقعده بأنفاس متسارعة، لم نتأخر عنه كثيراً كون ذاك الشراب وكذلك تقدُّمُنا بالسن قد أتيا فعلهما فينا حيث آلت حالتنا على ما نحن عليه.

تهادينا في أمكنتنا هكذا لاهثين مطلقين لأنفسنا العنان حيث علت قهقهاتنا إلى أن سمعنا قرع جرس الباب.

صمتتاً معاً، وبالأخص عندما رأينا سعد الدين ينظر في ساعته وهو ينتصب قاصداً باب الشقة، حيث غاب لفترة وعاد من بعدها وهو يحمل بيده لفافة كانت قد حزمت بشريط لماع وبشكل أنيق، سألته:

- ما هذا؟
- مفاجأة أعددتها لكم.
- بالله عليك قل لي: ما الذي تحمله.؟
- انتظر يا ملحاح وستعرف كل شيء في وقته المناسب.
- أخشى ما أخشاه أن تكون قد طلبت طعاماً إضافياً. قالها شاهر.
- لا ليس طعاماً بل شيء آخر ستحبونه بالتأكيد.
- لا حول ولاقوة إلا بالله.. سننتظر وسنرى.
- حسناً تفعلون.

وغادر باتجاه المطبخ. تلفتنا نحو بعضنا إذ تلاقت المقل وكأن لسان حالنا يقول: أفهمت شيئاً؟. ثم استدرنا لننتظر قدومه من حيث ذهب.

عاد وكان يحمل بيده زجاجتي بيرة قام بوضعهما على الطاولة ومن ثم قام بنزع غطائيهما بكل هدوء داعياً إيانا لإملاء كؤوسنا فوراً، معللاً ذلك بأن البيرة لا تصل إلى ذروة لذتها إلا عندما تكون باردة جداً.

وافقناه على ذلك إذ نفذنا ما كان قد طلبه ومن ثم رفعنا كؤوسنا ورشفنا منها رشفات عدة حيث استهلكنا ما كان قد ظهر من رغوة لذيذة في البداية.

.....

- يا سادتي:

قالها السيد شاهر قاطعاً حالة الهمود التي يعيشها الجميع في تلك اللحظة.

ما إن استقرت حالتي وحياتي هناك في باريس وبعد أن باشرت دراستي وفي جامعة السوربون تغيرت كل نظم حياتي بالكامل إذ أصبح كل شيء مرتباً ومنظماً وضمن إطار محدد بالوقت والمهمة لذا عانيت في البداية كوني لم أعتد الالتزام والدقة في كل شيء ولكن ما إن أخضعت نفسي لذاك النظام حتى لمست الفرق بين ما كان يحصل وما أنا فيه حالياً.

- هل حياة الالتزام أفضل من حياة الفوضى.
- النظام طبعاً كون كل دقائق حياتك لها وقتها ودورها بذلك تستطيع تنفيذ كل التزاماتك بهدوء ودقة لذا تكون النتيجة دائماً جيدة ومرضية.
- هل حدت تلك الطريقة في الحياة من نشاطاتك الشخصية؟ سألته وأنا أغمز له.

- لا أبداً. لأن لتلك النشاطات وقتها أيضاً.
- هكذا إذاً حتى لذاك الموضوع وقته.
- نعم إذ لا يوجد ما هو أفضل من النظام.
- ربما ولكن نحن عشنا حياتنا هكذا وسنبقى على ما نحن عليه حتى آخر العمر.
- كل إنسان حرٌ في حياته وتصرفاته شريطة ألّا يتعارض ذلك مع خصوصيات ومصالح الآخرين.
- هذا أهم شيء إذ يجب على المرء أن يحاول جهده بأن يوفق بين رغباته ورغبات الآخرين كي تبقى حالة الهدوء والسكينة سائدة في محيطه دائماً.
- نعم ، هذا ما يمارسه الأوربيون إذ أنهم يقومون بكل ما يخطر على بالهم مع مراعاتهم الدائمة بأن ذلك لا يكون سبباً في إزعاج أيٍّ ممن يحيطون بهم. لذا ترى كل شيء يسير بسلاسة وهدوء.
- هذا ما لا يحدث في بلادنا. إذ تجد جنازة تعبر الشارع في الوقت الذي تصدح فيه مكبرات الصوت بأغانٍ سخيفة. وأهم من كل ذلك ما يقوم به أولئك المراهقون من حركات استعراضية إن كان على دراجاتهم النارية أم بسيارات أهلهم الميسورين وما ينتج عن ذلك من منغصات إن أردنا ذكرها نحتاج لندوات عدة.

- معك حق. فالذي ذكرته تقع مسؤوليته على المجتمع بتكويناته كافةً بدءاً من الأسرة وانتهاءاً بأجهزة الدولة، وأي خلل مهما كان صغيراً في إحدى تلك المراحل يعطل سير عمل بقية المراحل. لذا تراناً نراوح بمكاننا.
- إلى متى نبقى هكذا؟ قالها سعد الدين.
- هذه مسؤوليتكم أنتم رجال الصحافة كونكم عين المجتمع الساهرة.
- ما الذي أقوله لك؟ لقد جف مداد أقلامنا ونحن نواجه ونلفت نظر كل الفعاليات في المجتمع ولكن عبثاً، إذ لاحياة لمن تنادي.
- يجب الاستمرار بذلك رغم ما ذكرت ، فتغيير عادات وتقاليد، وبالتالي تصرفات الأفراد والجماعات في المجتمع يحتاج لوقت طويل وجهد كبير، كون ما كان قد تراكم خلال فترة طويلة من الزمن يلزمه وقت مماثل مع الكثير من التصميم.
- هذا ما نقوم به نحن في قطاع عملنا إذ تم تخصيص فريق عمل مهمته متابعة ظواهر كهذه.
- صحيح؟
- نعم ومنذ زمن.
- بالصبر والتأني والمثابرة قد يتحقق ما تصبون إليه.
- نعم إذ لا نستطيع فعل شيء سوى هذا.

- ما لكم كلما غيرت منحى حديثكم، تشقون طريقاً آخر وبموضوع آخر.... كأسكم.

رفع الجميع كؤوسهم وبابتسامة خجل ترتسم على شفاههم.

- المهم يا سيد شاهر. لم تحدثني كيف تم الفراق بينك وبين السيد "أبو طاهر".
- بعد أن أوصلني إلى باريس حيث قام وبعلاقاته المتعددة بكل ما يلزم حيث أوصلني إلى مكان سكني وبعدها غادر عائداً عبر البحر إلى أرض الوطن.
- هل التقيت به بعد ذلك؟
- نعم كثيراً وبالأخص بعد أن أنهيت دراستي وعدت لأتسلم مقاليد العمل بدلاً من والدي الذي كان قد تقدم بالسن ولم يعد قادراً على إدارة تلك الأعمال.
- وعلاقتك بإيزابيل. إلى أين صارت.
- دامت مراسلاتنا لفترة من الزمن حيث الجو العام الذي آلت إليه أوضاعي وبالأخص الدراسية منها، إذ توجب عليَّ المشاركة الكثيفة في حلقات البحث المفروضة لإتمام الدراسة آنذاك.
- لا يزال هذا النظام قائماً حتى الآن؟
- نعم إذ يتوجب على دارسي بعض الاختصاصات اللجوء إلى مثل تلك الحلقات لإتمام أبحاث كانوا قد كلفوا بها.

- ممتاز فهي من أهم الأساليب الدراسية نجاحاً لأنها أثبتت جدارتها عبر الزمن.
- نعم صحيح لأني لمست ذلك إبّان دراستي الجامعية.
- لا حول ولا قوة إلا بالله... ما لكم. هل أمضي بقية الليلة أذكركم بأننا ثلاثة؟
- معك حق سيد جاسر . اعذرنا . فهذا طبعنا الذي لا نستطيع الفكاك منه.
- حاولوا ذلك.. ولو لهذه الليلة فقط.
- كما تريد يا سيدي فنحن تحت أمرك.
- هات حدثنا عن حلقة أخرى كم صار عددها؟
- خمسة.
- نعم خمسة، قلتها وأنا أشير له بيدي: أي تفضل تابع.

لاح السيد شاهر برأسه ولكن بشيء من الرضا هذه المرة حيث بدأ بتسوية جلسته، إلى أن غاص أكثر في مقعده ليتمكن من وضع ساق فوق ساق، وما إن استقر تماماً حتى شرع قائلاً:

- كانت من بين مجموعة شكلت حلقة بحث كان أساتذتنا قد كلفونا بإنشائها وكانت من أصول أفريقية، أول ما شدني إليها ذاك التناسق الرائع لجسدها والذي كان قد

أضفى على ذاك الجمال جمالاً لون بشرتها المائل لذاك اللون الرائع الذي تصير إليه بضع حبات من القهوة كانت ناراً هادئة قد لفحتها محاسبة إياها على تمردها وتنكرها للونها الأحمر الأساسي.
كما كان لذاك السحر الهائل الذي كانت تتركه سعة عينيها ونقاؤهما.
بدأت أتقرب منها شيئاً فشيئاً إلى أن تمكنت من مبادلتها أطراف الحديث، إذ لمست رضاها عن ذلك أو بالأحرى عدم اعتراضها. لذا تشجعت أكثر، حيث قمت بدعوتها لتناول مشروبٍ ضمن كافتريا الجامعة، حيث تبادلنا حديثاً قربنا أكثر من بعضنا.

- ما كان اسمها؟
- كانت تدعى راندا.
- ومن أي البلاد أتت؟
- من الكونغو.
- كونغو كنشاسا؟ قالها سعد.
- نعم.
- خمنت ذلك لأن ذاك البلد كان خاضعاً للاحتلال الفرنسي.
- نعم صحيح.

- وهل كانت تنحدر من أصول غنية حتى تم إرسالها إلى فرنسا لمتابعة دراستها؟
- نعم تستطيع قول ذلك. كما أن الحكومة الفرنسية كانت قد خصصت مقاعد دراسية لبعض من أبناء مستعمراتها.
- كانت تدرسه مجاناً؟
- نعم مجاناً.
- ممتاز، ليت كل الاحتلالات تكون هكذا.
- كل الاحتلالات تشبه بعضها لأنها في النهاية تهدف لأمر واحد ألا وهو امتصاص خيرات وثروات تلك المستعمرات بالإضافة لاستغلال أهلها لمصلحتها بشكل عام.
- نعم ولكن هناك احتلالات قامت بتدمير كل شيء في مستعمراتها حتى القيم. أما الفرنسيون الذين كانوا يعملون قدر استطاعتهم. لرفع مستوى واقع تلك البلاد. من خلال إدخال برامج تطويرية تشمل كل مجالات الحياة.
- نعم. كل ذلك كان يحدث لتأمين مصالحهم، أليس كذلك؟
- هذا أمر مفروغ منه، فكل دولة تسعى لتأمين مصالحها، هذا قانون وناموس الحياة.

- نعم فالكون قائم على المصالح. لذا لا يمكننا لوم جهة وترك أخرى.
- نحن لا نميز بين جهة وأخرى. كون الملام الوحيد في كل ذلك تلك الشعوب التي اعتادت الخنوع والرضوخ لأوامر ورغبات زعاماتها المرتبطة أصلاً بتلك الجهات.
- نعم معك حق. إذ لا مبرر لأي من تلك الشعوب صمتها هذا وخضوعها الذي يجر الويلات دائماً وأبداً. لذا توجب عليها الانتفاض لمقاومة كل تلك القوى وبالأخص أولئك اللذين ميزوا أنفسهم عن بقية شعبهم أياً كان مصدر ومبرر تمييزهم هذا. طائفياً أو عائلياً وبالأخص دينياً.
- نعم إذ أن هناك ظاهرة بدأت بالانتشار حيث أثبتت بعض الشعوب من خلالها جدارتها بالحياة لحسن تدبيرها وحنكتها حيث نظمت نفسها معلنة انتفاضتها رافضة كل ما كان قد فرض عليها عنوةً من قبل أعداء داخليين وخارجيين.
- المهم كيف تطورت علاقتك بالمدعوة راندا؟
- أراك قد حفظت اسمها فوراً!
- كيف أنسى اسم صاحبة الحلقة الخامسة؟
- حتى هذا لم تنسه!

- نعم حتى هذا، لأكون لك بالمرصاد إن حاولت ولمجرد المحاولة أن تنسى أو تتناسى ذلك.
- لله درك يا رجل! كم أنت ملحاح؟
- هذه طبيعتي، ألست مثلكم؟
- نعم أنت مثلنا تماماً إذ لكل شخص طبيعته والتي يرضى بها.
- يا سيدي لك ما تريد.
- كانت دعوتي لها تلك فاتحة علاقة دامت فترة لا بأس بها ، إذ توسعت دائرة علاقتنا ولقاءاتنا لتتم خارج نطاق الجامعة وملحقاتها، إذ كنا نرتب رحلات قمنا بها خارج مدينة باريس وضواحيها.
- أي أن تلك الرحلات كانت الأمتع والأحب لقلبك.
- نعم وبالأخص تلك التي خططنا لها ونظمناها نحن مع بعض من زملاء حلقة البحث والتي كانت باتجاه منطقة ريفية كان بعض من زملائنا قد نصحونا بها. وبالفعل، تم ذلك حيث غادرنا مقر السكن الجامعي مستقلين حافلة كبيرة بالرغم من أن عددنا لم يتجاوز الثمانية. أربعة شبان وأربع فتيات حيث حملنا كل مستلزمات الرحلة معنا كالخيم وغيرها.

وما أن وصلنا إلى ذاك المكان الساحر والذي كان أقرب ما يكون لقرية نموذجية، كانت قد أنشأت على ضفة

ذاك النهر العظيم حيث أنشأت مزارع عدة كان جلها قد تخصص بزراعة الخضروات وتربية الماشية.

اخترنا بقعة كانت جزءاً من بستان غرس على ضفة النهر مباشرة، حيث قمنا ببناء خِيَمِنا بعد أن أنزلنا كل ما كنا قد أحضرناه معنا لنصرف تلك الحافلة على أن تعود لإعادتنا في وقت لاحق.

- في البداية. اختصت كل فتاتين بخيمة وكذلك فعلنا نحن الشبان. إلا أن الوضع لم يستمر هكذا طويلاً حيث تم التبادل لتضم كل خيمة قطبين مختلفي الشحنتين الملتصقتين بفعل الجذب الطبيعي.
- وهل حدث ذاك الالتصاق وبالتالي تلك الشرارة؟
- نعم كون كل قطب كان قد اختار قرينة لذا اشتعلت الشرارة الممتعة.
- كم يوم دامت رحلتكم تلك؟
- ثلاثة أيام. إذ بتنا هناك ليلتين تعدان من ليالي العمر كون لليل تلك المنطقة بهجة خاصة وبالأخص في تلك الفترة من السنة حيث تكون السماء صافية مبدية نجوماً لامعة والتي ما يلبث ذاك القنديل الإلهي أن يبدأ بإرسال أشعته الفضية لتضفي على ذاك الجو سحراً خيالياً يهيج كل سكنةٍ من مشاعر جَهَدنا كثيراً كي نهدئها.
- كم دامت علاقتك بتلك الفتاة؟

- حوالي السنتين.
- لِمَ انتهت تلك العلاقة؟
- لأنها غادرت فرنسا بحجة الزيارة ومن وقتها لم تعد أبداً ولم أسمع شيئاً عنها رغم كل محاولاتي للاتصال بها والتي باءت كلها بالفشل.
- بهذه البساطة تجاوزت تلك المحطة من حياتك.
- نعم وبالرغم من كل المعاناة. إلا أن الإنسان قد فطر على النسيان ولولا ذلك لعاش الغمْ مدى حياته.
- ألهذا سمي إنسان؟
- أعتقد ذلك.
- ما الأحداث التي صارت في الكون خلال تلك الفترة؟
- حدثت أشياء كثيرة وسأحاول تذكر أهمها... كأسكم.
- ورفعنا ما كان بأيدينا من كؤوس.
- لعلمكم. فقد كان العالم يلملم جراحات الحرب العالمية الثانية والتي تركت آثاراً كثيرة في كل أنحاء العالم حتى الذي لم يشترك بتلك الحرب المدمرة وبالأخص ما كان يجري في بلدنا حيث قامت انقلابات عدة قادها ضباط من مختلف الميول والاتجاهات السياسية وبالتالي الارتباطات الخارجية إذ قام انقلاب حسني الزعيم على الرئيس المنتخب آنذاك شكري القوتلي عام 1949 والذي ما لبث أن ذهب ضحية انقلاب آخر قاده سامي

الحناوي وبنفس العام قام بتشكيل الوزارة هاشم الأتاسي والتي لم تدم طويلاً حيث قاد أديب الشيشكلي الإنقلاب عام 1951.

- كنت في فرنسا إبّان تلك الفترة العصيبة.
- نعم إذ كان من العسير العودة إلى أرض الوطن كون الأوضاع حينها ما أن تبدأ بالاستقرار حتى تضطرم وتستعر نيران العداوات لذا فضل والداي بقائي هناك في فرنسا ريثما تستقر الأوضاع.
- متى عدت إلى أرض الوطن؟
- في منتصف عام 1952، وبعد الانتهاء من الدراسة حيث حصلت على شهادتي الجامعية.
- في فترة قيام ثورة مصر تقريباً.
- نعم إذ أنني غادرت إلى هناك حيث أقام والدي بعض العلاقات التجارية مع تجار كانوا قد برزوا من الثورة كالعادة. وفي كل مكان حيث يركب العديد الموجة مستغلين الأوضاع الجديدة لبناء ثروة بل ثروات.
- وكانت تلك الفترة تعتبر الذهبية بالنسبة لوضعي المادي حيث تضاعف رأس مالنا عدة مرات كوننا كنا نقوم بتصدير مواد عدة إلى هناك واستيراد كل ما يحتاجه البلد تقريباً لذا توجب عليّ الإقامة هناك، كي أتمكن من إدارة أعمالنا.

- إذن عشت في مصر أيضاً؟
- نعم.
- كم سنة أمضيت هناك؟
- حتى منتصف عام 1958. زمن إقامة تلك الوحدة.
- هات حدثنا عن تلك الفترة.
- كنت أعرف بأنك ستسألني عن ذلك.
- لم خمنت ذلك؟
- لأنني بت أعرفك جيداً.
- بهذه البساطة؟
- نعم.
- لو أردت أن أطلب منك أمراً هل تلبيه؟
- نعم بكل تأكيد.
- هل يمكنك وصفي ببضع كلمات؟
- نعم يا سيد جاسر.
- هات ما عندك.
- أنت رجل بسيط، طيب القلب ولكن علتك الوحيدة هي حشريتك وإلحاحك.
- صدقت. بالفعل هذه هي صفاته، قالها سعد الدين.
- نعم تماماً وبالأخص عندما أحلت إلى التقاعد حيث كرس ذاك الأمر.
- الحشرية والإلحاح؟

- نعم. يحدث هذا بفعل التعود حيث يشعر المرء بفراغ هائل لمجرد إحالته إلى التقاعد وبالأخص في الفترة الأولى.
- هذه معاناة كل من يفرض عليه ذلك وبالأخص في بلداننا فالخدمات التي تقدم للمتقاعدين في البلدان المتقدمة، كالرحلات الدورية داخلياً وخارجياً وكذلك أماكن التسلية كالنوادي والجمعيات حيث يشاركون أمثالهم تلك المسليات إذ من خلالها يمارسون هواياتهم بكل حرية. وبعيداً عن أعين المراقبين من أقاربهم حيث يلغى ما يسمى الملل الذي يعيشه متقاعدونا لذا تراهم يشغلون أوقاتهم بأشياء غير ذات قيمة. وفي كثير من الأحيان تأخذ شكل التدخلات السمجة وبالأخص من يحيطون بهم وفي منازلهم بالتحديد إذ تتحول تلك المداخلات إلى الكثير من المشاكل والتي قد تتطور إلى مستوى القطيعة والتي قد تدوم لفترات طويلة إلى أن يخلق جواً للتصالح.
- كل ما قلته صحيح كوني مررت به في بداية تقاعدي لذا وبناءً على توصيات الكثيرين من الذين كنت قد حاورتهم وبالأخص أولئك الذين كانوا قد مروا بنفس الظروف حيث توصلنا إلى أنه يجب إملاء وقت الفراغ

بأشياء مفيدة، ومن أهمهما القيام بالواجبات الاجتماعية كالتي أنجزتها هذا اليوم.

- آه، صحيح من أين أتيت؟ لم تذكر لي.
- جئت من المشفى إلى هنا حيث قمت بزيارة أحد معارفي وقريبنا البعيد.
- من هو؟
- محمد هاشم. تعرفه جيداً.
- نعم. ما الذي حدث له؟
- لقد أجرى عملاً جراحياً.
- وهل حالته مستقرة؟
- نعم والحمد لله.
- ذكرني غداً لنقوم بزيارته معاً إن شاء الله.
- وأنا سأرافقكم إن لم يكن لديكم مانع.
- بكل سرور. وسيفرح بلقائك فهو إنسانٌ اجتماعيٌّ جداً.
- ممتاز.
- المهم، ألا تنسى ما كنت قد بدأت به قبل قليل.
- ألم أقل لك يا سيد سعد؟ إنه حشري وملحاح.
- هز سعد الدين رأسه موافقاً ومؤيداً.
- أنا هكذا وسأبقى كما سبق وقلت. لذا دعكم من كل هذا ودعونا نكمل السهرة كما بدأناها.

- حاضر يا سيدي سأسرد على مسامعكم بعضاً مما مررت به إبّان مكوثي في أرض الكنانة.
- باشرت عملي فور وصولي إلى هناك وكان لدماثة خلق وروح أولئك الشبان المصريين الذين تعاملت معهم الفضل الكبير في سرعة تأقلمي مع الوضع الجديد الذي صرت إليه.
- ما كانت طبيعة تلك الأعمال التي كنت تباشرها هناك؟
- أعمال تجارية متعددة المجالات من تجارة الأقطان إلى الألبسة مروراً بالمحاصيل الزراعية. ومن ثم ما لبثت أن تطورت لتشمل قطاع العقارات والمباني كما يطلقون عليها هناك.
- وهل كانت تلك الأعمال مزدهرة في تلك الفترة؟
- نعم، كثيراً وبالأخص في فترة ما بعد الثورة.
- لماذا؟
- لأن العديد ممن استطاعوا التهرب من تلك القرارات والإجراءات التي فرضتها الثورة على معشر الملاك آنذاك قاموا بتحويل كل ما كانوا قد ملكوه إلى مصاغ ذهبي وعملات أجنبية قاموا بإخفاءها حتى تحين الفرصة. والتي ما أن تتاح حتى يقوموا بإخراجها والتصرف بها تحت أسماء عدة كشركات مساهمة

وغيرها من التصرفات والأساليب التي كانت قد اتبعت في أكثر من مكان من هذا العالم.

لذا ولانخفاض أسعار العقارات آنذاك لأن الكثيرين اضطرتهم الظروف لبيع ما كان قد آل إليهم –لمتابعة حياتهم– الفضل الأكبر في ازدهارها ونموها.

- إذاً حققتم أرباحاً هائلة من جراء ذلك.
- نعم.
- هل كنت تحتفظ بتلك الأموال هناك أم كنت تحولها إلى هنا؟
- كنت أحول القليل إلى هنا وغالبية ما يتبقى كان والدي قد أمر بتحويلها إلى فرنسا.
- لماذا فرنسا بالذات؟
- لأن البنوك والمصارف هناك كان تتمتع بالسرية التامة.
- هل كانت كما ذكرت؟
- نعم.
- لذا تراك لم تتأثر كثيراً بالإجراءات التي تم تطبيقها هنا لاحقاً.
- نعم.
- متى بدأت حياتك تتأثر سلباً؟
- في الفترة التي زادت فيها الضغوط مع ذاك البلد وقيادته إذ بدأت تلك المؤامرات تحاك والتي كان لحكام منطقتنا

الدور الأكبر فيها. لخوفهم من ذاك الحد وكذلك الشعور الذي بدأت ملامحه بالظهور على الكثيرين وفي مختلف بلدان المنطقة، لذا تحالفت فيما بينها للحد من ذاك الحد الناشط. حيث أسس حلفاً كبيراً ضم بالإضافة إلى تلك البلدان دولاً أجنبية مجاورة وبعيدة وأطلق عليه "حلف بغداد" والذي كان من أهم أهدافه المعلنة، إنشاء سد قوي في وجه الطوفان الشيوعي. ولكن الهدف الخفي هو ضرب تلك الثورة وقادتها بالأخص ما كانت قد بدأت التحضير له، كإنشاء ذاك السد العملاق وكذلك مباحثات حول ما تم إقامته لاحقاً بين بلدينا.

- ما علاقة إنشاء سد أسوان بالذي قاموا به؟
- لأن ذاك السد سيوفر الكهرباء وكذلك سينظم مجرى ذاك النهر الذي كانت فيضاناته المتكررة سنوياً تجلب الخراب لمحاصيل عدة، لذا قامت تلك الشركات بتحريض حكوماتها كي ترفض كل العروض التي كانت حكومة ذاك البلد قد قدمتها لتغطية كل التكاليف. الأمر الذي فرض على حكام ذاك البلد آنذاك اتخاذ قرارٍ كبيرٍ لتغطية تلك المصاريف.
- قرار تأميم قناة السويس؟
- نعم، فريعُها يغطي كل تلك التكاليف ببساطة.

- ونتيجة لذاك الإجراء قامت تلك الدول بشن ما يسمى العدوان الثلاثي ؟
- نعم.
- هل تأثرت أعمالكم هناك نتيجة ذاك العدوان؟
- كثيراً كون معظم مستودعات شركاتنا كانت في المناطق التي استهدفها القصف من قبل طيران وبوارج ذاك التحالف.
- إذاً كما فهمت كانت خسائركم فادحة؟
- نعم، بالإضافة لذاك الجمود القاتل الذي طال قطاع العقارات أثناء ذلك.
- كم دامت تلك المحنة؟
- سنة ونصف السنة تقريباً.
- وهل تابعت عملك هناك بعد ذلك؟
- لا أبداً، لأنني ما إن باشرت بإعادة بناء ما تهدم حتى بدأت محادثات الوحدة، التي دامت لفترة لا بأس بها، والتي كان لقيامها الأثر السلبي والكبير في حياتي.
- كيف؟
- كون المقررات التي نتجت عن قيام تلك الوحدة أثرت سلباً على كل أعمالي فالفرق أصبح بسيطاً جداً في أسعار السلع المتبادلة بين قطرينا مما أدى لوقوعنا بالخسائر المتلاحقة، لذا قررت العودة إلى بلدي.

- عدت قبل وفاة والدك أم بعدها؟
- لا قبلها، بفترة بسيطة لأن تلك القرارات كانت قد صدرت بعد ذلك.
- عندها غادرت إلى فرنسا، أليس كذلك؟
- نعم.
- كم بقيت هناك؟
- ثلاث سنوات.
- إلى ما بعد الانفصال؟
- نعم.
- لماذا؟
- لأن الوضع آنذاك، أصبح أكثر ملائمة للبدء بالأعمال التجارية وكذلك لإقامة المشاريع الصناعية.
- هل تمكنت من الوقوف على قدميك والقيام بأعمالك من جديد؟
- نعم وبالسرعة الفائقة،حيث كان لتلك الأرصدة التي كنا قد أودعناها في فرنسا الفضل الأكبر.
- ممتاز ولكن..
- أعرف ما يدور في ذهنكما ولكن دعونا نسلسل الأحداث حتى تصلا إلى مأربكما.
- معك حق –قالها الصحفي بلهجته المحلية وكذلك بحسه المهني.

- لذا يا سادتي لم أتزوج حتى تلك اللحظة إطلاقاً.
- لماذا، وكنت قد تجاوزت الثلاثين حينها؟
- لأن ما مررت به من مغامرات حيَّد تلك الفكرة عن ذهني لفترة رغم ضغط والداي الكبير.
- إذاً والدك لم يعش حتى يرى أولادك؟
- لا وللأسف.
- ووالدتك؟
- لقد عاشت إلى ما بعد ولادة ابنتي البكر لفترة ثم غادرت الدنيا.
- هل عاصرت والدتك قيام الثورة في بلدنا؟
- نعم.
- كم عاشت بعدها؟
- أقل من سنة.
- لم تحدثنا يا سيد شاهر عن أية محطة، كنت قد صغت منها حلقة لتضيفها إلى تلك السلسلة وبالأخص خلال تلك الفترة التي أمضيتها في مصر.
- هي محطة واحدة.
- بمصر وواحدة فقط؟
- أقول محطة وليست قطاراً عابراً.
- آه نسيت بأنك لم تطلق اسم محطة إلا على ما كان يترك أثراً في حياتك.

- برافو عليك يا فندم.
- وباللهجة المصرية أيضاً.
- نعم بالمصرية كوني سأسرد عليكم حكايتي مع نبوية.
- هل كان اسمها نبوية؟
- نعم نبوية السيد كامل.
- وتذكر كنيتها كذلك.
- نعم
- نبوية تلك يا سادة يمكن للمرء أن يطلق عليها كل الأوصاف المحببة إلى قلبه، وفي الوقت نفسه يشعر بأنه لم يفِ تلك الفتاة حقها.
- ألهذا الحد؟
- وأكثر من ذلك.
- هاااااه، تفضل تابع وعذراً على المقاطعة.
- تلك الفتاة يا سيد جاسر، كانت في مقتبل العمر ولم تتجاوز التاسعة عشر بعد، طيبة ورقيقة وسمراء حنطية، ممشوقة القوام ورشيقة، نتيجة ذاك الطقس الحار السائد في تلك المنطقة ولفترة طويلة من العام.
- من أي المناطق كانت؟
- من الصعيد الجواني، كما يطلق على تلك المناطق النائية من صعيد مصر.
- هناك بالقرب من الحدود السودانية؟

- نعم.
- ما الذي قادك إلى تلك المناطق؟
- عملنا ومشاريعنا.
- وهل قمتم بمشاريع هناك؟
- نعم، لقد قمنا بزراعة القطن والأرز هناك، إذ كان والدها عمدة ذاك البلد، وكان شخصاً كامل الرجولة، لما اتسم به من رجاحة عقل وأناة ميزته عن كل من تعاملت معه قبلاً. وكذلك ذاك الكرم المدهش الذي كان يبديه هو وكل عشيرته. الأمر الذي يجعل من المرء أسيراً طوعياً يخضع نفسه لكل ما يتفضلون به عليه، حيث أمضيت في ضيافتهم أسبوعاً كاملاً، في الوقت الذي كان من المقرر أن نمضي يوماً وبعض يوم.
- لم أطلت إقامتك هناك؟
- لما ذكرت من أسباب حيث أصول الضيافة هناك تلزم الزائر البقاء ثلاثة أيام قبل سؤاله عن سبب مجيئه.
- مثل عادات باديتنا.
- تماماً، ولكن هناك يحس المرء بالفرق مباشرة لأن ما يقومون به من تصرفات وإجراءات تسلب لب كل زائر وبالأخص الذي يقوم بزيارته الأولى.
- مثل ماذا؟

- كحفلات السمر والتي يتخللها رقصات شعبية وأغان ينشدها مطربون محليون وعلى آلاتهم البدائية بالإضافة إلى ما كانوا يقومون به من استعراضات كانوا قد ورثوها عن آبائهم وأجدادهم كتلك المعارك بالعصي والرقص على ظهور الخيل.
- وكان قد لفت انتباهي أثناء ذلك صبية تضج بالحيوية والنشاط وبالأخص عندما كانت تنشد تلك الأغاني الشعبية وبصوت يخترق أذنيك كالنعاس لدرجة لا تستطيع معها مسك نفسك عن القيام والمشاركة بكل ما كان يحدث أمامك أيّاً كان.
- هل فعلت ذلك؟
- نعم، لقد قمت بكل تلك الحركات من الرقص على ظهر الخيل حتى جولات القتال بالعصي وغيرها من حركات رائعة وكانت تلك الفتاة، لا أدري إن كان ذاك مجرد مصادفة أم كانت ترتبه بكل ذكاء وحنكة حيث كل ما قمت به من حركات كانت هي من يشاركني ويقاسمني تنفيذها وتتواجد بقربي دائماً إذ كنت أتمكن من لمس ومسك يدها في كثير من الأحيان، وكانت تلك اللمسات تظهر نعومة يديها، بالرغم من كل ما كان يظهره جسدها من شقاء وقسوة كون أشعة الشمس الساطعة معظم أوقات النهار هناك قد حفرت أخاديد عميقة في

طبقات بشرتها ليظهر ذاك اللون الذي تبديه القهوة إبّان رقادها.

- المهم تابع، لقد أثرت فضولي.
- يا سيد سعد، وما أن تنتهي تلك الحفلات حتى يعود كلٌّ إلى بيته وعشه ليرقد بسلام، بينما أنا ومن كان معي كان قد خصص لنا غرفاً خاصة في دوار ذاك العمدة، الكبير والواسع. وكان من أهم تلك الطقوس أن تقوم نساء الدوار بإتمام كل ما يتعلق بمنامة الضيف حيث يسأل عن كل حاجاته ليتم تلبيتها على الفور.
- وكان من حسن حظي أنها كانت هي من قام بالدور، عندها وبكل جرأة طلبت منها البقاء قليلاً.
- وهل وافقت ؟
- في البداية لا، فهي تخشى محاسبة ذويها، إلا أنها وافقت وأخيراً نتيجة إلحاحي هذا..
- ماذا فعلت حينئذٍ؟
- في تلك الجلسة لم أفعل شيئاً وكنت في غاية الأدب واللطافة معها كي تأنس لي وأكسب ودها لتعيد الكرة مرة ثانية.
- وتكرر ذلك، أليس كذلك؟
- نعم، ولكن كان يتم وفي أماكن عدة، إذ كنت أستغل انشغال الناس هناك بأعمالهم، لأختلي بها حيناً بين

غابات قصب السكر وعيدان الذرة وغيرها من الأماكن التي توفر غطاءً وحاجباً عن عيون المراقبين.

- هل ارتبطت بها رسمياً؟
- حاولت إذ كلمت والدها بذاك الأمر.
- ما كان رده؟
- طلب مني حينها تأجيل ذلك لفترة، تماشياً مع العادات هناك حيث كانت تنص على أن يتم عرض مثل هذا الطلب على مجلس العائلة الكبرى وخلال اجتماع عام يضمهم داره الكبير، وذلك لإفساح المجال لشبان العائلة والذين يرغبون بالارتباط بها كي يتقدموا، وبذلك يكون لهم الأفضلية.
- بالتأكيد، برز من خطفها منك.
- نعم
- كيف كانت ردة فعلك وقتها؟
- لقد عانيت كثيراً وقتها اعتبرت ذلك خسارة لا تعوض أبداً لكني أثناء ذلك تلقيت رد والدها بكل سعة ورحابة صدر مبرراً ذلك بما يسمى "القسمة والنصيب".
- هل عدت إلى هناك بعد ذلك؟
- أبداً.
- ألهذا الحد كانت قد أثرت فيك تلك الفتاة؟

- قل أكثر من ذلك يا رجل، كون سحرها ذاك لا يقاوم أبداً.
- يا رجل أراك قليل الحظ مع النساء.
- تستطيع قول ذلك.
- إذن غادرت ذاك البلد أثناء قيام الوحدة كما قلت.
- نعم وليتها لم تكن قد قامت وبالشكل الذي قامت عليه.
- لماذا؟ أليس هذا هو أملنا وهدفنا الذي نسعى إليه منذ القدم؟
- نعم ولكن ليس بالشكل الذي قامت على أساسه.
- كيف؟
- قامت كوحدة إندماجية.
- وما الخطأ في ذلك؟
- أولهما تباعد القطرين جغرافياً وثانيهما الفرق الاجتماعي والاقتصادي والأهم من كل ذلك الفارق الهائل بين عدد السكان في كل من القطرين.
- لذا قام قادة مصر بالسيطرة التامة على كل مقدرات ومراكز القرار هنا، وهذا كان أول مسمار يدق في نعش تلك الوحدة.
- أما المسمار الثاني فهومانصت عليه تلك الاتفاقية من قرارات.
- مثل ماذا؟

- مثلاً قانون الإصلاح الزراعي والتأميم وغيرها من قرارات غيرت الواقع الاجتماعي والاقتصادي في كلا القطرين حيث قضت على البرجوازية الوطنية التي على أكتافها كانت تقوم تلك المشاريع المنتجة، والتي تحولت لأيادٍ غير مؤهلة بحيث تراكمت الخسائر التي كان من انعكاساتها ذاك التمرد والتململ الذي أدى لذاك الانفصال.
- ألم يكن لما قامت به تلك الدول الاستعمارية من مؤامرات وغيرها من إجراءات تأثيرٌ سلبيٌ في ذاك الخصوص؟
- نعم وبالأخص تلك الأحلاف التي قامت لمواجهة تلك الحركة الوحدوية بشكل مباشر وإن كان هدفها المعلن غير ذلك.
- هل تأثرت عائلتكم بتلك القرارات؟
- نعم كثيراً، حيث أممت معظم معاملنا وتم الاستيلاء على معظم أراضينا، الامر الذي أودى بحياة والدي والذي كان قد تعرض لضربات متلاحقة.
- تعني أنكم بتم آنذاك فقراء؟
- ليس تماماً، فوالدي كان من طبعه الحذر لذا قام بإيداع مبالغ كبيرة في بنوك فرنسا.
- كان تأثير ما حدث ضئيلاً بعض الشيء إذاً.

- نعم بعض الشيء وبالأخص عندما قمت أنا بتسلم كل مقاليد الأمور حيث بدأت وباشرت بأعمال هنا وهناك حيث وجود أموالنا.
- كيف استطعت الصمود آنذاك؟
- كنت ذاك الوقت شاباً في مقتبل العمر لذا كان تأثير تلك الكوارث غيرها خفيفاً عليَّ بحيث لم يترك ذلك أي أثر لا على نفسيتي ولا على حياتي.
- أفهم من كل ما ذكرت أنك قد استطعت إعادة بناء وتكوين نفسك ومن تأمين ثروة أعادت حياتكم كما كانت عليه قبل تلك القرارات؟
- نعم، بل قل أكثر إذ رحلت أنا ووالدتي إلى فرنسا حيث أقمنا هناك حيث معظم مشاريعي ومعاملاتي كان مقرها هناك.
- ولمَ عدتم طالما كانت مشاريعكم ناجحة هناك؟
- رجعنا لأن أعمالنا قد تأثرت بالأوضاع السياسية بين بلدينا.
- هل تأثرت مشاريعكم بذلك؟
- نعم وبالرغم من كل ذلك بقيت أوضاعنا المالية ممتازة.
- لم أسألك، متى تزوجت سيد شاهر؟
- أول مرة؟
- وهل تزوجت أكثر من مرة؟

- نعم، مرتين.
- وهل رزقت بأولاد؟
- نعم ببنت وصبي، إذ رزقت بالبنت من زواجي الأول ومن الزواج الثاني بالصبي.
- وهل هما على قيد الحياة؟ وعذراً على هذا السؤال.
- لا عليك، نعم وهما يعيشان خارج البلد.
- أين؟
- الشاب في فرنسا والبنت في كندا إذ أصبحا أجداداً لأحفاد.
- ألم تتواصل معهم؟
- بكل تأكيد.
- لم لا تذهب وتعيش حيث يعيشون؟
- أنا لا أغادر بلدي ومدينتي هذه بالذات نهائياً إلا إلى حيث مثواي الأخير.
- أطال الله في عمرك.
- هذا أمره بيد الله وحده.
- نعم صدقت.
- لم لا تذكر شيئاً لنا عن زيجاتك سيد شاهر؟
- هاتان هما الحلقتان الأهم في حياتي.لماذا؟
- لأنه وبنتيجتهما رزقت بوليديّ.
- شيء رائع.

- نعم شيء رائع أن يحس المرء أن له سلالة تحيي ذكره.
- من أين كانت زوجتاك؟
- الأولى كانت لبنانية ومن عائلة عريقة جداً وغنية طبعاً.
- كيف التقيت بها؟
- كانت لي تعاملات تجارية هناك وكما تعلمون في مجال العمل وبالأخص التجاري منه حيث تتشابك العلاقات بحيث تصبح اجتماعية أكثر منها مادية. لذا تم تعارفي بزوجتي والتي كانت ابنة أحد شركائي والذي كان بالأساس من أصدقاء والدي رحمه الله، فقد تم كل شيء بسهولة ويسر، أنجبت لي بنتاً كانت كل فرحتي وقراراً لعيني.
- وكم استمر زواجك هذا؟
- عدة سنوات حيث اختارها الله لجواره، لذا اضطررت للزواج ثانية وكانت من مدينة حلب.
- وهل كان أهلها من التجار أيضاً؟
- لا ليسوا كذلك إنما كانت تربطني بعائلتها علاقة قرابة من بعيد، حيث تعارفنا خلال مناسبة عائلية هناك في حلب، ومن تلك السهرة وضعنا حجر الأساس لعلاقة دامت أكثر من عشرين سنة كانت خلالها نعم الزوجة والأم لولدي معاً إلى أن لحقت بسابقتها.
- إذاً أنت قد ترملت مرتين؟

- نعم
- ألم تتزوج بعد ذلك؟
- إطلاقاً.
- بقيت طيلة هذا الوقت دون شريكة لحياتك؟
- نعم
- هل أنت سعيد بهكذا حياة؟
- بعض الشيء.
- لماذا غادر ولداك البلد وقررا العيش كل حيث هو؟
- البنت بعد أنهت دراستها الجامعية تزوجت ورافقت زوجها حيث يقيم أما الشاب فقد أرسلته ليكمل دراسته في فرنسا حيث تزوج من فرنسية وهو يعيش هناك.
- ألم نشعر بالفراغ بعد هجرهما لك؟
- كثيراً في البداية إلا أنني قد دربت نفسي بحيث تأقلمت وبت أتأقلم مع أي وضع جديد قد أوضع فيه لذا تراني أعيش هكذا.
- قلت سابقاً ورغم كل ما كان قد تم من إجراءات وجلها كان مجحفاً بحقك وحق الكثيرين إلا أنك احتفظت بمستواك المالي. فما الذي حدث لتصير حالتك هكذا؟
- هذا أمر يطول شرحه لأنه يحتاج لوقت طويل.
- نحن الآن بدأنا سهرتنا هذه لذا لا تشغل بالك في مسألة الوقت.

- ألست مرتبطاً بمواعيد عمل محددة؟
- نعم.
- ألا تريد أن تأخذ قسطاً من الراحة، لتستطيع متابعة يومك بشكل مريح.
- لا عليك، فأنا قد اعتدت السهر الطويل.
- كما تريد فأنت أدرى بمصالحك.
- نعم لذا دعك مني الآن وخذ هذه من يدي، وناوله سعد قطعة تفاح كان قد غرس شوكة فيها.
- شكراً لقد أتت في وقتها، فقد بدأت أشعر بالحاجة لشيء طعمه حلو.
- أمر طبيعي كونك بذلت حتى الآن جهداً كبيراً لذا طلب جسدك هذا.
- معقول. قالها وهو يهز رأسه ثم تابع كلامه قائلاً: كم الساعة الآن؟
- العاشرة.
- لا يزال الليل بأوله.
- لذا قلت أمامنا سهرة طويلة، لله درك يا سيد جاسر!!
- نعم فمعاشرة أمثالك فرصة لا تعوض ولا تتكرر.
- شكراً على إطرائك هذا، وإن كنت لا أستحقه.

- يكفيك تواضع يا رجل لقد أذهلني حديثك بالرغم من كل ما كنت قد مررت به سابقاً وكل ما قمت به من علاقات مع الكثيرين لأنك تبقى المميز حتى الآن.
- شكراً مجدداً.
- عفواً سيد شاهر، لقد فاتني أن أسألك أي الفترات كانت الأفضل برأيك حتى مرحلة الثورة؟
- فترة الانفصال كون البرجوازية الوطنية قامت باستلام مقاليد الحكم والتي أتاحت للجميع بأن يعملوا حسب ما يريدون إذ كان هناك هامشٌ كبيرٌ من الحرية، والانطلاق إذ زادت المشاريع الزراعية والصناعية وغيرها من فعاليات أمنت فرص عمل هائلة وكذلك أدى الانتاج إلى رفع مستوى المعيشة.
- هل تأثرت تلك المشاريع وغيرها بإجراءات الثورة؟
- نعم ومن الطبيعي أن تتأثر إذ يتوجب على من قادوا الثورة أن يقوموا بإجراءات قد تكون صارمة في بعض الأحيان لضمان نجاح ما كانوا قد قاموا به لأجله إلا أن فترة الثورات بشكل عام يستغلها بعض الأشخاص والجماعات كما في كل البلدان ليقوموا بحرفها ولأسباب عدة، أهمها الشخصية مما يؤدي لأن تكون نتائجها ومنجزاتها محل شك وريبة من قبل معظم المواطنين حيث تنتشر الشكوك لتطال تلك الأهداف التي وقعت

للشعب عامة للالتفاف حولها ودعمها. كل ذلك أدى لحدوث كوارث عدة منها ما حدث أيام النكسة الفظيعة حيث تمكن العدو من خرب كل دول المنطقة المفتتة والمنهكة داخلياً وخارجياً كونها فشلت بإقامة علاقات جدية مع دول كانت ستؤمن الدعم لها في مثل هذه الظروف.

- كما أن معظم الفعاليات الاقتصادية كانت قد قررت مقاطعة وعدم مجاراة رجالات الثورة بقراراتهم والتي كانت بمعظمها ارتجالية وغير مدروسة في كثير من الأحيان. حيث أممت المشاريع والورشات الصغيرة والتي كانت تعيل العديد من الأسر، وكذلك وضع أشخاص غير مناسبين في مواقع حساسة لذا كانت النتيجة المحتومة لحرب كان العدو قد قررها وخطط لها منذ زمن بعيد وبدعم من أعظم الدول وقتها وعلى رأسها فرنسا وبريطانيا ومن بعدهما الولايات المتحدة.
- وهل حدث تخاذل عربي آنذاك حسب رأيك؟
- نعم وبشكل فاضح.
- لماذا؟
- لأن زعامة الثورة في مصر آنذاك قامت بإجراءات عدة وكانت تلك الإجراءات حادة بعض الشيء كونه وفي قرارة نفسها ظنت أن كل من يعيش على الأرض العربية

قد قرر الانضمام لها ولما نقوم به لذا حدث نفور عام منها وبالأخص من تلك الحكومات آنذاك بحيث وجدت مصر نفسها معزولة ووحيدة بالساحة مما أدى لقيام تلك الدولة وبدعم خارجي قوي بضربتها تلك والتي لا نزال ندفع ثمنها حتى الآن.

- معك حق فهذا تحليل سليم بالفعل نحن لا نزال حتى الآن ندفع ثمن ما كان قد حدث تلك الفترة.
- نعم لقد أعدتموني بالذاكرة إلى تلك الفترة العصيبة من تاريخ عائلتي.
- أية فترة نتحدث عنها؟ .. قالها شاهر
- فترة النكسة.
- كيف؟
- لقد كنا وكما تعلم نقطن هناك في إحدى قرى الجولان فوالدي كان في تلك الفترة عسكرياً ويخدم هناك.
- نعم أعلم ذلك قالها سعد، هلا حدثتنا عن تلك الفترة أو على الأقل ما تبقى عالقاً منها بذاكرتك.
- يا سيدي كل ما أذكره أن والدي قد عاد مسرعاً بل ملهوفاً وهو يصيح بوالدتي كي نقوم بجمع ما يمكن حمله إذ علينا مغادرة هذه المنطقة فوراً، سألته والدتي.

" – لماذا؟ ما الذي حدث؟

- ألم تسمعي؟ لقد سقطت القنيطرة.

- يا ويلي يعني أن العدو أصبح خلفنا.
- نعم. "

- بالمناسبة، من أذاع ذاك النبأ وقتها؟
- محافظ القنيطرة آنذاك.
- لم فعل ذلك؟
- لا أعرف وحتى الآن لم ألقَ تفسيراً مناسباً لما حدث.
- هل تأثرت مشاريعكم بما حدث آنذاك؟
- نعم بعضها فقط أما البعض الآخر فقد تأثر إيجابياً.
- كيف؟
- مشاريعنا التجارية كون مبادلاتنا، قد زادت آنذاك لأن العبء الذي وقع على مدينتنا أصبح كبيراً نتيجة لنزوح كل هذه الأعداد من البشر.
- أما المشاريع الصناعية والزراعية، فقد تأثرت سلباً كون ما حدث أثر على كل شيء، حيث أن عمليات استيراد المواد الأولية وكذلك قطع تبديل الآلات لذا تعثر سير العمل وبالتالي الانتاج.
- يعني انكم كنتم تستفيدون حتى إبان الكوارث.
- تستطيع قول ذلك.
- هل كنت تعيش آنذاك هناك؟
- ولم أزل.

- أقصد عائلتك.
- نعم.
- هل كانت زوجتك الثانية لا تزال على قيد الحياة؟
- نعم.
- متى توفيت؟
- في سبعينيات هذا القرن وبالتحديد عام 1975.
- أي كان ولداك لا يزالان صغيرين وقتها؟
- نعم.
- كيف تمكنت من العناية بهما؟
- لقد قمت بوضعهما في مدارس داخلية حتى حصلا على الشهادة الثانوية.
- ومن بعدها سافرا أليس كذلك؟
- نعم وكل على طريقته.
- كيف؟
- لقد تزوجت البنت وسافرت أما الولد فقد سافر وهناك تزوج.
- ندعوا لهما بالحياة الهادئة والناعمة.
- شكراً سيد سعد.
- أريد أن أستعلم منك سيد شاهر، ما الذي حدث لذاك السيد الذي رافقك آنذاك؟

- لقد غادر إلى كندا منذ تلك الفترة حيث يقيم أحد أولاده هناك.
- ألم تتواصل معه بعد ذلك؟
- لا وهذا ما حزّ وأثر في نفسي كثيراً.
- لِمَ لم تقم بذلك؟
- بحثت في كل مكان عن أي شيء يوصلني إليه أو يدلني على عنوانه هنا في بلدته وهناك حيث سافر.
- خسارة، فمعرفة شخص كهذا مكسب كبير.
- نعم كما قلت إنها خسارة كبيرة.
- أقدر شعورك هذا كون المرء يكون بأمس الحاجة لشخص يأخذ بيده أثناء ولوجه حياة جديدة مخففاً من معاناة تلك المرحلة.
- نعم، لقد قدم لي ذاك الشخص كل مساعدة ومعونة مادية كانت أم معنوية أثناء ذلك.
- بالعودة لما كنا قد بدأناه يعني أن تلك الفترة من تاريخ منطقتنا كانت عصية بكل المقاييس.
- نعم وبالأخص ما حدث هناك في مصر حيث قامت صراعات وصدامات حيث استغلت بعض التنظيمات ذلك لتقوم بتحركات وأعمال دفعت بقائد ذاك البلد ليقدم استقالته وبطريقة استعراضية محملاً نفسه تبعات كل ما حدث ، الأمر الذي أنتج ردة فعل حاسمة من قبل شعبه

آنذاك إذ نزل الناس إلى الشوارع مطالبينه بالعدول عن قراره هذا لأن المنطقة آنذاك كانت تفتقر لقيادة فاعلة وقوية وبالتالي قادرة على ردع وصد ذاك العدو وتحرير ما كان قد احتل.

- لذا قامت الدوائر التجسسية التابعة لتلك الدول المعادية بدس عملائها اللذين أججوا الفتن والصراعات في أكثر من دولة عربية وبالأخص تلك التي حدثت هناك في منطقة شرق النهر بين من كانوا قد طردوا من أرضهم وحكومة ذاك البلد حيث أدت تلك الحرب الطاحنة التي أزهقت أرواح الآلاف من كلا الطرفين.
- كل ذلك حدث لإلهاء قيادة تلك الثورة وحرف نظرها عما يحدث في تلك الأراضي المغتصبة وكذلك لوقف الدعم الذي كانت تقدمه لتلك الثورة التي قامت هناك لطرد المستعمر الفرنسي من تلك المنطقة الرائعة من مناطق المغرب العربي والتي قدم أهلها أكثر من مليون شهيد على مذبح حريتها.
- بالمناسبة هل كنتم تقدمون الدعم لتلك الثورة؟
- نعم وكان هناك من يجوب الحارات والأزقة لجمع تلك التبرعات والمعونات.
- كيف كنتم توصلون تلك المعونات؟

- عن طريق مصر حيث كان الخط الأساسي للدعم عبر الأراضي الليبية.
- لماذا؟ ألم يكن هناك اتصال مباشر بين منطقتنا وهناك؟
- لا.
- لماذا؟
- لوجود تلك الدولة الغاصبة والتي زرعت هنا لأجل ذلك بالإضافة لوجود العديد من أجهزة المخابرات التابعة لتلك الدولة وحلفائها والتي كانت تلاحق كل هيئة أو جهه وحتى أي مركب يحمل تلك المساعدات لذا كان يتم ذلك براً وعبر رجالات القبائل الصحراويين الأبطال.
- وفي لبنان كيف كانت الأوضاع إبّان ذلك؟
- في لبنان يا سادتي وكالعادة إذا لا تكاد تستقر الأوضاع هناك إلا وتعود للانتكاس من جديد حيث الخلافات والصدامات التي تعود بأكملها لذاك النظام الطائفي القائم هناك، والذي كان قد أدى وخلال تلك الفترة لنشوب أكثر من حرب أهلية وكان آخرها ما حدث أيام الوحدة، إذ اضطر الرئيس آنذاك لطلب مساعدة دولية وبالأخص من تلك الدولة القوية حيث أنزلت قواتها على الأرض ولتضرب تلك الوحدة القائمة آنذاك.
- يعني أن الأوضاع كانت كما هي الآن؟
- نعم بل أخطر.

- كيف؟
- كون النظام هناك كان قائماً على ما ذكرت مما خلق جواً مناسباً لتغلغل كل تلك الأجهزة لتقوم بترتيب وخلق الجو المناسب لنشوب تلك الصراعات وذلك تأسيساً لإنشاء قواعدها والتي كانت قد وضعت للانطلاق في مواجهة الاتحاد السوفياتي ومده آنذاك وكذلك استغلال خيرات هذه المنطقة.
- ألم تؤسس مشاريع هناك؟
- نعم وذلك بمشاركة بعض التجار هناك حيث أقمنا معملاً كبيراً لتعليب الخضار والفواكه وكذلك لعصر الزيوت وتجفيف بعض المنتجات كالبصل والثوم وغيرها.
- وهل تأثرتم بتلك الأحداث آنذاك؟
- وقتها لم نتأثر ولكن فيما بعد نعم حيث وقعت الكارثة.
- الحرب الأهلية الأخيرة؟
- نعم.
- وكم كانت خسائرك وقتها؟
- كبيرة جداً إذ تم تدمير وحرق تلك المعامل والورشات لأن حجم التجييش الطائفي والمذهبي قد وصل حداً لا يمكن إيقافه لذا جرى ما جرى.
- يعني أن خسائرك كانت كبيرة آنذاك.

- نعم وتستطيع القول بأن نصف ما كنت أملك آنذاك قد ذهب هكذا في مهب ريح تلك الحرب المدمرة.
- وهل كانت أرصدتك لا تزال هناك في فرنسا؟
- نعم ولله الحمد لأنني كنت قد قررت أن أستجرها لتطوير مشاريعي هناك في لبنان، إلا أن بعضاً من المخلصين قاموا بإسداء النصيحة التي جنبتني تلك الكارثة ولفترة لا بأس بها.
- إذاً كان هناك كارثة أخرى.
- نعم وسآتي على ذكرها لاحقاً.

عندها قام سعد قاصداً المطبخ، استغليت ذلك لأرفع كأسي وأقول، كاسك سيد شاهر ومن بعدها قدمت له قطعة فاكهة أخذها وهو يبتسم كمن فهم بأن هذه الحركة ما هي إلا استراحة محارب قصيرة.

عاد سعد وهو يحمل صينية حوت ثلاثة صحون وعندما وضعها أمامنا على الطاولة عرفنا ما كان قد أحضره قبل وقت ضمن تلك اللفة قدم لكل منا صحناً وكان يحوي عدة قطع من الحلوى مختلفة الأصناف تناولناها ونحن نقول: " شكراً سيد سعد أتت في موعدها تماماً."

ألحق ذلك بكؤوس كان قد ملأها بالمياه الغازية. وتم كل ذلك دون كلام وكأننا اتفقنا على ذلك بغية التقاط أنفاسنا ، ولنعاود الكرَّة مرة أخرى.

أنهى السيد شاهر صحنه ووضعه على الطاولة وهو يقول: شكراً سيد سعد شكراً على كرمك هذا.

- بالهناء والسرور. قالها سعد.
- شكراً.
- هات – قالها سعد للسيد شاهر – هل تعرضت للأذى الشخصي هناك.
- نعم.
- حدثنا عن ذلك.
- يا سيدي وبينما كنت أقوم بجولة تفقدية لممتلكاتنا لوضع اليد على ما كان قد حصل، فاجأتنا مجموعة من الرجال كانوا ملثمين ومدججين بالسلاح حيث قادونا وبكل فظاظة بعد أن قاموا بوضع كمامات على أعيننا ورؤوسنا.
- إلى أين أخذوكم؟
- لا أعلم لكنه كان بعيداً جداً عن موقع الشركة علمت ذلك من خلال الوقت الذي أمضيناه ضمن تلك الآليات وكذلك قدَّرت أنه مكان يقع في سفح جبل من حركة الآليات الالتفافية كون الطرق تكون هكذا غالباً.
- لم أخذوكم هكذا؟
- أرادوا في بادئ الأمر إعدامنا.

- لماذا؟
- لأنهم كانوا يحسبوننا من مؤيدي مناوئيهم السياسيين وبالأحرى الطائفيين.
- كيف تم إطلاق سراحكم؟
- تم ذلك نتيجة لتدخل بعض الزعامات الدينية في تلك المرحلة والذين كانوا يسيطرون آنذاك على كل شيء بعد أن استحصلوا منا على شيكات منحناهم من خلالها كل ما كنا نحتفظ به في بنوك تلك الدولة آنذاك.
- وهل كانت تلك المبالغ كبيرة؟
- نعم.
- كم كانت نقدياً؟
- مئات الآلاف وكانت ضخمة آنذاك.
- وهل صحيح ما كان قد وصلنا من أخبار عمّا كان يحدث هناك مثل القتل على الهوية، وحسب المعتقد والاتجاه السياسي؟
- نعم.
- لم كل هذا؟
- كما ذكرت كان تنفيذاً لما كانت قد أسسته الشبكات التجسسية إذ أججت الحس الطائفي والمذهبي وكذلك السياسي. آنذاك داعمة كل الأطراف ضد بعضهم البعض وبنفس الوقت. والضحايا كالعادة أولئك البسطاء

كـون الزعامـات والقيـادات كانـت تتحصـن فـي قصـورها وملاجئهـا، وإن تعثـر ذلـك كـانوا يفـرون وعبـر مـرافئهم ومطـاراتهم الخاصـة إلـى خـارج البلـد إلـى أن يـتم تـأمين عودتهم بأمان.

أثنـاء ذلـك كـان جهـاز التلفـاز يبـث نبـأ عـن زيـارة يقـوم بهـا رئيس مصر لدولة أوربية.

- هذا الرئيس الرابع لمصر بعد الثورة– قالها سعد.
- نعم، لأن قائد الثورة كان قد فارق الحياة في قمة الأزمة التـي كانـت حاصـلة بـين حكومـة شـرق النهـر وأولئـك المطرودين من ديارهم آنذاك. حيث تسلم مقاليد الحكم آنـذاك رجـل وأمعيـه حيـث غيَّـر كثيـراً مـن المفـاهيم وبـالأخص مـا كانـت قـد قامـت بـه الثـورة مـن إجـراءات حيـث أعـاد بعضـاً ممـا كانـت قـد صـادرته إلـى ملاَّكهـا الأصليين.

كـان مـن أهـم مـا كـان قـد قـام بـه مـن أعمـال إيجابيـة هـو جمعـه خمسـة دول فيمـا يسـمى الاتحـاد الخماسـي والـذي تراجع ليصبح ثلاثياً.

وكل ذلك حدث نتيجة لذاك التنافر الذي وجد بين مصر وحكومـة الثورة فـي ليبيـا وتنافسـهما علـى زعامـة المنطقـة بالإضـافة لمـا كانـت تلـك الأيـادي الخفيـة تقـوم بـه حيـث انفـك ذاك العقـد والـذي كـان سـيهدد وجـود تلـك الدولـة

الغاصبة لو أنه بقي صامداً. إلى أن تم بعد ذلك ما أعاد للأمة شيئاً من كرامتها.

- حرب رمضان تقصد؟
- نعم، تلك الحرب التي أعادت الثقة لنفس كل عربي حيث تم تحرير بعض من الأراضي المحتلة ولولا انسحاب وتخاذل حاكم مصر لكانت كل الحقوق قد أُعيدت منذ ذاك الوقت لأن الأمة بكاملها كانت قد هبت لمساندتنا.
- ألم تشترك بتلك الحرب يا سيد جاسر؟
- نعم، وقد أسرت أثناء ذلك.
- نعم قالها شاهر وهو يحملق فيَّ.
- صدِّق كل ما قلته، هذه هي الحقيقة أليس كذلك يا سعد؟
- نعم صحيح، فقد وقع بالأسر آنذاك وكنا قد فقدنا الأمل بعودته، وأكثر من ذلك فقد وصلتنا برقية تفيدنا باستشهاده حيث أقمنا له مراسم العزاء المعتادة، لذا يا سيد شاهر إن مات جاسر فلا يحق له بأن يقام له أية مراسم عزاء.
- معك حق، لقد أخذ حقه بالكامل.
- هكذا إذاً يا سيد شاهر، وكنت أحسبك في صفي وإلى جانبي في مواجهة هذا!. وأشرت إلى سعد.

- هذه حقيقة لا يمكن تجاوزها يا سيد جاسر، لذا اعذرني على ذلك.
- الآن تريد مني أن أعذرك، بسيطة.
- لا عليك سنصالحك ولكن بعد أن تسرد علينا ما كنت قد مررت به إبان ذاك الأسر.
- حاضر يا سيدي.

" أثناء قيام وحدتنا بصد ذاك الهجوم الذي قامت به قوة معادية وكنت آنذاك من تعداد وحدة مغاوير وكانت تلك القوات مدعومة بغطاء جوي كبير.

وبالرغم من كل البطولات التي قام بها قائد وعناصر وحدتنا إلا أن الدعم الجوي الذي كانت تتلقاه تلك القوة المعادية مكنها من القيام بعملية التفاف بحيث طوقتنا تماماً، لذا تم أسرنا"

- كيف استسلمتم؟ لِمَ لم تقاتلوا حتى الموت؟
- استسلمنا لأن ذخيرتنا قد نفذت تماماً وكذلك كل مؤونتنا التي دمرت من قبل طيران العدو، بالإضافة إلى كوني قد جرحت أثناء ذلك جرحاً بليغاً لا تزال آثاره واضحة في كتفي والذي كان قد شل عمل يدي آنذاك.
- كيف ألقوا القبض عليكم ؟

- طوقونا تماماً ومن بعد ذلك أمرونا أن نقف وأيدينا فوق رؤوسنا حيث قام بعض منهم بتقييدنا ثم نقلونا بشاحنات بعد أن كمموا عيوننا لمسافة طويلة.
- هل عالجوا جراحك حينها؟
- بعد ثلاثة أيام من أسرنا، عندها قاموا بالكشف علينا وإحالتنا إلى المشفى.
- أين احتجزوكم؟
- لا أدري، لكني كنت أسمع صوت هدير مياه البحر من زنزانتي.
- قد يكون حيفا، قالها شاهر.
- ربما.
- كيف كانت معاملتهم لكم آنذاك؟
- تصرفات عدو، كيف تتوقعها؟
- أعرف ولكن ما أسأل عنه هو هل كانت عمليات التحقيق تتم بقسوة أم بشيء من اللين؟
- لقد جربوا معنا كل السبل، من اللين حتى التعذيب وصولاً للإغراء بالنساء، وكان ختامها عملية التنويم المغناطيسي.
- وهل تعرضت لكل ذلك رغم إجابتك؟
- نعم، وأذكر ما حدث ذاك اليوم والذي أعتبره لغاية هذه اللحظة من أسوأ أيام حياتي.

- لماذا؟ هات حدثنا.
- يا سيدي، لقد حضر إلى ذاك المشفى حيث كنت أعالج من جراحي عدد من الجنود واقتادوني وكنت حينها أرتدي رداءً يستر جسدي إذ كانوا قد اعتادوا تجريد الأسرى من ثيابهم الداخلية أثناء إيداعهم المشافي للعلاج وكانت فتحة ذاك الرداء من الخلف حيث تربط طرفاه بربائط قماشية، ليسهل السيطرة على المريض إن قرر القيام بعمل أو بحركة مباغتة.
- إلى أين أخذوك؟
- إلى ساحة تلك المصحة، حيث تجمهر كل النزلاء والعاملين هناك على الشرفات ومن وراء زجاج النوافذ ليراقبوا ما سيحدث حيث شكل أولئك الجنود وبعض من أشخاص تصادف وجودهم في ذاك المكان حلقة كبيرة من حولي.
- لم فعلوا ذلك؟
- في البداية استغربت ذلك إلى أن حضر أحدهم وكان يقود كلباً ضخماً وشرساً أدخله تلك الحلقة وتركه يهاجمني عندها قررت الدفاع عن نفسي، كوني لا أملك سوى ذاك الخيار وكان أكثر ما أثار الحرج في نفسي ذاك الثوب، إذ كان يكشف ما كان قد ستره عند كل حركة كنت أقوم بها دفاعاً عن نفسي من هجمات ذاك

الحيوان الشرس، والذي جاهد كثيراً للنيل مني وبالرغم من كل ذلك تمكن من عضي في فخذي، وهذا مكانها – وقمت وأنزلت البنطال كاشفاً عن تلك العلامة، والتي لا تزال ظاهرة حتى الآن– كل ذلك وسط قهقهات أولئك الجنود وتصفيق من كانوا يراقبون ذلك من بعيد.

- يا إلهي ألهذا الحد وصلت وحشيتهم؟
- قل أكثر من ذلك.
- لم قاموا بتعذيبك وأنت بهذا الشكل؟
- لأنهم كانوا قد اكتشفوا خداعي لهم كوني غيرت اختصاصي، إذ أخفيت عنهم السلاح الذي كنت أخدم فيه ، لأن ذاك الاختصاص من أخطر الاختصاصات عليهم. لذا ركزوا كل عمليات التعذيب تلك عليَّ وعلى أحد زملائي رحمه الله والذي فارق الحياة أثناء ذلك.
- كيف مات ذاك الرجل؟
- لقد اقتادوه وقاموا بربطه من قدميه بحبل كان قد شد إلى قاعدة مروحية. رفعته عالياً هكذا ورأسة للأسفل لكن ولسوء حظه انفكت تلك العقدة وانحلت الربطة حيث سقط وكانت نهايته رحمه الله.

لاح السيد شاهر رأسه استهجاناً، ومن ثم قال:

- لقد سمعت سابقاً ما كانوا يقومون به من أعمال وحشية إلا أنني لم أكن أتصور أن يكونوا قد وصلوا إلى هذا الحد من الهمجية.
- يظلون أعداء، فلا عتب عليهم، فما تلقيته أنت هناك في لبنان كان يوازيه بالوحشية والإجرام بالرغم من كونهم أبناء بلد شقيق.
- نعم صدقت في ذلك، ولكن يمكن القول بأن العدو هو عدو المبدأ والقيم أياً كان منبته ونشأته واتجاهه الفكري.
- سلم الله فاك إذ إن العدو هو ما ذكرت تماماً، قالها سعد.
- أليس كذلك؟
- نعم أكيد وإلا لما كانت قامت تلك الدولة في منطقتنا.
- لم قامت تلك الدولة؟
- لعدة أسباب أولها شطر المنطقة إلى شطرين، وثانيهما إزكاء نار الفرقة بينهما بشتى الوسائل والأساليب لإبقاء سيطرة تلك الطبقة الحاكمة منذ أكثر من نصف قرن.
- كيف؟
- أو تظن أن بقاء تلك الدولة على قيد الحياة كان ليتم لولا أولئك؟!
- كيف؟ فسر لي.

- لو لا تخاذل أولئك وتآمرهم مع من كانوا السبب في ظهورهم ووجودهم حتى الآن- حيث أورثوا كل ذلك لأبنائهم وأحفادهم- لما كان لتلك الدولة الحظ بالحياة. فتلك الجهات تعلم حق العلم بأن ذلك لن يحدث، لأنها ستصبح نقطة وسط بحر لقلة عدد سكانها وثانيها رفض كل المنطقة لها، مما يعرقل كل مشاريعها ويعيق تنفيذ شعارها والذي أسسته مع علمها أنها لا تستطيع السيطرة على كل المنطقة إلا بتعاون وتآمر هؤلاء معها، بغية تمكينها من السيطرة على كل مقدرات هذه المنطقة وكان لفشلها في تحقيق ذلك عن طريق القوة، لذا بدأت بسياسة الاتفاقات والمعاهدات الثنائية مع كل قطر على حدة بغية تسهيل عملية القبول العام لها وبالتالي تحدد حدودها وتصبح بالنهاية أمراً واقعاً.
- ألهذا الحد وصلت خستهم وتخاذلهم؟
- بل قل أكثر، ولو أنهم ومنذ الوهلة الأولى لظهور تلك الدولة تمكنوا من ذلك لفعلوه.
- لم لم يتمكنوا آنذاك من ذلك؟
- لأن المزاج العام والشعبي في المنطقة آنذاك كان يرفض حتى الاعتراف بوجود هذا الكيان، فما بالك قبولها هكذا ببساطة، لذا عمدت تلك الدولة وعن طرق عدة إلى دعم أولئك الصنائع بالمال والسلاح، دافعة إياها لتوجيه كل

أجهزتها إلى الداخل بغية قمعه واستنزاف خيراته وتركه هكذا في هذه الحالة المزرية، محجمة ومقزمة تفكيره بأبسط متطلبات الحياة وكيفية تأمينها، مبعدة إياه عن كل ما كان يدور حوله من صراعات وما يحاك له من مؤامرات.

- يعني أن وجود واستمرار هؤلاء مرتبط بوجود وبقاء تلك الدولة.
- نعم لذا تجدنا ندور في هذه الحلقة المفرغة وتلك الدوامة من الرعب الذي يدفع المواطن ثمنه غالياً من قوت يومه حتى الآن، لأن تلك الصفحة ومَن وراءها أرادوا تخريب وتغيير ذاك المزاج العام "ترانا هكذا".
- تريد أن نقول أن ما تعيش فيه من ضيق مالي كل شعوب المنطقة مرده إلى ذلك.
- ليس هو وحده السبب!
- ما أسباب ذلك إذاً؟
- أولئك الذين قسموا مقاليد إدارة البلاد وائتمنوا عليها هم الذين باعوا ضمائرهم وخانوا مبادئهم، إذ قاموا باستغلال ذاك الوضع السائد في المنطقة لتمرير وتأمين مصالحهم الشخصية، مما أدى بالبلاد للانحدار في طريق الفساد وذاك الوباء المتعدد الوجوه.
- كل ذلك أسس له ليصير هكذا.

- نعم وإن كنت تظن غير ذلك فأنت مخطئ.
- أنت تريد أن تقول بأن كل من ارتكب أيّاً من تلك الموبقات قد جند نفسه مساهمة في تنفيذ ذلك.
- نعم الأمر هكذا، لأن كل من ساهم بضرب اقتصاد البلاد وإفساد إدارتها ومن أي موقع كان مهما كان صغيراً، فهو شخص متخاذل.
- ألهذا الحد؟
- نعم، لأن البلد كله كجسد الإنسان إن عطب جزء منه فسيؤثر على أداء بقية الأجزاء.
- معك حق، ولكن ما العمل حيال ذلك؟
- يلزم خطة شاملة تضعها سلطات عليا تلتزم بها هي أولاً، فبذلك تلزم كل خلية من الجسد بذلك، عندها تسير الأمور للأفضل وإن كانت ستتلقى الصدمات والإعاقات والمطبات في البداية، لأن ذاك النهر الخارق سيشق طريقه وسط تلك الصخور مبعداً إياها عن طريقه ومجراه، راكناً إياها جانباً لتبقى هكذا مكانها ما بقي الزمن. بينما تسير تلك القطرات المنطلقة بكل حيويتها حاملة الأمل بحياة سعيدة لكل جزء من أجزاء تلك البقعة التي تشمل وتضم ذاك المجرى الخالد.
- هل تظنون أن تنفيذ ذلك سهلاً.

- أنا لا أقول ذلك ولكن على الجميع المساهمة والاندفاع بكل مقدرات هذا البلد إلى الأمام لتستوي تلك الجهود على الدرب الذي سيوحدها كما فعلت تلك الشعوب المتطورة.
- وهل مرت تلك المجتمعات بما نمر به نحن؟
- نعم، وأكثر من ذلك فقد عاشت تلك الشعوب في ظل نظم أكثر جوراً وتعسفاً، لذا تراهم في كثير من الدول، قد قاموا بثورات دموية لتحقيق ذلك وبعض منها يعتبر حتى الآن نبراس للحرية ومضرب المثل.
- إذاً لا تزال أمامنا فسحة من أمل بأن نخطو تلك الخطوات.
- الأمل موجود على الدوام لكن يلزمه من يسعى لأجله وإليه.
- كم أنت متفائل يا رجل؟
- لِمَ لا أكون كذلك؟
- لأننا قد أصبنا بالإحباط لكثرة عثراتنا لذا ترانا نقبع هكذا.
- أنا لست من مؤيدي تلك الطريقة في التفكير لأنني أعتبر الإنسان كائناً خارقاً بحد ذاته إذ أنه لو فعَّل عقله لصنع المعجزات.

- أنت تهول الأمور يا سيد شاهر، فما الذي يستطيع فعله من قيدته كل تلك المعوقات؟
- على الإنسان أن يسعى دائماً لتحسين حاله وحال من حوله وبشتى الوسائل والسبل وإلا تراكمت تلك المعوقات بشكل فظ وجلف مانعة إياه حتى من التنفس.
- أريد أن أسألك سيد شاهر سؤالاً لا علاقة له بكل ذلك.
- تفضل، اسأل ما شئت.
- لأي ديانة تنتمي؟
- لكل الديانات.
- كيف؟
- أنا إنسان موحد وأعترف بوجود الخالق وكذلك الرسل وغيرهم لذا تراني أعيش هكذا منفذاً كل ما يجول بذهني دون أن أعارض أو أتقاطع مع أي من كل الدعوات لأني أعترف بالذات الإلهية، الخيرة والمحقة والتي لا تطلق أحكاماً لا تكون معصومة، لذا فأنا أعتبر نفسي لست بحاجة لمن يدلني إلى الطريق، كوني فعَّلت عقلي وحمكته بكل مشاعري وعواطفي فبذلك خمنت عدم الانحدار والانزلاق في تلك المهاوي التي تعتبرها تلك الدعوات موبقات وذلاَّت يحاسب المرء عليها.
- أتعتبر نفسك صالحاً بالمطلق؟

- لا، أنا لست كذلك كوني أعرف كل ارتكاباتي من قبل أن أقوم بها وأقدم عليها ولو أردت أن أكون كما ذكرت لصرت. لكن الإنسان يبقى في النهاية كائناً شهوانياً كونه يخضع لشهواته في بعض الأحيان لذا تراه دائم التفكير في مستقبل أيامه وبالأخص لحظة حسابه.
- أوتحسب لتلك اللحظة حساباً؟
- نعم وأتصرف وفق ذلك.
- كيف وانا أراك- معذرة- تجالسنا وتحتسي المنكر.
- أنا لا أعتبره كذلك.
- كيف أليس شراباً مسكراً؟
- نعم ، هو كذلك. ولكن أعتبر تعاطيه ضمن حدود معينة بحيث يحافظ معها المرء على كل ملكاته وقواه العقلية، فهو أمر طبيعي شأنه شأن أي مشروب آخر. أما ما أتت على ذكره كل الدعوات وأنهت عنه فهو ليس ما ذكرت، كون الذي يلغي عقله وكل ملكاته نتيجة ذلك فإنه كان قد قرر ذلك سلفاً، أي أنه سار في ذاك المنحدر بمحض إرادته وعن سابق تصميم، لذا فهو يستحق كل ما نصت عليه تلك الدعوات.
- أنت تفاجئني يا سيد شاهر بفلسفتك هذه.
- للمرة الثانية، أقولها لكم، هذه ليست فلسفة بل هي منهج في فهم الحياة وأصول الدين.

- كيف؟
- سأوضحها لكم. بسؤال محدد.
- ما هو؟
- كيف خاطبت وتوجهت تعاليم كل الأديان للإنسان بشكل عام وعلى الدوام.
- حسب مفهومي بأنها خاطبت العقل،أي الإنسان العاقل.
- تماماً، هذا ما قصدته لأن الخالق والطبيعة قد وضعا تلك الملكة ليتمكن الإنسان من تمييز الخطأ من الصواب، لذا ترانا نسمع دائماً كيف يخاطب الخالق الإنسان من تمييز الخطأ من الصواب، لذوي الألباب، وغيرها.
- نعم، كل ما قلته صحيح لكن كل توجهات تلك الأديان تذكر أولئك الغافلين.
- الإنسان الذي حكَّم عقله بكل ملكاته ليس بحاجة لذاك التذكير فهو بما قام به قد أصبح على اتصال مباشر بخالقه مزيلاً كل الوساطات، ماشياً وتاركاً إياها لتذكر من لم يقوموا بذلك.
- أتقول بأن الإنسان يستطيع الوصول ومحاكاة الذات الإلهية ببساطة إن أراد؟
- نعم إن نفذ ما قلته سابقاً.

- ومن يستطيع تنفيذ ذلك، الذي يكون قد ركب حساساً الكترونياً في رأسه بدلاً من دماغه.
- أنا لا أوافقك الرأي بذلك لأن الإنسان – وكما ذكرت – خارق إن تحكم بعقله وفعَّله جيداً، لكن الذي يريد أن يتقاعس ويهمل ذلك بين الحين والآخر فلا يمكنه تنفيذ ذلك لأن المصيبة واقعة لا محالة حينها.
- أية مصيبة؟
- أكبر مصيبة يتعرض لها الإنسان هي تشتيته لذهنه وقواه إذ يصبح كالواقع بين نارين، كل منهما أقوى جاذبية من الأخرى، لذا ترانا نجد الغالبية العظمى من الناس، وبالأخص من يمكن وصفهم بالمثقفين الذين تمكنوا بمعظمهم من الوصول لذاك المفهوم لكنهم لم يتمكنوا من المثابرة ، مشتتي الذهن والقوى إذ ما أن تفاتح أحدهم بأي موضوع، وبالأخص ذاك الأمر الجوهري حتى تراه يندفع، كمن رفعت كمامة عن فمه كانت قد منعته من الكلام ولفترة طويلة مؤيداً، وما أن ينحرف ولو قليلاً باتجاه تلك الناحية ذات الجاذبية اللذيذة حتى تراه ينطلق وبكل بساطة مؤيداً، مبرراً ذلك بأن الإنسان بطبعه مفطور على الشهوات والسعي وراء الملذات لذا لا يمكنه العيش هكذا كالآله. وهنا تكون المصيبة حيث لا يستطيع الإنسان تحقيق ذلك لأنه لم

يـتمكن مـن إلغـاء كـل التقاطعـات فيمـا بـين كـل تلـك القـوانين، إذ يجعلهـا تسـير كلهـا جنبـاً إلـى جنـب معـاً كالخطين المستقيمين المتوازيين، إذ لا يلتقيان أبداً.

- كيف يمكن للإنسان أن يوفق بين كل تلك القوانين كما ذكرت وهو بطبعه كائن عاقل وعاطفي بآن واحد؟
- ببسـاطة، إذ أن الإنسـان الـذي ذكـرت سـيكون قـد حكـم عقلـه بكـل ملكاتـه، عنـدها يسـتطيع التوفيـق فيمـا بينهـا بسـهولة وسلاسـة، كونـه قد نظـم ورتب كل شـيء بحيث يكون تنفيذه عادياً ودون عرقلاتٍ و قيود، لأنـه يستطيع تلبيـة كل حاجاته العاطفيـة وتـأمين راحته النفسية ضمن ذلك الكنف الهائل والواسع لتلك الملكة الكبرى .
- ألا يتعارض ذلك مع القوانين والأعراف الاجتماعية؟
- القـوانين الإجرائيـة وضـعها أنـاس مثلنـا لأنـاس غيّبـوا عقولهم متابعة لتعاليم الأديان .
- كيف؟
- هل سمعت أو قرأت بـأن هنـاك قانونـاً رقمـه كذا ومادتـه رقم كذا يكافئ المواطن فلاناً على عدم ارتكاب أي خطأ .
- لا
- ما الذي نصت عليه تلك القوانين ؟

- نصت على تنظيم الحياة وكذلك فرضت العقوبات على المخالفين و الشاذين والمتجاوزين لتلك الحدود.
- هذا ما قصدته، عندما يكون التصرف سليماً فهو بغنى عن كل تلك القوانين و موادها، ويكون كذلك فقط عندما يفعِّل عقله دائماً.
- والأعراف ؟
- الأعراف أمورٌ تم تداولها لفترة طويلة وضمن منطقة محدده، لدرجةٍ صارت تفصيلاتها كالمواد القانونية تلزم المرء الخاضع لها بتنفيذها.
- وهل يجب على المرء مراعاتها أيضاً؟
- ليس دائماً، لأن الكون يتغير و المجتمع الإنساني يتطور بشعور دائم، لذا يتوجب مراعاة ذلك وإلا بقي المرء وبالتالي المجتمع جامداً كالصخرة التي ركنها ذاك النهر على ضفته بينما يتابع هو سيره نحو المستقبل غير مبالٍ بها وبمصيرها.
- إذاً الأعراف يمكن تطويرها بحسب رأيك؟
- والقوانين أيضاً، لنتمكن من مجاراة الواقع.
- أين نحن من كل ذلك؟ إننا حتى هذه اللحظة نحكم بقوانين وضعت وسنت قبل عقود كثيرة من الزمن.
- نعم كل شي في هذه الحياة يجب إعادة النظر فيه وتعديله ليواكب تلك الحركة الدائمة.

- معك حق وإلا بقينا كما ذكرت على ضفة ذاك النهر.
- نعم.
- يا إخوتي، لقد أصبتموني بالملل، لو أني كنت اعرف بأن جلستكم ستتحول إلى مناظرة أدبية لما كنت قد جمعتكم أبداً.
- معك حق يا بن العم، اعذرنا لأن أفكار السيد شاهر تثير الانتباه والإعجاب.
- لذا كاسك.
- كأسكم جميعاً.
- عندها قمت وقصدت المطبخ علّني أجد شيئاً أكسر فيه حدة وطعم تلك الوجبة الدسمة، وبالفعل وجدت ابن عمي كان قد خبأ شيئاً تحت صينية كبيرة على طاولة جانبية، اقتربت ورفعت الصينية لأجد العجيب حيث كانت تخبئ نوعاً من الحلويات المعروفة باسم "بين نارين" قمت بوضع بضعة قطع ضمن صحن واسع وحملتها أثناء عودتي وقلت.
- أحمل لك مفاجأة يا سيد شاهر.
- أجارنا الله من مفاجآتك يا رجل!
- صدقني، فهذه المرة يوجد مفاجأة.
- هات أرنا ما الذي تحمله؟
- تفضل –قلتها له وأنا أناوله الصحن.

- الله الله ! بين نارين! كم لهذا الصنف من معزة عندي، لأنه ارتبط بذكريات قديمة.
- ذكريات؟
- نعم.
- إلى أين قادتك تلك الذكريات؟
- إلى تركيا.
- وهل زرت تركيا أيضاً؟
- نعم.
- وهل كانت زيارة أم للإقامة؟
- للإقامة.
- كم عام أمضيت هناك؟
- ثلاث سنوات.
- ما الذي فعلته هناك؟
- كنت أنفذ مشروعاً مشتركاً أقمناه مع بعض الشركاء الأتراك.
- ما كانت طبيعة ذاك المشروع؟
- كان مصنعاً لعصر وتعبئة الزيوت.
- الزيوت؟
- نعم.
- يعني أكثر من نوع؟

- نعم ، لأننا كنا نقوم بعصر الزيتون والفستق والذرة وبذور دوار الشمس، بالإضافة لبذور القطن.
- في أي عام باشرتم العمل هناك؟
- عام "1974".
- يعني أنك بقيت هناك حتى عام 1977؟!
- نعم.
- لماذا عدت من هناك؟
- لأن ذاك المشروع قد بدأ يلاقي بعض الصعوبات نتيجة للأوضاع السياسية السائدة هناك.
- وما علاقتك أنتم كاقتصاديين بتلك الإشكالات؟
- كيف ذلك ؟ فكل الفعاليات مرتبطة ببعضها هناك.
- ألهذا الحد؟
- نعم، بل أكثر من ذلك، كون القطاع الاقتصادي هو أول من يتأثر بالأوضاع السياسية.
- كيف ذلك؟
- كون المنشآت بأمس الحاجة للأمن والاستقرار كي تتابع عملها بسهولة ويسر.
- أين كان مقر شركتكم؟
- في مدينة أزمير، وكان مقر الإدارة العامة في استانبول.
- وأين كنت تقيم في أزمير أم في استانبول؟
- معظم الوقت في استانبول كون مهمتي كانت إدارية.

- يعني أنك عشت فترة طويلة في ربوع تلك الدولة العريقة والشهيرة؟
- نعم.
- هل كانت لم تزل جميلة آنذاك؟
- نعم
- هل أقمت هناك بمفردك؟
- نعم.
- لم لم تأخذ ولديك ليعيشا معك هناك؟
- لأن كلاً منهما كان يدرس ويقيم في مدرسة داخلية، لذا كنت أقوم بزيارتهما بين الحين والآخر.
- يعني أنك كنت وحيداً – مع غمزة من عيني – .
- نعم وحيدا. ولا داعي للغمز واللمز.
- هذه رأيك.
- نعم لأنني سأروي لكم بعضا مما قد مررت به هناك.
- هات زودنا بما لديك.
- يا سادتي: منذ أن وضعت قدمي أرض ذاك البلد الساحر والذي ملك علي فؤادي، قامت باستقبالي هناك فتاة سبحان الخالق كم كانت جذابة!
- كانت جذابة أم جميلة؟

- جذابة، لأن الجمال ليس كل شيء بالنسبة للمرأة ، إذ أن الجاذبية هي ذاك الشيء الذي يشد الغير لها وبالأخص الرجال.
- كيف ذلك؟
- الجاذبية يا سيد جاسر هي شيء يشبه مركز الالتقاط لرادار الإحساس، إذ أن الشخص الذي يتمتع بما ذكرت يكون لديه مكونات تثير حساسية ذاك المركز الهام عند الناس، فتجدهم وبلا تفكيرٍ ينجذبون إليه.

وتكون تلك الجاذبية لعدة أسباب :أولها . الجاذبية العامة أي بشكلٍ عام فذاك الشخص يلفت الانتباه بشكلٍ واضح من هيئته حتى طريقة مشيته .

أما ما تبقى من نماذج متعلقٌ بطريقة الكلام واللباس بالإضافة لطريقة الحياة بشكلٍ عام .

- ولأي الأصناف كانت تتبع ؟
- للأول كونها كانت ساحرة بكل تفاصيلها، تفاصيل حياتها إذ أنها كانت قمة في الأناقة و على درجة عالية من الثقافة، وبالأخص الاجتماعية منها، بالإضافة لما كانت تتمتع به من لياقة و دماثة.
- هذه ليست امرأة بل ملاك حسب وصفك لها .
- ليس إلى هذا الحد، إنما كانت مميزه بكل ما كانت تعنيه الكلمة من معنى.

- هل كانت عازبة أم متزوجة؟
- كانت مطلقة .
- مطلقة !!
- نعم
- من هذا الشخص الذي قام بالتفريط بشريكة كهذه؟
- أمثال ذاك الشخص كثيرون جداً، لأن الأشخاص الذين لا يحبذون أن تكون زوجاتهم تتمتعن بشيءٍ من التميز ينهون حياتهم بالانفعال.
- استغرب ما تتحدثون به.
- لماذا تستغرب ذلك ؟
- لأني لم أشعر بهذا الشعور .
- معك حق كونك تزوجت منذ بداية حياتك من امرأةٍ من ذات الوسط الاجتماعي لذا لم تتعرض لذلك.
- معقولٌ ذلك ولكن ما عنيته (بأني أستغرب ذلك) هو كيف يقبل الإنسان و بالأخص الرجل أن يعرض نفسه لمثل هذا الموقف وهكذا مأزق .
- الإنسان يا صاحبي مفطورٌ على حب الذات والطمع، لذا تراه يفضل اقتناء الأفضل ولو كان من غير وسط، وبالرغم من معرفته بذلك حق المعرفة إلا أنه يكابر و يصبر آملاً أن يتمكن من التلاؤم لكن وللأسف، ما أن

تستوي الحياة حتى يصدم كلا الطرفين بالواقع . وعندها تقع الواقعة.

- وهل ينطبق هذا على الجميع أم أنه قد انحصر في أوساط المثقفين ؟
- ليس بالضرورة لأنه إن توافرت عدة شروط، ومن أهمها التفهم والاستيعاب من قبل أحد الطرفين قد تسير أمور الحياة بروية وسلام، فما بالك إن اتسم كلا الطرفين بذلك .فهؤلاء هم المثقفون المتفهمون . أما فيما يتعلق بمن أسميتهم مثقفين فأولئك متعلمون أي حائزون على شهاداتٍ علمية. إذ عند أولئك تلك العقبة "المرتع الصالح" فمعظمهم ممن أداروا ظهورهم و تنكروا لواقعهم ووسطهم الذي برزوا منه، محاولين التعلق والتسلق إلى وسطٍ مغاير، لذا تجدهم يمثلون ما هم منه تمثيلا في كل حركاتهم وتصرفاتهم، إذ تصبح حياتهم ولمن يراقبهم عبارة عن مشاهد مسرحية، حيث يقدم كلٌّ دوره و يغادر دون أن يلتفت خلفه، مما يؤدي لتفكك كل الروابط وانحلال القيم لدرجة الزوال .
- لله دركم!! ها أنتم قد قسمتم أولئك إلى فئتين .
- هم كذلك.لأن الخطأ الكبير والفادح الذي ارتكبه ولم يزل معظم الناس هو إطلاقهم صفة مثقف على كل من حمل شهادةً علمية .

- لماذا؟ ألم يجتازوا مراحل دراسية كثيرة حتى حصلوا على تلك الشهادات؟
- نعم، فهم ولمجرد حصولهم على تلك الشهادات أصبحوا متعلمين، أما المثقف فهو من قام بقرن علمه ذلك بثقافةٍ عامة تؤهله دخول و خوض معترك الحياة و تمكنه من استيعاب كل من يقابلهم و يعاشرهم مؤثراً و متأثراً، فهيماً ومفهماً بما هو صالح وجيد، مطوراً نفسه ومساعداً غيره على التطور، وعلى الدوام لذا تم تقييمهم على ذاك الأساس و كذلك المجتمع الذي يعيشون فيه .
- كيف؟
- لأن المجتمع الذي ترجح كفة المثقفين فيه يطلق عليه لقب المجتمع المتحضر، وفي كثير من الأحيان مجتمع متقدم، أما من رجحت بين صفوفه الكفة الثانية فذاك ما يطلق عليه لقب المجتمع النامي ،مجاملةً، أما في الواقع فهو متخلف وفي أحسن الأحوال مجتمع يسير في طريق التقدم والتطور .
- أتعني مجتمعنا بذلك ؟
- نعم ولأننا في الفترة الأخيرة نسعى جاهدين لنضع أقدامنا على درب التقدم والتطور .
- هل يخضع المجتمع التركي لذاك التقييم؟

- نعم مثله مثل كل المجتمعات، ولكن وقت ذاك يمكن وصفه بالمجتمع المتحول .
- كيف ؟
- لأنه كان قد قطع شوطاً لا بأس فيه في طريق التقدم والتطور ولولا تلك العراقيل التي كانت مجتمعات وحكومات أوربا تضعها في طريقه لكانت تلك الدولة قد أصبحت في مصاف الدول المتطورة ، وحتى الآن يعيقون انضمامها لسوقهم المشتركة .
- لم يفعلون ذلك ؟
- لأنها بلادٌ واسعةٌ كثيرة الموارد وبالأخص المياه إذ ان من أراضيها ينبع هذان النهران العظيمان.
- ما ذكرت كلها أمور تبحث عنها تلك الدول فلماذا يتطرفون تجاهها؟
- أنهم يريدونها سوقاً لتصريف منتجاتهم وفي الوقت نفسه معبراً لمناطق عدة فحدودها مشتركة مع عدة دول واسعة وطويلة بحيث تصبح حلقة وصل بين تلك المناطق وبلادهم.
- هل لعب العامل الديني دوراً في ذلك؟
- نعم إذ كان هو العامل الأهم والحقيقي الذي دفع تلك الدول كي تضع تلك العراقيل، قاطعة على تلك الدولة

طريق التطور الذي ستتأثر به مجمل الدول المجاورة مما سيعيق لاحقاً كل مخططاتها ومشاريعها هناك.

- إذاً نحن نحارب من أجل ذلك.
- ليس تماماً بل لعدة أسباب وأهمها على الإطلاق هو لمنعنا من التكامل والتواصل والتكافل في شتى مجالات الحياة، وأهمها الموارد التي تقع على رأس أولويات تلك الدول.
- لذا تراهم يخلقون لنا المشاكل والعداوات دائماً.
- نعم، وإن لم يتمكنوا من خلق ذلك مع جهات عربية ومجاورة. أسسوا لتكون داخلية حيث يشعلون نار الفتن الطائفية والدينية وغيرها من مسببات المشاكل مستغلين ضعاف النفوس من أزلامهم المأجورين.
- كما حدث في منطقتنا بالأمس القريب. أي في سبعينيات هذا القرن.
- نعم، ألم تروا كم كانت خسائرنا كبيرة؟
- نعم لقد كانت كارثة بكل ما لهذه الكلمة من معنى.
- أو تظن أنها سترضخ للأمر الواقع وتقبل انضمام تركيا لعائلتها؟
- بكل تأكيد.
- لم أنت متأكد هكذا؟

- لأن مجريات الأمور تقول ذلك فهم لا يريدون خسارة ذاك المنجم المتجدد والخيرات والطاقات.
- كيف يخسرونها؟
- إن قامت تلك الدولة بتحالف ما مع دولة أو عدة دول في المنطقة، تشكل من خلاله قوة اقتصادية وعسكرية هائلة تؤثر كثيراً على ميزان القوى في المنطقة.
- وهل ستسمح تلك الدول بذلك؟
- لا أظن، فالمنطق يقول ذلك! إذ أن قيام مثل ذلك التكتل سيؤثر سلباً على مشاريعها ومخططاتها.
- لذا أنت تحتم انضمام تركيا لذاك التكتل.
- نعم، ولكن يلزم لذاك وقتٌ كافٍ وشروطٌ عدة.
- ربما.
- المهم حدثنا عن تلك المرأة الخارقة.
- ليست خارقة يا سيد جاسر بل هي جذابة.
- الجذابة يا سيدي وآسف لخطئي هذا.
- لا عليك.
- ما إن قدمت نفسي لها حتى قامت من خلف مكتبها، حيث اصطحبتني باتجاه مكتب المدير هناك.
- وهل كان تركياً؟
- نعم ومن مدينة أزمير، حيث قدمتني له وبصفتي الرسمية، ما إن سمع باسمي حتى وقف ومن خلف

مكتبه مد يده مصافحاً ومرحباً وعندها غادرت بعد أن عرضت خدماتها على ذاك المدير والذي طلب مني الجلوس هنيهة ريثما ينهي ما كان قد بدأه.

وما هي إلا لحظات حتى قام من خلف مكتبه، وطلب مني وبكل لطف أن أرافقه نحو قاعة واسعة كانت تتوسطها طاولة اجتماعات كبيرة، كانت تضم بالإضافة لتلك المرأة عدداً من الرجال الأنيقين. قدمني ذاك المدير لهم على أنني الشريك الأكبر ونائب المدير العام.

رحب الجميع بي كل على طريقته، ومن بعدها غادر الجميع إلا تلك السكرتيرة التي بقيت لترتب ذاك اللقاء وتديره، حيث قامت وبالنيابة عن المدير بعدة شروح عن كل متعلقات تلك الشركة وأقسامها، وكل سياساتها الداخلية والخارجية. ومن بعدها غادرت بعد أن وضعت نفسها في خدمتنا دائماً.

شكرتها وأنا أتابع حديثي مع ذاك المدير ومستوضحاً عن بعض ما كان قد خفي عني.

انتهى ذاك الاجتماع بعد بضع دقائق من مغادرتها تلك القاعة، حيث ترافقت وذاك المدير إلى حيث كان مكتبه، وعندها طلب من تلك السكرتيرة مرافقتي فلبت ذلك بكل رقة. حيث رافقتني نحو غرفةٍ كانت تقبع في وسط ذاك الممر والذي كانت تحفه ابواب عدة من كلا الجانبين

والتي كان على يمين كل منها لوحة تدل على طبيعة عمل شاغلها.

فتحت ذاك الباب وأشارت لي بالدخول. نفذت ذلك بكل هدوء وما إن أصبحنا داخل ذلك المكتب حتى بدأت بإيضاح كل شيء يخص ذلك المكان – الذي صار منذ ذاك الوقت مكتبي الخاص – وغادرت حيث وضعت نفسها في خدمتي كعادتها. مضى ذاك النهار دون أن أقوم بأي عمل كان لذا أحسست بملل كبير.

- لم أحسست بذلك الملل؟ ألم تقم باستدعائها لتقوم على إشغال وقتك بشيء مفيد؟
- مثل ماذا؟
- كأن تقودك في جولة ضمن رحاب تلك الشركة.
- وقتها لم يخطر لي ذلك.
- وهل فعلت ذلك في اليوم الثاني؟
- نعم وكانت جولة رائعة.
- أين كانت إقامتك؟
- كانت في شقة تم تأمينها ضمن حي راق من أحياء تلك المدينة الجميلة.
- وهل سكنتها بمفردك؟
- نعم بمفردي ولفترة لا بأس بها.
- وبعد ذلك؟

- بعدها كنت قد تعرفت على طبيعة ذاك العمل جدياً وكذلك ذاك المحيط الذي سأقيم فيه وبالأخص تلك العادات والتقاليد؟
- وهل كانت تلك العادات مغايرة عما نعيشه هنا؟
- كانت متشابهة تقريباً مع بعض الفوارق.
- ألا وهي؟
- ذاك الهامش من الحرية الذي يعيشه الناس هناك إذ أن كل شخص يهتم بعمله وشأنه الشخصي ولا يتدخل فيما لا يخصه نهائياً.
- ألم تحدث احتكاكات في بعض الأحيان بين الناس؟
- تحدث لكن كان لذاك النظام الصارم الذي تفرضه السلطات هناك الدور الأكبر حيث يردع المعتدي وينهي أية مشكلة بالسرعة الكلية.
- هل كان ذاك النظام يطبق على الأجانب أمثالك؟
- نعم مع بعض الشدة أحياناً لردع من تسول له نفسه خرق أو هتك تلك القوانين والمفاهيم.
- هل كنت سعيداً بذلك؟
- نعم.
- لماذا كنت تشعر بذلك و ضمن تلك الشروط القاسية .

- ليست قاسية بالمعنى التقليدي للقسوة، إنما صارمة، كون القيمين على ذلك لم يكونوا ليعترضوا سبيل من التزم وراعى تلك الشروط نهائياً.
- ألم تشعر بأنك كنت مقيداً نتيجة ذلك ؟
- أبدا، بل عالى العكس كنت أشعر بكل الراحة، حيث كنت أضمن عدم الاعتداء عليّ وعلى حريتي من قبل أي شخصٍ كان.
- هل كانت تلك القوانين تسمح بإقامة علاقةٍ بين الجنسين .
- نعم شريطة ألا تخدش الحياء العام .
- كيف ذلك ؟
- إن تم ذلك بالخفاء أي ضمن مناطق و أماكن مغلقة، و ليس علناً .
- هكذا أصبح الأمر أكثر سهولة.
- نعم .
- وهل أقمت علاقةً هناك ؟
- نعم .
- وهل تركت أثراً في نفسك ؟
- تقصد هل وصلت لتصبح حلقةً في تلك السلسة ؟
- نعم .
- إن كان الأمر يتعلق بذلك، فنعم .

- هل الأمر يتعلق بتلك السكرتيرة ؟
- لا
- بمن إذاً ؟
- بشقيقتها الصغرى .
- وهل كانت تماثلها بالمواصفات ؟
- بل كانت أفضل حالاً.
- وهل كانت عازبة؟
- نعم .
- كيف تمكنت من ذلك إذاً؟
- قمت بذلك بكل بساطة.
- كيف؟
- لقد قامت شقيقتها بدعوتي إلى منزلها كي أتعرف إلى أهلها وكانت تلك النتيجة.
- وهل تم ذلك وقتها؟
- نعم.
- كيف كان استقبال أهلها لك.
- كان استقبالاً حافلاً كون عائلتها كانت قد اقتصرت على شقيقتها فقط.
- وهل كانتا تعيشان وحيدتين؟
- نعم.
- ووالديهما وبقية الأسرة؟

- والداهما كانا متوفيين ولا أشقاء لهما.
- لم قامت بدعوتك إذاً؟
- كي تعرفني على شقيقتها الصغرى، هذا ما عرفته لاحقاً.
- لماذا لم تقم بذلك لنفسها هي؟
- هذا ما أثار في القلق بداية الأمر. لكن بعد أن قامت بإيضاح الأمر – حيث تفهمت ذلك وقدرته عالياً.
- ما كانت حجتها؟
- أولاً لأنها كانت قد جربت حظها كما قالت وأنها لا تريد أن تعيد الكرة مرة أخرى. وثانياً إنها تريد تأمين مستقبل شقيقتها تنفيذاً لوصية والديها الراحلين.
- كم هي رائعة تلك المرأة؟
- نعم هي كما ذكرت تماماً.
- وهل ارتبطت بتلك الفتاة؟
- نعم.
- وكيف انتهت العلاقة.
- بالزواج.
- كم دام زواجك هذا؟
- طيلة تلك المدة التي أقمتها هناك.
- ألم تنجب اولاداً منها؟
- لا.
- لماذا؟ وما هو العائق؟

- كانت وبكل أسف عاقراً.
- وكيف انتهت علاقتك بها؟
- انتهت عندما أنهيت ذاك العقد حيث فضت تلك الشراكة واصبح لزاماً علي المغادرة.
- لماذا لم تصحبها معك؟
- لم تكن لترضى.
- لماذا؟
- لأنها وكما قالت لا تريد الابتعاد عن أهلها وكانت تقصد شقيقتها بذلك.
- ألم توسط شقيقتها بذلك؟
- نعم وأكثر من مرة، حتى أنني قمت بطلب المساعدة من المدير شخصياً إلا أن كل تلك المحاولات قد باءت بالفشل، لذا تم ذاك الأمر البغيض بحيث عدت إلى أرض الوطن محملاً بشجن بالغ...
- كيف عشت بعد تلك التجربة؟
- في البداية عشت الصدمة بكل معانيها، إذ اعتزلت الحياة واعتكفت في المنزل لفترة طويلة، إلى أن حضر من قام بإخراجي من تلك العزلة ليعيدني إلى الحياة من جديد.
- ومن كان ذاك الشخص البارع؟

- كانت ابنتي البكر، والتي كانت قد غادرت مدرستها الداخلية حيث انتقلت إلى المرحلة الثانوية وبذلك أصبح لزاماً عليها البقاء معي، حيث ملأت ذاك الحيز الشاغر من حياتي والذي بموجبه عدت رويداً رويداً إلى حياتي الطبيعية.
- كم دامت تلك المرحلة؟
- ثلاث سنوات. إذ أنها تزوجت بعد ذلك وغادرت برفقة زوجها حيث استقرت هناك منذ ذاك الوقت.
- وولدك ما الذي حل به؟
- عاد كشقيقته للعيش معي حتى نال الشهادة الثانوية حيث سافر ليتم تعليمه حيث يستقر هناك.
- ألم تحن إليهما؟
- نعم، إذ كثيراً ما قضيت ليلي أناجيهما، ولولا محبتي وعشقي لهذه المدينة لكنت قد لحقت بهما منذ زمن بعيد.
- يا رجل أنت حكاية بحد ذاتها، ولكن ما يشغل ذهني الآن هو ما كنت قد طرحته عليك سابقاً.
- ما هو؟
- فيما يخص نصيبك من النساء، هل كتب عليك القدر أن تحرم منهن هكذا؟

- سؤالك هذا كان قد شغل بالي ولفترة طويلة وعندما لم ألق الجواب الشافي له هجرته واستسلمت كما قلت لقدري، لهذا تراني أعيش ساعتي. بل لحظتي بذاتها.
- يا سيد شاهر، أنت بارع في كل الأمور، وبالأخص تلك التي تستطيع من خلالها ضبط وتطييع ذاك لتماشي الواقع الذي تعيشه أياً كان.
- هذه صفة أخرى يمكنك أن تضيفها لقاموس حياتك إذ أنه يجب على المرء ان يلزم كل جوارحه لعقله بذلك يتمكن من تجاوز أي محنة وأن يتأقلم مع كل المستجدات الناتجة عن ذلك ، فبذلك يبعد كل كيانه عن القلق وتعب الأعصاب الذي وبحسب رأيي يقصّر العمر ويجلب الهم والغم.
- فكرة جديرة بالاهتمام، ويمكن طرحها على الملأ كي يستفيد منها الكثيرون وبالأخص من يتعرضون لهزات في حياتهم.
- هل ستنشرها في صحيفتك؟
- نعم.
- وهل تمانع بذلك؟
- لا، بل سأكون في غاية السرور كون أفكاري وقناعاتي ستجد السبيل لمن يفهمها ويقلدها على اقل تقدير.

- الآن اسمحو لي فقد غلبني النعاس، لذا اعذروني على تركككم.
- ابق قليلاً يا رجل لم تزل السهرة بأولها.
- أي أول يا رجل؟ لقد انتصف الليل!
- وإن كان الأمر كذلك! فالجلسة مع شخص مثل السيد شاهر لا تعوض.
- معك حق، بل أبصم لك بأصابعي العشرة، لكن ليس باليد حيلة. فالسلطان لا يعصى له امر.
- خذ راحتك، وإن كان غيابك عن جلستنا هذه تترك فراغاً كبيراً.
- بسيطة يمكنكم ملؤه بالنقاشات فأنتما بارعان في ذلك. لذا تصبحون على خير.
- وأنت من أهله، ردها الاثنان معاً.
- بالمناسبة سيد شاهر، ما هو رأيك بابن عمي جاسر؟
- من أية ناحية؟
- من كل النواحي.
- هو إنسان بسيط كغالبية رجال مجتمعنا كون جل همه أن يأكل جيداً ويشرب ويستمتع – وبالرغم من كل ذلك فهو دمث الخلق واجتماعي يمكن التعامل والتعايش معه ببساطة.

- معك حق. لذا تراني أحتفظ بعلاقتي به دون غيره من بقية أقاربي الآخرين.
- هل هو ابن عمك حقيقةً أم قريبك من بعيد؟
- هو ابن عم والدي، لكننا كنا قد عشنا فترة طفولتنا معاً إلى أن فرقتنا الأيام والأعمال.
- منذ متى وأنت تقيم في هذه المدينة سيد سعد؟
- منذ أن غادرت بلدتي حيث تابعت دراستي الجامعية.
- منذ ذاك الوقت؟
- نعم.
- ألم تتزوج سيد سعد؟
- تزوجت مرة واحدة وفشلت ومنذ ذاك الوقت عاهدت نفسي على عدم تكرار ذلك.
- لم فشلت بذلك؟
- لعدة أسباب.
- أهمها؟
- ما يقع فيه معظم الشباب من شاكلتي ولهم نفس ظروفي وواقعي.
- أحببت فتاة غنية أليس كذلك؟
- نعم.
- لماذا لم تتأقلم معها؟
- لم أستطع ذلك.

- لماذا؟
- لأنني عنيد بطبعي بالإضافة لما كنت قد تلقيته من تربية سابقاً كانت قد كونت وشكلت نفسي وطريقة تفكيري. حيث كنت أرفض الرضوخ لامرأة مهما كانت الأسباب.
- لم حدث ذلك؟ ألم تستطع تفهم ذلك هي؟
- لا لم تستطع رغم كل محاولاتها لتغيير طريقة تفكيري.
- ألم تسع أنت وتساهم في ذلك؟
- لم أقدر لكنني وبالرغم من أنني كنت وفي قرارة نفسي أريد ذلك بل ارغب به.
- لماذا لم تقدر؟
- لأنني كلما أقدمت على ذلك كانت تخرب كل شيء بتصرف شاذ من تصرفاتها لذا كنت ألغي ذلك بل صرت أزداد تصميماً على رأيي.
- كم دام زواجك هذا؟
- حوالي السنة ونصف السنة.
- ألم تنجب خلالها؟
- حملت بعد عدة اشهر من زواجنا إلا أنها أقدمت على إجهاض نفسها وعندها وقعت القشة التي قسمت ظهر البعير.
- انفصلتما؟

- نعم.
- لماذا لم تكرر ذلك حتى الآن؟
- لأنني لا أريد أن أمر بتلك الظروف التي كنت قد عشتها إبان ذلك.
- ليس كل النساء كزوجتك السابقة إذ أن المجتمع مليء بالفتيات المتزنات واللاتي يقدسن الحياة الزوجية.
- ولن أحاول مرة أخرى.
- اسمح لي أن أخطئك في هذا.
- معك حق. إذ أن هذا ما أشعر به بين الحين والآخر بالأخص عندما أتعامل مع أولاد اخوتي.
- شعور قاس بأن يحس المرء بأنه وحيد في هذا العالم.
- لذا تراني أسعى جاهداً لإقامة علاقات مع شرائح كثيرة في المجتمع فأسد ذاك النقص الحاصل في حياتي.
- تستطيع تغيير ذلك كونك لم تزل في كامل صحتك وقوتك وفي ريعان شبابك.
- قل في أواسط كهولتك.
- وإن كان ذلك فالكهولة هي قمة الشباب.
- وهل أستطيع أن أجد من تقبل وترضى بالحياة معي.
- تستطيع اللقاء بالكثيرات إن قررت البحث بشكل جدي.
- "إيدي بزنارك" قالها سعد بلهجته المحلية مع غمزة تنم عن مكر وعدم اقتناع.

- أنا لا أمزح يا سيد سعد وإن أردت مساعدتي في ذلك فأنا على أتم الاستعداد لذلك لأن معارفي كثر وأستطيع جمعك بأكثر من واحدة وفي أي وقت تريد.
- أشكر ثقتك هذه، لكني لا أفكر بهذا الأمر بتاتاً وبالأخص في الوقت الحاضر.
- لن ادعك وشأنك وسأتابعك حتى ألقيك في ذلك القفص لبقية حياتك، وستشكرني على ذلك.
- أشكرك سلفا ودون مقابل. ما رأيك بهذه القطعة من صدر الدجاجة؟
- شكراً لك من منظرها تبدو شهية.
- جربها ومن بعدها احكم.
- هاتها.....إمممممممم، إنها لذيذة جداً. شكراً لك سيد سعد.
- بالهناء والشفاء.
- شكراً جزيلاً.
- قل لي سيد شاهر كيف أمضيت حياتك كلها؟
- وضح سؤالك من فضلك.
- أقصد اي المبادئ اتبعت؟
- كل المبادئ التي تعرفها أو تعرف عليها.
- ألم تلتزم بمبدأ معين وقمت بتطبيق مفاهيمه؟
- لا.

- كيف؟
- كنت ومن خلال جولاتي التي سبق وذكرتها لك أتعرف على أناس ينتمون إلى أحزاب وهيئات اجتماعية وثقافية وكانت تعرض علي فرص الانتساب والالتزام بها وكنت لا أرفض ذلك بشكل قاطع، حيث كنت أقوم بالاطلاع على حيثيات ودساتير تلك الهيئات والأحزاب بحيث بتُّ أُلِمُّ بكل تلك التفاصيل حيث كنت أختار الأفضل منها والذي يناسبني بالدرجة الأولى، والذي لا يتعارض مع المحيط الذي أعيش فيه لذا تراني اشتراكياً وتقدمياً في الوقت ذاته متديناً وفي بعض الأحيان وجودياً.
- وهل تمارس طقوساً دينية؟
- نعم. ولكن ليس بالشكل الحرفي الذي قامت بفرضه هيئات كل دين أو مذهب.
- وهل تعتقد أن قيامك بذلك كاف لتعطي الخالق حقه.
- أنا أرضيه تماماً فأنا أنفذ أهم تعاليمه.
- ألا وهي؟
- أولاً أنا لا أشرك به ولا أؤذي أحداً ولا أرتكب أياً من المخالفات التي أنهت عنها كل الأديان.
- يعني هذا أنك ملتزم دينياً.
- بهذا المعنى وضمن هذه الحدود نعم.
- أيمكن أن يطلق غير ذلك من الأسماء عليك.

- نعم.
- كيف فسر ذلك من فضلك؟
- مثلاً أنا لا يمكن لأي شخص أن يلبسني ثوب ديانة او مذهب محدد ولمجرد النظر في هويتي. لأن كل أتباع المذاهب. حين يحتكون بي يجدونني إنساناً طبيعياً جداً لدرجة أنهم يحسبونني ممن ينتمون إلى نفس مذهبهم، وملتهم لذا تراهم يعاشرونني بكل سلاسة وبساطة دون أي عقبات أو حواجز كالتي تحصل عند التقاء أفرقاء ينتمون لمذاهب وديانات مختلفة. حيث كل شخص منهم يتمترس خلف تفاصيل صغيرة كانت قد نصت عليها تلك التعاليم لذا ترى من يدخل جواً غريباً عنه ويحمل تلك الصفات التي ذكرت، يجد صعوبة في البداية قد تزول إن لاقى شخصاً أو اشخاصاً متفهمين، أما إن صادف من يماثلونه بطريقة التفكير عندها تقع الطامة الكبرى.
- ألأجل ذلك رفضت ذكر ديانتك أمامنا؟
- أنا لم أرفض . بل قلت كل ما كنت أحس به واعمل لأجله.
- هل تعيش سلاماً داخلياً كما أنت؟
- نعم.
- ممتاز أن يجد الإنسان قناعة يلزم نفسه بها.

- وهل كنت تظن غير ذلك.
- نعم.
- كيف؟
- كنت أظنك مثل الكثيرين ممن نصادفهم في حياتنا.
- تقصد المتملقين الذين يسمون أنفسهم متفهمين؟
- نعم.
- أصحيح كنت تظنني كذلك؟
- في البداية نعم، لكن ما إن بدأت تفصح عن مكنوناتك أخذت فكرتي عنك تتغير تدريجياً.
- والآن؟
- أنا مقتنع تماماً بأن كل ما قلته كان يعبر عما يعتمر في صدرك وفكرك من أشياء.
- أحقاً ما تقوله؟
- نعم وبكل صدق.
- ممتاز أن تكون قد غيرت فكرتك عني وإلا كانت جلستنا هذه لم تؤت أكلها.
- لماذا، ألم نتعارف ونتصارح ونتبادل الفائدة؟
- نعم.
- كيف تقول أنها كانت ستذهب سدىً إن كانت قناعاتي هكذا؟
- بالنسبة لي أنا شخصياً وليس أنت.

- لم تصلني فكرتك.
- بالنسبة لي أية جلسة تعارف تتم بيني وبين اي شخص لا تكون خاتمتها مصارحة تامة وتفهماً كاملاً، أعتبرها راحت سدى رغم كل ما تكون قد تركته تلك الجلسة من فائدة.
- وأنا كذلك أعتبر معرفة الناس من المكاسب المتجددة.
- معك حق ولكن كم تكون أفضل لو أنها أفضت إلى فائدة فكرية وثقافية حيث توسع المدارك وتطور المفاهيم.
- ما قلته كان بشكل عام ولم أحدد ذلك بمنحى واحد.
- فهمت ذلك تماماً ولكن ذلك استوجب التوضيح مني.
- أشكرك على ذلك ولكن قل لي ما هو رأيك فيما سمي "الزواج المدني"؟
- هو من أوائل الأساسيات في منهج إزالة الحواجز والموانع التي تفرق بين البشر في كل مكان.
- وهل طبقت ذلك عملياً؟
- نعم.
- كيف؟
- من خلال زيجاتي المتعددة وكذلك فعل أبنائي حيث تزوج كل منهما شخصاً من غير تلك القيود.
- هل ما تقوله هو الحقيقة؟
- نعم.

- أنا أصدقك يا رجل ولكني فقط مندهش.
- لم تشعر بذلك؟
- كونك وبهذه السن وتحمل تلك الأفكار والأفضل من ذلك أنك قد طبقت كل ذلك عملياً.
- هذا ما كنت قد أطلقت عليه أنت بالسلام الداخلي.
- كيف أوضح من فضلك؟
- السلام الداخلي يا سيد سعد. لا يتحقق إلا عندما يقوم المرء بتنفيذ وتطبيق كل أفكاره على أرض الواقع. فبذلك يبعد نفسه عن ذلك الصراع الأزلي الذي يعيشه معظم الناس وبالأخص من تم وصفهم بالمثقفين.
- صحيح، لكن كل شخص في هذا الكون محاط بمجتمع يحاصره ويفرض عليه بل ويلزمه بتنفيذ شروط وتقاليد قد تكون في معظم الأحيان قاسية لشدة صراحتها.
- أنا لا أعترف بذلك.
- كيف وقد تصبح شاذاً بنظر من حولك؟
- لا أهتم بذلك إن كنت أحافظ فيما أقوم به من أفعال وتصرفات على إنسانيتي وحريتي الشخصية دون أن أسبب أي أذى أو جرح لمشاعر أي شخص كان.
- كيف يكون ذلك وأنت تخالف كل الأعراف والتقاليد؟
- أية أعراف وتقاليد يا رجل، دعك من كل هذا، لو أن الشعوب المتقدمة حافظت على ما ذكرت لكانت حتى

الآن ترزح تحت وطأة ما يسمى بالعادات والتقاليد. لذا وبموجب التطور العلمي الذي حدث. تطورت تلك المجتمعات معدلة ومحسنة هذه العادات وتجاوزت بعدها مفسحة المجال أمام مواطنيها كي يبدلوا من أسلوب حياتهم وهي أولى مراحل ودرجات الحرية.

- أتعني أن الإنسان لا يكون حراً إلا إذا عاش كما تقول؟
- أنا لا أضع دستوراً أو قانوناً، لكن ما قصدته أن الإنسان لا يكون حراً إن لم يستطع اختيار طريقه وفي الوقت ذاته بأن يحافظ على إنسانيته.
- كيف يستطيع ذلك، وهو يعيش ضمن مجتمع قائم؟
- عليه ان يكون قدوة لطيفة غير صدامية ليستطيع إقناع غيره ممن يعيشون حوله بهدوء.
- وإن تعرض لمشاكسات ومناكفات كالتي نعاني منها نحن المتعلمون؟
- عليه ألا يقف عند ذلك وأن لا يتأثر به والرد الوحيد الذي يجب أن يصدر عنه هو مثابرته على ما كان قد قرره وقام بتنفيذه لأن الإنسان بطبيعته كائن قابل للتأقلم والتحول لذا ترى معظم العادات والتقاليد يمكن تجاوزها بل يمكنك أن ترى وتلمس عدة أشكال منها ضمن المجتمع الواحد والذي يضم بين جنباته عدة أطياف دينية كانت أم مذهبية وعشائرية.

- تعني أنه بالإمكان فعل ذلك ببساطة كما تقول؟
- نعم، وأكبر دليل أنك تراني أعيش في ذات الوسط الذي تعيش فيه أنت.
- لا أدري كل ما تقوله منطقي لكنني أعتقد أن لتنفيذه يلزم صبر وأناة شديدين.
- نعم فالأفكار والمبادئ العظيمة يلزمها كثير من الجهد والمثابرة كي ترى النور وتظهر للعلن وبالتالي تصبح أمراً قد يعتاده الآخرون.
- تعني أن العادات والتقاليد ما هي إلا أفكار كانت قد طرحت وكرست وبالتالي تكون قد اعتاد عليها الناس، لأن العادة هي تكرار فعل معين ضمن وسك محدد ولفترة طويلة من الزمن تكفي لتجعل من ذاك الفعل أمراً عادياً يقوم الناس على تجربته وتقليده ببساطة وعلى السجية.
- تحليلك لهذا المر منطقي جداً
- هل درست علم النفس سيد شاهر؟
- ليست دراسة بالمعنى التقليدي لكنها مطالعة وإطلاع، لماذا تسأل؟
- لأنك ومن خلال كل تصرفاتك وردودك تلتزم منطقاً معيناً وهذا لا يتم إلا عند الذين يكونون قد دروسا واطلعوا على مبادئ فلسفية معينة.

- الفلاسفة الذين قاموا بوضع تلك المبادئ ما هم إلا أناس مثلنا، حللوا الواقع ومن ثم قاموا بوضع أفكار تلتزم المنطق، ألزموا أنفسهم بتطبيقها أولاً، أما الأفكار الخيالية والنظريات الجوفاء، فإنك ما أن تحاكيها حتى تتبخر تماماً دون أن تترك أي أثر يذكر، لذا ولتبقى وتترسخ الأفكار يجب أن تكون بالدرجة الأولى قابلة للتطبيق مهما كانت الصعاب التي تعترضها.
- لهذا السبب نجد بأن هناك عدة نظريات فلسفية قد حوربت ودمرت تماماً وبشراسة مذ انطلقت.
- ليست كلها فبعض منها حورب لأسباب سياسية كونها تعطل وتخرب سياسات اعتمدتها دولٌ عدة لذا تراها جندت كل قواها لضرب وتشويه وبالتالي نسف كل تلك النظريات ومعتنقيها، أما الحظ الكثير في ثبات واستمرارية تلك النظريات يأتي من اولئك المثابرين الذين ألزموا وجندوا انفسهم لتطبيقها، أما فيما يتعلق بالمخاطر التي قد تتعرض لها الأفكار والنظريات فيأتي من الداخل حيث يعمد بعض معتنقيها على تشويهها وحرفها فبذلك تحمل داء فشلها قبل أن ترى النور.
- معك حق في هذا إذ أن التطبيق العملي الخاطئ مقصوداً كان أم غير مقصود هو العدو الأكبر للأفكار.
- نعم تماماً، أليس كذلك.

- أنا أتفق معك.
- من أجل هذا يجب على المرء أن يلتزم المنطق بتطبيق أية فكرة كان قد اقتنع بها وإلا فشل وأفشل الفكرة ذاتها.
- صحيح فإن ما حدث ويحدث دائماً وسيحدث وبالأخص تلك الثورات التي قامت على مبادئ وأفكار عظيمة، ما تلبث أن تذوي وتزول فمن تولى قيادتها وتطبيق أفكارها عملياً قام هو بتشويهها ولأسباب عدة.
- تماماً لذا عملية حرق المراحل لن تأتي بالفائدة في معظم الأحيان لأن الإنسان وكما ذكرت سابقاً كائن عجن على التأقلم وفي الوقت نفسه لديه قدرة هائلة على التطور والتحول ولكن بهدوء إذ يلزم لذلك الوقت الكافي.
- تمام... خذ هذه من يدي.
- سلمت يداك.
- أهلاً وسهلاً سيد شاهر.
- ألم تشعر بالنعاس بعد؟
- كلا فأنا كما ذكرت أهوى السهر.
- وأنا كذلك.
- أصبحنا اثنين.. ها.. ها
- اسمح لي قالها وهو يغادر باتجاه المطبخ.
- خذ راحتك ، البيت بيتك.
- أليس كذلك؟

- نعم ولكن لا تتأخر.
- ثوان وأعود.
- بالفعل عاد وهو يحمل بين يديه صحناً صغيراً.
- تفضل سيد شاهر خذ ما تريد.
- يا سلام! ما هذا؟ لوز وبندق وكاجو!
- نعم.
- لم لا تحضر كل شيء وتضعه على هذه الطاولة وترتاح.
- لا هكذا أفضل لأن لكل جديد بهجة.
- معك حق لأن مفاجآتك هذه أسعدتني.
- ألست محقاً فيما أفعل.
- نعم فأنت إنسان بارع في إعداد المفاجآت "صحفي ياعم" قالها بلهجته المحلية.
- والكوارث والفضائح أيضاً.
- نعم ولكن ليس هنا في بلدنا فالصحافة لا تزال ملتزمة بعض الشيء.
- صحيح ما قلته إلا أن ما يقوم به ويفعله أولئك الدخلاء على هذه المهنة المحترمة والتي تعتبر السلطة الرابعة في كل مكان، وبالأخص أولئك من يسمون رواد ونشطاء الصحافة الصفراء، مما يقدمونه من تفاهات

وفـي أكثـر الأحيـان تجـاوزات قـد تخـدش الحيـاء العـام بحجة كشف الحقائق.

- نشكر الله بأن هذا لا يحدث هنا.
- هذا أيضـاً ينسـحب علـى كل مـا قلنـاه لأنـه وعندما يلتزم العـاملون فـي هـذا الحقـل المنطـق فـي عملهـم حينهـا لا يكون هناك حاجة لكل هذه المعوقات والضـغوط المطبقة علـى مـن يمـارس تلـك المهنـة حكـوميين كـانوا أم تـابعين للقطـاع الخاص.
- نعم يكون حراً عندما يطرح أفكاره بشكل منطقي وهادئ وبأسلوب أبعد ما يكون عن نبرة التحدي والصدام حيث يكـون وقـع ذلـك علـى أذن المسـتمع والقارئ لينـاً وحسـناً، وبالتـالي يجـد مـن يقتنـع بوجهـة نظـره، ولكـن بالمثـابرة والصـبر إذ أن مـا يقـع بـه أولئـك الصـحفيون مـن أخطـاء قاتلـة حيث بتنصـيب أنفسـهم أوصـياء، يفرضـون أفكارهم فرضـاً وبشكل فظ وفج. لذا ترى ردة الفعل السلبية علـى ما يطلقونه من أفكار مهما كانت تلك الأفكار عظيمة.
- معك حق، لأننا في كثير من الأحيان نقرأ مقالاً ما في إحدى الصـحف فـلا نجـد فيـه سـوى محاضـرة يقوم أسـتاذ بإلقاءهـا علـى تلامذتـه ويلـزمهم بحفظهـا وتطبيقهـا وإلا حرمهم من فرصة النجاح.

- من أجل هذا يجب تنظيم هذا المجال لأنه الأداة الفعالة والأساسية المتاحة لنشر الأفكار والمبادئ بشكل عام.
- نعم يلزم ذلك و الأهم من كل ما قلته يجب رفده بطاقات شابة يتم تدريبها أكاديمياً.
- هذا ما تم العمل به إذ بوشر بتدريب أولئك جامعياً.
- ممتاز فتلك خطوة جبارة.
- نعم فقد مل الناس ذاك الأسلوب القديم والتقليدي في الطرح.
- ألم أقل لك أن كل شي في هذه الحياة قابل للتطوير والتحديث؟
- نعم وإلا بقي هذا الشيء جامداً وساكناً على قارعة الطريق.
- نعم وإلا كان كذلك.
- ما هو رأيك فيما يخص تلك العلاقة بين الدين والدولة؟
- يجب أن يكون الدين دين الدولة وليس دولة الدين إذ أن المجتمع قد يضم بين طياته أقليات طائفية ومن ديانات مختلفة. فبذلك يكون من الجور أن يتم ذلك حيث سيتعرض حتماً المجتمع لحالات من الصراع الذي سيؤدي لتلك التفرقة القاتلة وبالتالي تلك الهشاشة التي ستؤول إليها البنية العامة لذلك الكائن.
- إذاً كيف تكون الدولة مقبولة حسب وجهة نظرك؟

- يجب أن تتصف بما يلي– أولاً ألا تستولي على السلطة بغير رضا الناس، ثانياً عدم إحاطة رجالات الدولة بهالة من القداسة، وعدم ممارستها القسوة في فرض مبدأ الطاعة المطلقة، وكذلك عدم سحق أي معارضة أياً كان طرحها طالما التزمت السلمية، بالإضافة لعدم السماح بظهور وبروز ظاهرة التملق وتدهور الأخلاق، حيث تتكدس الأموال بيد قلة من الناس والأهم من كل ذلك هو وضع أولئك أنفسهم تحت سقف القانون وتحت رقابة كل الأجهزة العامة. فبذلك تتحقق كرامة الدولة والمواطن معاً.
- معك حق، هذه الشروط بالإضافة لأشياء أخرى يجب أن تتم وتطبق بحذافيرها ليقوم ذلك المجتمع المتفاعل.
- أليس كذلك؟
- نعم ولكن كيف يجب أن تكون العلاقة بين الإنسان والدين بحسب مفهومك؟
- الدين: هو الفكر الواعي والخير الذي يندفع بالسلوك الإنساني نحو فعل الخير والموقف الصحيح، ولا يتم ذلك إلا عندما يصل الإنسان للوعي الكامل لحقيقة وجوده والوجود بشكل عام، وكذلك المراجعة الدائمة لكل سلوكياته معتمداً بذلك على العقل الواعي فطرية كانت تلك التصرفات أم مكتسبة، لأن الإنسان كائن اجتماعي

عامل يتطور مستفيداً من معارف مجتمعه وبيئته التي يعيش فيها.

- وهل يمكن لكل إنسان أن يفعل ما ذكرته؟
- نعم إذ لا يجب عليه أن يعتمد على ملكة الفطرة والعقل بمفرده متجاهلاً عواطفه، بحيث لا يحس بكل مظاهر الجمال والفن فيصبح كالآلة المبرمجة. وكذلك عليه عدم سلوك العاطفة والقلب فيتحول إلى كائن مسلوب الإرادة، إذ أنه يكون وفي أحسن حالاته حين يتبع سيرة آبائه وأجداده لذا وليكون إنساناً كاملاً يجب أن تكون كلتا الملكتين متعاملتين وبينهما علاقة جدلية.
- وهل يمكن إطلاق صفة واحدة على الفعل؟
- لا أبداً لأنه مصنف تحت ثلاثة عناوين: أولاً العقل الفاعل: هو المبدع الخلاق وهو ما يمتلكه ويتصف به الفلاسفة والحكماء وكذلك الشعراء، ثانياً العقل المنفعل: هو الذي يتبنى الحقائق كما هي ويتفاعل معها، ثالثاً عقل مفعول به: هو طاقة ذاتية واقعة تحت سيطرة وتأثير العاطفة والرغبة والغريزة وأصحابها يكونون ممن لا يهتمون بالحقائق إطلاقاً.
- إذاً يجب علينا أن نتبع المنهج العلمي والفلسفي لنكون أسوياء .. ولكن ألا يلزم ذلك إتباع سلوك معين؟

- نعم يلزمه القيام بأمور عدة وأهمها القراءة والتمكن من اللغة لما لها من أهمية في فهم حركة الحياة من كل جوانبها. حيث يتمكن المرء من الربط بين الزمان والمكان في سياق حركة التاريخ كون الزمن ما هو إلا لحظات حسية يحدد فيها الإنسان موقفه وفهمه لمجريات الأمور فبذلك يصبح التاريخ عبارة عن سلسلة زمنية في أمكنة محددة وكل ذلك يكون خاضعاً لقانون الحركة الدائمة والمستمرة إلى مالانهاية.
- أتعتقد ان الفعل تتغير صفاته حسب الزمان والمكان؟
- نعم لأن الأشياء لا تبقى على حالها مدى الدهر وإلا كنا لا نزال نحتفظ بالسيف والترس وتركنا موكب التقدم يجتازنا.
- ألهذا السبب نحن بحاجة لمجتمع علمي يربط جدلياً بين ما هو خارج عن مدار الإنسان وما هو ملموس مستفيداً من تجارب السلف وكذلك من يعاشرونه ويشاركونه مجتمع الضيق؟
- ولا تنس السلطة والتي يجب عليها اتباع نفس الأسلوب، بحيث تقر بحتمية التطور بشكل عام وبالأخص فيما يتعلق بالقوانين لتضمن حقوق أفرادها، وإلا تفشت تلك المظاهر السلبية وعلى رأسها الخيانة والكذب والتزلف والنفاق وغيرها من الصفات غير المستحبة.

- وهل ينطبق ذلك على الدين؟
- نعم إذ يجب أن يكون فهم الإنسان للدين على أنه فكر متطور ما دام الزمن، بذلك تنشأ الأجيال نشأة اجتماعية متطورة، فينعكس ذلك على سلوك الجيل بشكل إيجابي كون مداركه تكون قد تطورت بشكل عام، من طريقة كلامه حتى القيم وأهمها الأخلاق المهذبة للعادات والتقاليد المرسخة لتلك الصفات الإنسانية المتمثلة بالحب والعطف والرحمة، والتي تميز الإنسان عن باقي المخلوقات.
- هل للدين دلالات معرفية؟
- نعم، فهو يوضح علاقة الأضداد وتنافر الأشياء كالليل والنهار والحب والكره وكذلك الظلمة والنور وفي الوقت نفسه يضع المعرفة في خدمة الإنسان لذا تراه يبعده عن كل منغصات حياته كالظلم والقهر والاستعباد وتجاوز أهم ملكاته الإنسانية ألا وهي الحرية.
- وهل له دالة على ما ذكرت؟
- نعم فكل الأديان حرمت الاستعباد والاعتداء الجسدي وكل ما من شأنه أسر حريات الناس داخلياً أم خارجياً.
- هل صحيح ما يتم ربطه بالدين والفكر الديني؟
- من أية ناحية؟

- من جهة أن له الدور الأكبر في تجميد حركة الناس وقوقعتها ضمن مفاهيم محددة وبالتالي ما نراه من مظاهر التخلف في تلك المجتمعات الدينية.
- هذا ليس صحيحاً وإن كنت تلتمسه على أرض الواقع.
- كيف ذلك؟
- لأن التخلف له مفهومان: الأول اقتصادي والثاني ثقافي روحي، الأول يكون فيه المجتمع بشكل عام استهلاكياً لاهثاً وراء الحضارة والثاني يكون مشتت الآراء إذ تكون معظم
- ها قد انغمست في مجاهل الطقوس، راكضة تجتر أمجاد الأجداد لذا نراها تعيش حياة التبعية الفكرية والروحية.
- إذاً انحصر ذلك بظاهرتين تميزان المجتمع المتخلف عن غيره أولهما تلك التي وضعت نفسها في خدمة الحضارة والتقدم، والثانية فرض عليها القهر والاستغلال إذ تطفو طبقة فوق السطح مستغلة كل شيء للثراء وبأي وسيلة.
- تماماً بل أضف على ذلك ما يتركه كل ذلك من آثار سلبية على نفسية الإنسان.
- معك حق لكن أين وكيف؟
- الخلاص لا يكون إلا بالحرية كونها القيمة الإنسانية الكبرى والعليا، وهي المعيار الأساسي للإنسانية فهي

التربـة الصـالحة لإنتـاج إنسـان واعٍ، يكـون ذكيـاً ولاحقـاً لركـب الحضـارة حـاملاً معـه قضـية وطنـه ومجتمعـه، ليضـعه فـي درب التطـور بعيـداً عـن الأفكـار الجـاهزة عقائدية كانت أم سياسية، وبالأخص تلك التي تدعو إلى التطـرف الـذي يبعـد الإنسـان الحقيقـي ويعزلـه عـن الآخرين، لينحرف كمتعصب ديني جامد أو ثوري عدمي أجـوف، إذ كلتـا الحـالتين تشـكلان خطـراً حقيقيـاً علـى المجتمع.

- يا سيدي أنا وبحسب ما كنت قد رتبت حياتي عليه فإني أجد في التمذهب أياً كان منحاه دينياً أم فلسفياً اجتماعياً أم سياسياً يمينياً أم يسارياً كله من معوّقات حركة تطور المجتمع فالأول يرى المستقبل في الماضي والثاني يراه محدداً سلفاً وكلاهما يؤديان لنفس النتيجة.
- بهذا تقترب من مبادئي في الحياة يا سيد سعد، فأنا منذ زمن بعيد قد ألزمت نفسي بأمور عدة لدرجة أنها صارت عـادة بـأن أبعـد نفسـي عـن الانغمـاس فـي الهمـوم الشخصـية والتشـبث بالأفكـار الباليـة وكـذلك التواكـل، والأهم من كل ذلك التشبه بالأقوياء لذا تراني أعيش أفكاري تماماً قدر استطاعتي.
- أحيـي فيك روح المشاكسـة والتمرد العاقل وأشكرك فأنا سعيد جداً لارتياحك هذا.

- العفو ولكن قل لي ألم ننس أنفسنا تماماً؟ خذ هذه مني وناوله شوكة قد حملت بقطعة من لحم السمك.
- شكراً فأنت إنسان دمث ويمكن أن أطلق عليك صفة النديم.
- متى تفعلها؟
- في حينها.
- ليتها تأتي باكراً.
- إنشاء الله، ألم تشعر بالنعاس؟
- لا.
- أنا أعترف بحقوق الآخرين أياً كانت أفكارهم لذا لن أفرض عليك شيئاً لا تحبه.
- عن أي شيء تتحدث؟
- عن كل شيء بما في ذلك رغبتك في السهر أو النوم.
- أنت محق في طريقة تفكيرك هذه لذا دعك من كل هذا فعندما أشعر بالنعاس سأفعل ذلك ببساطة لذا لا تقلق.
- هذا ما أريده منك لأني رجل تجاوز الستين ومن يتجاوز هذا الحد تقل حاجته الجسدية للنوم.
- ما تفسير هذه الظاهرة الغريبة سيد شاهر؟
- سأشرحها لك فلسفياً وليس عضوياً.
- هات من فضلك.

- يا سيدي الإنسان منذ أن يطلق صرخته الأولى تبدأ معركته في هذه الحياة لذا تراه يخلد إلى النوم مسترخياً بين كل جولتي قتال أياً كان هدفها لذا يقوم دماغه ببرمجة ساعات نومه عكسياً مع تقدمه بالسن إذ كلما تقدم به العمر نقصت وقلت تلك الفسح كون ذلك ارتبط عضوياً بالمدة التي تأخذها تلك النزالات والحد الفاصل هو سن الستين.
- لم هذا السن بالذات؟
- لأن الإنسان آنذاك يكون قد قطع وتجاوز مرحلة الكهولة ودخل في مرحلة الشيخوخة لذا يصبح الوقت المتبقي له عبارة عن شاشة عملاقة، تكون قد ركزت على خلفية مخه شاغلة إياه دافعة به لمراقبة ومشاهدة ومتابعة كل مجريات حياته وحياة من حوله، لذا تراه يحس بأنه بأمس الحاجة لأكثر من ساعات يومه ليتمكن من الإحاطة بكل ذلك بهدوء وإيجابية لذا تراه يعتبر أية لحظة يخلد بها إلى النوم خسارة وبجميع المقاييس ولن تعوض أبداً.
- هكذا إذاً.
- نعم وهذا ما اعتقدته تماماً يعني أنه قد بقي لي خمس سنوات وأصل إلى هذا الحد الفاصل.
- تقريباً.

- ها ها لحين ذلك "فرج ورحمة" قالها سعد الدين بلهجته المحلية.
- إنشاء الله وإلى ما بعدها أيضاً.
- هذا سر الأسرار.
- نعم سر الأسرار الذي يصعب على أي شخص الوصول إلى كنهه ومفهومه.
- قل لي سيد شاهر، هل مرت المنطقة وهذا البلد بالذات لفترة استقرار عاش المواطن فيها هامشاً من الحرية مكنته من ممارسة حياته بشكل طبيعي؟
- نعم في فترة ما بعد الستينات هذا القرن وبعد تلك الحرب المجيدة حيث التفتت القيادة إلى الداخل التفاتة حسنت من كل الظروف إلى حين ما قام به حاكم مصر حيث خرق ذاك السد الهائل الذي كانت قد فرضته تلك الحرب في وجدان كل مواطن فما بالك بالعلاقات بين الأقطار كافة.
- ما علاقة ذلك بالذي قام به؟
- لأن ما حصل قد أثر على سير الأمور سلبياً بحيث حيكت المؤامرات وشاركت بها كل الجهات المعادية داخلية وخارجية لإشغال المواطن والحكومات وحرف نظرهم عما حدث.

- نعم صحيح ألم نعش تلك القلقلة والاضطرابات والتي كادت أن تهدم هذا البنيان المتراص؟
- حركة أولئك الأصوليين تقصد؟
- نعم.. فكم خسر البلد من جراء ذلك.
- نعم خسر الكثير وبالأخص تلك الطاقات العلمية التي راحت هكذا سدى.
- بل أكثر من ذلك، ألم نعش بكل أشكالها تصور لو أن مخططاتهم تلك كانت قد لاقت نجاحاً معيناً ما الذي كان سيحدث في هذا البلد وشعبه أجارنا الله شر تلك الفتنة.
- نعم لقد مررنا بفترات عصيبة جداً حيث أسس لشرخ المجتمع وتمزيق نسيجه الاجتماعي المتآلف.وأضف إلى ذلك كله ما حدث في لبنان حيث قامت تلك الحرب المجنونة والتي أزهقت أرواح مئات الآلاف من مواطني ذاك البلد وكل ذلك تم بتحريض من تلك الدول الكبرى وطفلها المدلل حيث جندوا أزلامهم ومرتزقتهم من عملاء الداخل.

- أتعرف بأني كنت قد أرسلت إلى هناك إبان ذلك بمهمة صحفية لأنقل وبشكل مباشر صورة حية عن كل ما يجري آنذاك من أحداث
- ألم تتعرض للمخاطر آنذاك

- نعم كثيراً ولكن القدر كان في صفي ونجاني
- وأنا كذلك فقد عانيت كثيراً وقتها حيث خسرت معظم ثروتي في تلك المعمعة
- صحيح فقد ذكرت ذلك سابقاً
- نعم
- هل كنت لم تزل هناك حين نصب ذلك الرئيس والذي كان قد قرر ترك الحكم عدة مرات
- نعم. فقد كان شخصاً عاقلاً ونظيفاً – إذ جيء به من سدة تلك المؤسسة المالية الحساسة في ذلك البلد وليوضع في قلب تلك المعمعة
- لقد عانى وذاق الرجل الأمرين إبان فترة حكمه وقتها
- صحيح لأن الممارسة التي يطلق عليها جزافاً ممارسة سياسية كانت جاهلة وخاطئة – فعلاقة الفرد بعالم السياسة متغيرة ومتطورة إذ كان قديماً يطلق على السياسة إنها فن حكم المجتمعات أو علم حكم الدول– أما الآن فقد أصبحت علماً يدرس أكاديمياً
- هل من يدرس علم السياسة يصبح سياسياً؟
- كلا قد يصبح موظفاً سياسياً لأن الإنسان السياسي يجب أن يقرن علمه هذا بالمعرفة الحقة والتي تعتمد على إحكام العلاقة بين السلطة والمجتمع وبين السلطة ومصالح الدول الأخرى

- هل يتعرض العامل في مجال السياسة لإشكاليات ؟
- نعم
- كيف؟
- إذاً كثيراً ما يتعرض العاملون في هذا المجال لعقبات من أهمها ذاك الذي يعاني منه غالبيتهم حيث يرون المشكلة واضحة وجلية، وفي الوقت نفسه لا يمكنهم وضع اليد عليها كونها قد تظهر بعدة وجوه وأشكال، من حيث الصراع بين الفرد والسلطة وكذلك النظرة القومية وتقسيم المجتمع إلى فئات عامة وأخيار، بالإضافة لما يتعرض له نتيجة لمزاجية البعض من العاملين في هذا المجال، وتأثير ذلك على العلاقة بين المجتمع والسلطة بشكل عام، مما يؤدي إلى ظهور وبروز عدة مظاهر سلبية، ومن أهم الأمثلة عليها تلك المظاهر البيروقراطية والتي تنتشر كالوباء في مجالات العمل السياسي وما ينتج عنها من سلبيات يتعلمها العاملون في المجال العام، ومن أهم تلك المظاهر فقدان الحس الوطني وعدم الاهتمام بالإبداع والتطور بسبب خوف المسؤولين على مناصبهم، مما يجعلهم يرضخون وبشكل أعمى لقادتهم بحيث تصبح الوظيفة مهنة، فبذلك تحدث تلك المتغيرات التي تجر كل بلد تحط فيه إلى الهاوية بخطى وئيدة، تشد خلالها حبل الذل حول رقبة المواطنين الذين

يبدؤون بمحاولات التأقلم مع كل المستجدات المتلاحقة، كونهم فقدوا حتى حس المسؤولية الوطنية حيث فرضت أجهزة السلطة قيوداً صارمة على كل شيء، بما فيه إبداء الرأي في أبسط مجالات الحياة.

- هذا ما يمر به كل مواطنو بلدان العالم الثالث.
- ليس بالضرورة، إذ هناك مجتمعات تنتمي لهذا التصنيف لكنها مارست الديمقراطية حسب مفهومها، وطبقتها على مواطنيها ومجتمعاتها بشكل عام، لذا ترانا نحس بأن مواطنيها يعيشون هامشاً لا بأس فيه من الحرية.
- صحيح، لكن هل تبقى حالات نادرة وسط هذا الكم من الانتهاكات لأبسط الحقوق الإنسانية.
- أجل ولكن إن كنت تظن أن ما يعيشه أولئك في هذه الأوساط بسيطاً وسهلاً فأنت مخطئ، فالأنظمة الحاكمة في معظم بلدان ذاك المحيط تسعى جاهدة لضرب هذا الحيز البسيط الذي يعيشه هؤلاء الهانئون بما استطاعوا تحصيله والمحافظة عليه.
- وهل تنجح تلك المحاولات؟
- نعم كثيراً ما تنجح في مسعاها، كون المغريات التي تقدم كبيرة جداً وضعاف النفوس كثر بحيث تسهل عملية شراء الذمم.

- يعني كما حدث هناك في أمريكا اللاتينية حيث قام العسكر بضرب تلك الحركة الثورية ووأدها في مهدها، حيث ذهب قائد تلك الحركة ضحية لأطماع أناس باعوا كل شيء.
- في النهاية المواطن الفقير المعدم هو الضحية والمكاسب تصب في جيوب وترصد في حسابات أولئك القادة.
- صحيح، كم من المجازر حدثت وأزهقت من الأرواح وكم من سجون ومعتقلات ملئت بأناس كل ذنبهم أنهم طالبوا بحقهم، ألم تسمع وتشاهد ما تبثه أجهزة التلفزة عن ما يحدث في كل مكان من هذه الكرة الأرضية؟

في هذه الأثناء ظهرت وأنا أفرك عينيّ.

- أهلاً بك هل استفقت يا سيد جاسر.
- نعم يا سيد شاهر وهل تتركون أحداً ينام فأنتم كما الناموس لا تنامون ولا تتركون أحداً ينام.
- سامحك الله يا رجل وهل نحن كذلك.
- نعم بل أكثر من ذلك لقد هربت من جدالكم هذا لكنه بقي يطن في أذني طوال الوقت.
- اقترب يا رجل وتابع معنا هذه السهرة اللطيفة.
- ألا تريدون أن تناموا؟!
- ما أطال النوم عمراً.
- إيه رحمك الله يا أم كلثوم!

- نعم لقد كانت نديمة لسمرنا في الأيام الخوالي.
- وهل كنت ممن يحيون تلك السهرات أسبوعياً؟
- نعم وكنا نجتمع يومياً لنجهز لسهرة الخميس حيث كانت تطل علينا "الست" بصوتها الصداح.
- هات من فضلك ناولني كأس بيرة.
- تفضل يا جاسر.
- شكراً.

ارتشفت منها بضع رشفات متتالية ومن ثم قلت: إيه يا سلام كم كنت عطشاناً!

- بالهناء والشفاء
- شكراً سيد شاهر
- هات خبرنا: لم استيقظت؟ ألم تقل أنك ممن اعتاد النوم باكراً؟
- يا سيدي ما الذي لأقوله لكم؟ أخاف أن يكون وقع كلامي سيئاً عليكم.
- لماذا وهل ستنطق بما يزعج؟
- كلا ولكن أخاف أن افهم خطأ.
- دعك من هذا يا رجل، قل كل ما عندك، فنحن أصدقاء وتجمعنا جلسة صفاء لذا لا ترتبك.
- اتركني وشأني حالياً حدثنا أنت عن تلك الظروف التي طرأت وأوصلتك إلى ما أنت فيه؟

- نعم لقد آن أوان ذلك– قالها سعد:
- بالفعل كي تكون معرفتنا كاملة كلٌ بالآخر – أكدتها .
- معكم حق.
- تفضل إذاً.

...

" يا سادتي ما إن استقر بي المطاف في البلد بعد أن غادر ولداي البلد. كل في اتجاهه شعرت بفراغ شديد كدت بسببه أن أتأثر نفسياً لذا قرر بعض من رفاقي السابقين أن يخرجوني من عزلتي ووحدتي. لذا بدؤوا يترددون علي في مكان إقامتي ثم ما لبثوا أن بدأوا يقترحون علي أن أخرج وأنضم إليهم بسهراتهم وأن أشاركهم حفلات مجونهم والتي كانوا يطلقون عليها إبان ذلك حفلات النسيان."

- النسيان؟
- نعم هذا ما كانوا يسمونها، كونها وحسب رأيهم تنسيهم ولو لفترة قصيرة كل معاناتهم إبان نهارهم.
- أية معاناة، وهل كانوا جميعهم ممن يكدحون في سبيل لقمة العيش؟

- بالعكس، لقد كانوا جميعهم ممن ركبوا الموجة السائدة ذاك الوقت حيث استغلوا صداقات كانت تربطهم ببعض رجالات الدولة المتنفذين، حيث احتكروا جلّ الامتيازات كأذونات الاستيراد والتصدير.
- كانوا يأكلون البيضة وقشرتها.
- نعم، بل وكادوا أن يأكلوا الدجاجة بأكملها.
- وبعد ذلك.
- بعد إلحاح وضغط شديدين من قبلهم، قبلت ورافقتهم وكانت تلك الخطوة الأولى في منزلق الهاوية.
- كيف؟
- يا سيدي كانت السهرة الأولى عادية جداً ككل السهرات في تلك المحلات حيث اقتصرت على احتساء بعض كؤوس الخمر ومشاهدة بعض مما تقدمه أولئك أشباه الفنانات من غناء ورقص.
- ما الخطأ في ذلك؟
- الأعظم كان في الآتي.
- ما الذي حدث لاحقاً؟
- حدث ما كنت أتحسب له وأحاذر الوقوع به، حيث بدأوا باستخدام تلك الفتيات ليشاركونا جلستنا التي بدأوا بتغيير مكانها بحيث صارت تقام في بيوت أولئك محدثي النعمة.

- ألم يكن ذلك أفضل من ارتياد تلك الأمكنة؟
- هذا ما حسبته في البداية.
- لماذا ما الذي لمسته لاحقاً؟
- بدأت تلك السهرات والجلسات كسابقاتها ثم ما لبثت أن تطورت إذ أخذ ينضم إلينا أناس لم أكن أعرفهم من قبل وكان من بين أولئك، نساء من الطبقات الراقية واللاتي كن يأتين بمفردهن وبدون أزواجهن حيث كان السائقون يقومون بإيصالهن ومن بعد ذلك يحضرون لأخذهن لاحقاً.
- لم كانوا يحضرون تلك السهرات بمفردهن.
- في البداية استغربت ذلك ولكن ما إن بدأت تلك الجولات من الألعاب والتي بدأت بمراهنات بسيطة على نتائج لعب الورق التقليدي والتي تطورت لتصير جلسات ميسر بكل ما تعنيه هذه الكلمة من معنى.
- ممتاز!! قالها سعد باستهزاء.
- نعم ممتاز.
- يا إلهي هذا أسوأ شيء ممكن أن يسقط فيه المرء فهي عادة ما تلبث أن تسيطر على فكر الشخص وتصبح عادة متأصلة كالإدمان تأخذ معها كل شيء من وقت المرء ختى ماله.
- تماماً هذا ما يحدث دائماً.

- عفواً، أعتذر على هذه المقاطعة، أكمل من فضلك.
- يا سيد سعد، لقد استغل بعض من حضروا حالة الوحدة التي كنت أعيشها وقت ذلك حيث بدأوا يضيقون الخناق عليّ وإشغال وقتي تماماً حيث بدأت أشعر وكأنني قد سلبت حتى إرادتي لدرجة بت معها لا أستطيع حتى الانفراد بنفسي ولو للحظات قليلة وما زاد الطين بلة، كما يقولون إن بعض النسوة بدأن يترددن عليَّ في منزلي بمفردهن وفي أوقات غير مناسبة حيث طبقن كل ما تختزنه عقولهن من دهاء ومكر لجر قدمي إلى مهاوي تلك المحرقة.
- أوضح ذلك من فضلك.
- حظيت بمادة دسمة نكتب عنها، أليس كذلك؟
- ما تقوله جدير بالاهتمام ويستحق الكتابة عنه والتنويه كونه يمس شريحة واسعة من مجتمعنا وبالأخص ممن ينتمون إلى تلك الأوساط.
- قد تكون محقاً. ولكن اصبر قليلاً لتسمع بقية القصة.
- لقد ذهبت بنعاسنا يا رجل فكل لحظة تتحفنا وتفاجئنا بنوادرك.
- ألهذا الحد يا سيد جاسر.
- نعم وكما سبق وقال ابن عمي أنت تحفة ومعرفتك كنز لا يفوَّت.

- أشكرك يا سيدي وعلى كل حال، لقد بدأت بعض من تلك النساء يحضرن إلى بيتي وفي أوقات مختلفة وتحت حجج عدة تمكنّ من استدراجي إلى بيوتهن وهناك حدث ما لم يكن في الحسبان.
- ما الذي حدث، بدأت تثير فضولي.
- انتظر يا رجل ولا تكن عجولاً.
- يا سيدي أنا أعتذر للمرة الثانية.
- فوجئت هناك بأزواج تلك النساء يجلسون على الطاولة وكأنهم غرباء لا يهمهم ما تقوم نسائهم به من حركات وتصرفات، شيء يثير في النفس كل ما يخطر ببالك من مشاعر.
- اروي لنا بعض من تلك التصرفات.
- ها ها حاضر يا سيدي أعرف بأنني لا أستطيع أن أنسى أنك صحفي.
- يا سيدي الكريم ما ترويه هام جداً لأنه يتكرر في كل زمان ومكان وإن كان بأشكال مختلفة.
- نعم لأن أذهان أولئك دائماً تتفتق عن أساليب يعجز الشيطان عن إبداعها.
- ألم أقل لك.
- نعم..

" ذات مرة ونحن في غمرة اللعب. قامت صاحبة المنزل على كرسيها الذي كان بجواري وبعد ان لكزتني بركبتها غادرت باتجاه المطبخ وبقيت هناك. انتظرت برهة من الزمن ومن بعدها اعتذرت وتبعتها بحجة قضاء حاجة وبينما كنت أمر من أمام باب المطبخ شاهدتها تقف وبيدها زجاجة ماء أشارت لي بالدخول. عندها قصدت الحمام لبرهة وعدت خلسة إلى حيث كانت تقف، عندها وضعت الزجاجة على طرف المجلى وسارعت بضمي بشغف وهي تهمس بأذني قائلةً.

- احذر سعاد هانم وزوجها– سألتها لماذا قالت:
- إنهم يدبرون لك مكيدة تخسر من جرائها كل مالك."
- بارك الله فيها لقد نبهتك إلى ما كان يحاك لك.
- هذا ما ظننت في بادئ الأمر.
- ما كان هدفها إذاً؟
- بفعلتها هذه يا سيد سعد شتت ذهني وبسبب ذلك خسرت كل ما كنت قد جلبته معي من نقود وكان الفائز بكل ذلك زوجها.
- كيف؟
- تبين لي من تلك الحركة أن هناك مؤامرة بين الشخص الذي كان يقابلني وبينهم وبذلك وقعت في ذلك الكمين.
- ما الذي فعلته بعد ذلك؟

- قررت الانتقام من كلا الطرفين.
- الانتقام؟
- نعم يا سيد جاسر لأني شعرت بالغبن من جراء ذلك.
- وهل نفذت ما كنت قد قررته؟
- نعم ولكن كانت النتيجة عكسية إذ كانت وبالاً علي.
- وبالاً وبالاً..!
- نعم وبكل ما تعنيه هذه الكلمة من معنى.
- كيف فسر لنا.
- يا سادتي لقد قمت بدعوتهم إلى منزلي وكنت قد رتبت أمراً مع أصحابي المقربين ممن لديهم الخبرة في هذا المجال – وكان فحواها أن نقوم بالاستيلاء على كل أموالهم ولو بالخديعة.
- وهل حققت ذلك.
- نعم وبكل بساطة حيث غادروا دون أن يشعروا بشيء وكأن شيئاً لم يكن– بعد أن قاموا بترتيب لقاء آخر في أحد المنازل.
- وهل ذهبت؟
- نعم
- ألم تحسب حساباً لم قد يكونوا قد رتبوه لك انتقاماً لما كنت قد فعلته ؟

- لا لم أحسب لذلك اي حساب وهذا ما أدى لانزلاقي في تلك الهاوية.
- هاوية؟
- نعم هاوية سحيقة لا خروج لمن يقع بها– وإن استطاع ذلك يكون حاله ربي كمن خلقتني.
- وضح ذلك من فضلك؟
- قبل أن نبدأ جلسة الورق قام أصحاب المنزل بتقديم شراب لكل الحاضرين وكان شكله ولونه غريباً عليّ، استفسرت عن محتواه أجابت تلك السيدة بأنه شراب الأناناس الطبيعي وقد حضرناه هنا في المنزل– تذوقت رشفة منه – وجدته لذيذاً وبالأخص ذلك الثلج المبشور الذي يغطي وجه الكأس.
- إنه شراب لذيذ ما الغريب في ذلك؟
- ما كان قد حدث لاحقاً.
- ما الذي حدث؟
- بعد الرشفة الأولى – لا تستطيع أن تتوقف لذلك تكررها ثانية وثالثة كون ذاك الشراب كان الذ شراب كنت قد تذوقته في حياتي وكان من جراء ذلك أن شعرت بنشوة عارمة دفعتني أنا ومن معي لأن نطلب المباشرة باللعب ومن دون أي تأخير.

- وبدأت جولات الربح المتتالية والتي لم أكن أعلم كيف تحدث وتصير وفي أي شكل تنسق- بقيت هكذا- إلى أن استفقت حيث كنت في فراش شقيقة صاحب المنزل ونحن الاثنان عراة تماماً. عندها فاجأتنا طرقات قوية على الباب الذي انفتح على مصراعيه تحت ضغط من كانوا خلف ودخولهم وكانوا جمهرة – من أناس لم أكن قد التقيتهم سابقاً بالإضافة لبعض ممن كانوا قد حضروا سهرة الليلة الماضية عندها هجم صاحب المنزل علي وهو يشهر مسدسه صائحاً ومتوعداً بالانتقام لشرفه- ولولا تدخل بعض من الحضور لكان قد قضى علي في حينها.
- الحمد لله على كل حال ما الذي حدث بعد ذلك.
- تقدم أحد الموجودين وسحبني جانباً حيث همس في أذني بينما اقتاد بعض منهم صاحب المنزل خارج الغرفة.
- ما الذي أسره لك ذاك الشخص؟
- قال لي جامله- ووافق على كل طلباته وأنا أتكلف بتصحيح كل شيء فيما بعد.
- ارتبكت بعض الشيء من كلام ذاك الرجل في البداية ولكن الظرف الذي كنت فيه فرض علي الموافقة- على كل ما كان قد طلبه ذاك الرجل الهائج.

- ما كانت طلباته؟
- أن أتزوج أختـه فـي الحـال سـتراً لهـذه الفضـيحة- وكـان جـل مـا أثـار اهتمـامي حينهـا موقـف أصـدقائي الـذين كنـت قـد أحضـرتهم معـي إذ كـانوا فـي صـف صـاحب المنزل ضدي.
- صحيح أين اختفى أولئك؟
- فـي البدايـة حسبتهم كمـا ذكرت لكنهم كـانوا قد تعرضـوا لمؤامرة تشبه مـا حصـل لـي ولكن بشكل مختلف حيث استفاقوا ليجدوا أنفسهم قد بصموا علـى شيكات وبمبالغ كبيرة جداً وكان شرط إعادتها ابتعادهم وتواريهم لفترة.
- لم كل تلك الإجراءات؟
- كي تحاك المؤامرة بشكل جيد يا سيد سعد.
- كم هم دهاة أولئك القوم.
- لم يكونوا دهاة لكنهم كانوا أنذال وفي غاية الخسة حيث اتبعـوا معـي أسـلوباً لا أخلاقيـاً ليصـلوا إلـى مـآربهم- إذ أنهم لو طلبوا مني مؤخر صداق لكنت قد أعطيتهم إياه مهما كان كبيراً دون الحاجة لكل تلك المؤامرة الدنيئة.
- وبالمناسبة كم كان مؤخر الصداق هذا؟
- مبلغـاً كبيـراً يعـادل نصـف ثروتـي أي مـا يعـادل كـل رصيدي في بنوك لبنان تقريباً.
- لماذا حددوا ذلك مما كنت ترصده في لبنان؟

- لـم أكـن أعـرف فـي البدايـة السـبب كـون ذاك الشـخص الذي كان قد همس في أذني سابقاً هو من فرض ذلك وأصر عليه– مع غمزات بين الحين والآخر– أي اقبل.
- وهل وافقت هكذا دون أن تتأكد من أنه سيوفي بوعده؟
- نعم حيث راودني شعور داخلي بأن هذا الرجل صادق فيما قاله لي لذا وافقت دون تردد.
- كم أنت متسرع يا رجل.
- تستطيع وصفي بذلك يا سيد جاسر.
- لـو كنـت مكانـك لمـا كنـت سـأوافق إطلاقـاً– بـل كنـت سـأجلس بتعـالٍ وأفرض شـروطي كـوني الطـرف الأقـوى في هذه المعادلة.
- مـا تقولـه قـد يصـح فـي الحـالات العاديـة أمـا فـي مثـل حالتي ووضعي الاجتماعي– لم يكن ذلك سهلاً.
- وما علاقة ذلك؟
- لــه كــل العلاقــة إذ أن ســمعتي ومركــزي الاقتصــادي والاجتماعي كانت ستتأثر سلباً.
- لا أدري لكن ما جرى كان قاسياً.
- نعم كان قاسياً جداً إلا أنه ليس باليد حيلة.
- كيف تمت الإجراءات إذاً؟

- في نفس اليوم تم عقد قراني على تلك الفتاة وغادرنا إلى أحد المناطق السياحية المجاورة للأراضي اللبنانية– لقضاء ما يسمى بشهر العسل.
- إلى الزبداني أم بلودان؟
- إلى الزبداني.
- وبعد ذلك؟
- بعد أن أمضينا ثلاثة أيام هناك تلقينا دعوة من قبل ذلك الشخص الشهير الذي كان قد رتب وأنهى كل تلك المشكلة لقضاء بضعة أيام في ربوع لبنان بعد أن جهزنا أنفسنا حضرت سيارة لبنانية فاخرة أقلتنا إلى لبنان حيث نزلنا ضيوفاً على ذاك الشخص وفي إحدى قصوره هناك والشيء المستغرب أننا لم نتعرض حتى للسؤال خلال سفرنا لا في الأراضي اللبنانية ولا في أراضي بلدنا، إذ كانت تلك السيارة تمر على كل الحواجز الأمنية بسلام وكأن شيئاً لم يكن.
- كيف ذلك؟ أين اختفت كل تلك الإجراءات التي كانت تتم على الطرق؟ وبالأخص هناك في المناطق الحدودية في تلك الفترة حيث نشطت تلك الحركات الأصولية والتي عاثت في البلد فساداً وتخريباً.
- وقتها لم أفهم ذلك ولكن فيما بعد تبين لي أن هذا الشخص كان ممن أقاموا صلات قوية مع أجهزة الأمن

هنا وارتباطات بأشخاص متنفذين في لبنان، عرفت بعد ذلك أنهم من القادة هناك والذين لم يزالوا يسيطرون على قوى شعبية وحزبية هناك حتى الآن.

- لم قام بكل ذلك؟
- " يا سيدي عندما وصلنا إلى تلك المنطقة الرائعة من مناطق لبنان الأخضر، خصص لنا ذاك الشخص منزلاً ريفياً صغيراً يطل على ذاك السهل البديع، حيث أمضينا يوماً وبعض اليوم ومن بعدها فوجئنا بمجموعات مسلحة تطوق المنزل الذي كنا نسكنه. ودخول تلك المجموعة علينا حيث اقتادونا بعد أن عصبوا عيوننا إلى مكان مجهول تركونا فيه بضع ساعات في غرفة مظلمة، راودني شعور وقتها بأني لن أتمكن من رؤية بلدي وأولادي وأصدقائي بعد ذاك الوقت إلا أنه بعد ذلك حضر بعض ممن أحضرونا إلى هذا المكان واقتادوا من صارت زوجتي بعد أن قام أحدهم بصفعها بقوة وهو يكيل لها سيلاً من الشتائم البذيئة، وتابع كلامه قائلاً:
- هل كنت تظنين بأنك لن تقعي في يدي مرة ثانية أيتها النصابة؟
- صرخت حينها قائلاً:
- لم تتهم زوجتي بذلك أيها السيد.
- دعك من هذا الكلام أيها المغفل.

- مغفل؟
- نعم مغفل كبير إن كنت لا تعلم.
- لم تقول ذلك يا رجل، أنا إنسان لي مكانتي وسمعتي في هذا البلد وفي بلدي أيضاً.
- كنت كذلك.
- كيف كنت؟ أنا لم أزل كذلك إن كنت لا تعلم.
- أعلم كل شيء وإن كنت تظن نفسك بأنك رجل لا تهزم فأنت مخطئ. "

- وهل تعرضت للهزيمة وقت ذلك كما ذكر ذلك الرجل؟
- نعم.
- كيف؟
- لقد وقعت ضحية مؤامرة أفقدتني كل ما كنت أملكه في لبنان.
- كيف؟
- وقتها علمت بأنني كنت قد تنازلت عن كل ذلك أثناء تلك الغفوة المشؤومة.
- كيف حدث ذلك؟
- لقد تم أخذ بصماتي على سندات نصت على تنازلي عن كل ما كنت أملكه في لبنان.
- هل فعلوا ذلك حقاً؟

- نعم كوني طلبت من ذاك الشخص أن يطلعني على تلك الوثائق.
- وثائق؟
- نعم كانت هناك أكثر من وثيقة إحداها عقد القران والذي تضمن كل ما ذكرت ولكن الأهم من كل ذلك ما كانت زوجتي قد فعلته.
- ما الذي فعلته ثانية؟
- قامت بالتنازل عن كل ذلك لشقيقها والذي تنازل عن كل شيء بدوره لأولئك الأشخاص.
- لم فعلوا كل ذلك؟
- لينقذوا أنفسهم من عدة أحكام كانت قد صدرت ضدهم بتهمة النصب والاحتيال وغيرها من موبقات.
- كيف تأكدت من صحة كل ما كان قد قاله ذاك الرجل؟
- " لقد كذبتهم في البداية بل اتهمتهم بالمراوغة إلا أنهم اقتادوني إلى مكان يقع في الطابق العلوي من المكان الذي كنا نحتجز فيه حيث تيقنت من صحة كل ما كان قد أورده لي، عندها قلت لهم:
- والآن ما هو موقفي أنا؟
- أنت خارج هذه اللعبة- إن أردت المغادرة عليك أن تنسى ما كنت تملكه هنا في هذا البلد.
- بهذه البساطة؟

- إن أردت أن تسلم– لذا قرر ما أنت فاعله في هذه اللحظة. "
- هكذا كلموك؟
- نعم وبكل تلك الصراحة يا سيد سعد.
- وهل قبلت ورضخت؟
- نعم لأنني صاحب تجربة مع أمثال هؤلاء.
- كيف عدت إلى البلد؟
- عندما قبلت بما فرض علي، حضر ذاك الشخص الذي رتب لكل ما حدث واستحصل مني على وثيقة تمكنه من القيام بكل الإجراءات لاحقاً فبذلك صرت حراً لكن بعد أن خسرت ما خسرت من أرصدتي.
- رغم كل ذلك أنت كما قلت لم تزل تحتفظ برصيد مقبول في فرنسا؟
- نعم ولكن ما كان قد حدث لي في الفترة الخيرة أثر على نفسيتي سلباً بحيث اعتزلت الحياة الاجتماعية تماماً.
- لم كل ذلك؟ ألم تتعرض لأقسى من ذلك سابقاً؟
- نعم ولكن لم يكن كل ما تعرضه له سابقاً بهذه الخسة.
- كيف عدت إلى طبيعتك لاحقاً؟
- يا سيدي الكريم في تلك الفترة تمت عدة تفاهمات أفضت لاتفاقات بين بلدنا وحكومة ليبيا أدت لتسهيل عمل واستثمار بعض المشاريع هناك وبناء على نصيحة

بعض ممن أرادوا لي الخير من اقرب أصدقائي قمت وإياهم بتحويل كل ما كنت أدخره هنا إلى هناك، حيث أسسنا لعدة شركات كانت بمجملها ناجحة ورابحة، وخلال فترة بسيطة تمكنت من تعويض كل خسائري في السابق تقريباً.

- ممتاز! ها أنت تستطيع تخطي كل العقبات والانتكاسات بسهولة دائماً.
- نعم ولكن ما حدث لاحقاً لم أكن أتوقعه نهائياً إذ كان لمزاجية ذاك الحاكم المتقلبة والمباغتة الأثر الكبير في كل ما أتى بعد ذلك، حيث أصدر عدة قرارات منع بموجبها إخراج الأموال من ذاك البلد حيث تأثرت كل مشاريعنا هناك لذا وكبقية من كان يعيش هناك لجأت وبعض من شركائي إلى أشخاص يعملون في شركات أجنبية كانت قد استثنت من تلك القرارات بحيث أودعنا لديهم أموالنا على أن نقوم باستلامها من بلد المنشأ ناقصة نسبة معينة مقابل ذلك وكان من سوء حظي أني لجأت إلى شركة تركية كان يعمل في تعداد ملاكها أشخاص فقدوا كل شعور وحس إنساني، حيث قاموا بإقناعي بذلك بعد أن كانوا قد نفذوا عدة عمليات ناجحة حيث وثقت بهم وسلمتهم كل ما أملك كوني قمت

بتصفية كل أصول وممتلكات شركتي وهنا كانت الضربة التي تلقيتها وكانت بكل أسف قاضية.

- لماذا ألم تستلم أموالك من تركيا؟
- كلا لأني وقعت ضحية لشركة نصب مثلي مثل الكثيرين، إذ أننا حتى الآن نتقاضا نحن والشركة أمام المحاكم التركية.
- ألم تلجأ لدوائر الدولة الرسمية هنا؟
- نعم وكان ردهم: القانون لا يحمي المغفلين.
- بعد تلك الصدمة القاسية قررت أن أغادر إلى فرنسا وأعيش هناك.
- وهل نفذت ذلك؟
- نعم.
- وكم أمضيت هناك؟
- حوالي أربع سنوات.
- لم عدت؟
- عدت بعد أن قام أحد أصدقائي القدامى بمراسلتي حيث طلبت مني العودة– كي نقيم بعض المشاريع هنا.
- وهل قمتم بذلك؟
- نعم.
- ما كانت ماهية تلك المشاريع؟

- كانت شركة كبيرة للاستيراد والتصدير وكانت جل أقسامها متخصصة بالمواد الغذائية وبعضها الآخر باستجرار قطع تبديل ومواد أولية لمصانع وورشات كانت قد أقيمت لاحقاً.
- وهل حققتم أرباحاً من جراء ذلك؟
- نعم ولكن لما صدر من قرارات منعت بشكل صارم إخراج العملات الصعبة من البلد حد من حرية حركتنا ونشاطنا.
- أين الغلط في ذلك؟
- لأنه لو سمح لنا وكنا أحراراً في إجراء التبادلات والتعاملات لكانت عائداتنا كبيرة جداً وحصة الدولة ستكون كبيرة كذلك لأن كل التعاملات في الخارج تتم بواسطة عملات عالمية وكان لإخراج أي مبلغٍ منها يحتاج لإجراءات مملة فرضتها تلك القيود الروتينية لذا تعثرت مشاريعنا وحدت من نشاط شركاتنا مما اضطررنا لتصفية تلك الشركة حيث تنازلت عن كل حصصي لشركائي الذين كانوا يحتفظون برؤوس أموالهم خارج البلد.
- يعني أنك حصلت على رأس مال يمكنك من تأمين حياتك بحيث لا تكون مضطراً لطلب المساعدة من احد حتى أولادك؟

- نعم ولكن الطامة الكبرى وقعت لاحقاً.
- أيـة طامـة يـا رجـل- مـا لـك- تفاجئنـا دائمـاً بجديـد مغامراتك؟
- أقصـد ذاك الحصـار القاسـي والجـائر الـذي تعـرض لـه بلدنا من قبل أولئك المتغطرسين وكذلك ما كان قد تم مـن إجراءات وتصـرفات قـام بهـا ضـعاف النفوس ممـن ائتمنوا على مقدرات هذا البلد حيث انخفضت فيه العملة المحلية بمقابل تلك العملة العالمية.
- لذا صار ما أملكه من مال كقيمة شرائية بما يعادل ربع قيمته فبذلك خسرت معظم ثروتي مما أثر في نفسيتي كثيـراً. وبـالرغم مـن محـاولات أولادي ومطـالبتهم إيـاي بالالتحاق بهم إلا أنني رفضت ذلك لأني وكما قلت لكم أحب هذه المدينة ولا ارغب في مغادرتها نهائياً.
- كيف تصرفت حيال ذلك؟
- قررت أن أعيش حياتي هكذا بهدوء ودون أية مغامرات مكتفيـاً بمـا كانـت تـرده علـي أمـوالي مـن فوائـد كـوني أودعتها إحدى البنوك وانزويت منعزلاً في بيتي منقطعاً تمامـاً عـن كـل النـاس والشـخص الوحيـد الـذي رفـض مفارقتي ولازمني رغماً عني هو ذاك الشخص الطيب أبو محمد.
- ذاك الذي التقيناه في الفندق؟

- نعم هو بذاته.
- كم هو وفي ذاك الإنسان!
- هو أكثر من وفي هو إنسان بكل ما تعنيه هذه الكلمة من معنى.
- نعم هو كذلك، لأن شخصاً غيره تعرض لما تعرض له لكان ترك كل شيء وغادر دون أن يلتفت خلفه، إنه عملة نادرة في هذا الزمن العجيب.
- نعم صدقت هو كما ذكرت.
- بالرغم من كل ما ذكرته فأنت كنت تعيش بمستوى لا بأس به يحسده عليك فئة كبيرة من الناس آنذاك.
- نعم ولكن كما سبق وقلت الناس لا تدع أحد يعيش كما يريد.
- لماذا ما الذي حدث ثانيةً؟
- بينما كنت أمضي فترة الأصيل في حديقة الفيلا خاصتي وكعادتي كنت أتصفح كتاباً مما احتوته مكتبتي وإذ بي أسمع وقع خطى على الممر – التفت لأجد امرأة من معارفي القدماء تتقدم نحوي بكل عظمة وهي تتأبط محفظة نسائية فاخرة ومن ورائها كان يسير أبو محمد حيث فتح لها باب الفيلا الخارجي.
- سلمت علي بكل كبرياء وجلست وعلى الفور بدأت حديثها بالعتب واللوم على مقاطعتي لهم والابتعاد عنهم.

- ومن كانت تلك المرأة؟
- كانت زوجة أحد معارفي الذين كنت قد عاملتهم سابقاً.
- وهل كانت وزوجها من شلة القمار تلك؟
- بالعكس تماماً فقد كانت هي وزوجها يلقيان اللوم علي ويعاتبانني لانخراطي في مثل تلك الأجواء.
- إذاً كانت من بيئة صالحة؟
- كانت كذلك ولكن ...
- ولكن ماذا؟
- لقد تفاجأت بالوضع الذي آلت إليه حالتي لذا أصرت على أن أزورها وأتردد على منزلها..
- وهل فعلت ذلك؟
- نعم، حيث اجتمعت عندهم بأناس لم أكن أعرفهم سابقاً.
- ما كانت طبيعة تلك الجلسات؟
- كانت في البداية اجتماعات عادية كالتي تحدث في صالونات المثقفين إذ كانت تطرح مواضيع عدة يتم البحث فيها وإيجاد حلول لمشكلات قد تكون عامة أحياناً.
- إذاً كانت جلسات ذات فائدة.
- نعم.
- ما الذي حدث بعد ذلك؟

- ما لبثت تلك الجلسات أن تحولت للقاءات مسائية حيث دارت كؤوس الشراب ومن ثم تطورت إلى جلسات ماجنة حيث ينزوي كل شخص إلى آخر لقي عنده بعض الراحة، وأيضاً ما لبثت أن تحولت إلى خلوات وفهمكم كفاية.
- ما الذي حدث، من فضلك قل لنا إلى أي شيء آلت تلك الحالة؟
- يا سيدي فوجئت في إحدى تلك السهرات بحضور عائلة مكونة من رجل وامرأة وثلاث صبايا كن في غاية الحسن والجمال والأناقة. جلسوا وسط ترحيب كل من كان حاضراً. استفسرت من صاحبة المنزل عنهم والتي قامت بدورها بتعريفي بهم حيث قدمتني لهم على أنني صديق قديم ومن ذوي الأملاك.
- كل ذلك طبيعي وبالأخص في مثل تلك الحالات كون تلك المجتمعات يحدث فيها ما ذكرت دائماً.
- نعم، لم أستغرب ذلك كون الانفتاح والحرية التي تعامل بها تلك الفتيات ووالديهم الجميع تدفع للراحة، وتزيل كل حاجز نفسي ممكن أن يقف في وجه من يرغب بالتعامل معهم لذا كان تعارفنا سهلاً، ومن بعد ذلك تعاملنا بسيطاً ما لبث أن صار حميمياً.
- حميمياً حميمياً..!

- نعم بكل ما لهذه الكلمة من معنى.
- ومع من أقمت تلك العلاقة؟
- سأذكر ذلك لاحقاً.
- تفضل أكمل من فضلك.
- في البداية أظهر كل من الأبوين والفتيات كل رصانة وعفة إلى أن تمكنوا من كسب ثقتي وودي والتي ما أن حصلوا عليها حتى بدأت تلك المؤامرة.
- مؤامرة ثانية يا رجل؟!
- نعم مؤامرة لأن أي تصرف ينتج عنه تدمير شخص يعتبر مؤامرة.
- هات حدثنا لقد أثرت فضولنا.

....

- يا سيد سعد، بعد فترة من الزمن ومن التعامل قامت تلك الأسرة بزيارتي في منزلي عدة مرات تلبية لدعوات كنت قدمتها لهم ولبعض ممن كانوا يحضرون تلك السهرات والجلسات في بيت أصدقائي، قمت بزيارة لمنزلهم بعد إلحاح رب الأسرة كثيراً وكانت برفقتي زوجة صديقي في زيارتي الأولى، وكان لما لقيته من حفاوة وحسن ضيافة عندهم الأثر الحسن في نفسي مما دفعني لتكرار ذلك عدة مرات فيما بعد، حيث اقتصرت تلك الزيارات على المجاملات والأحاديث العامة والجانبية وفي بعض

الأحيان بعض القضايا الاجتماعية، حيث أفضى كل منا كل ما يكتنز في نفسه من أحاسيس ومشاعر، فزال التكليف نهائياً فيما بعد لتصير العلاقة فيما بيننا أكثر ودية، وكان لابنتهم الكبرى الفضل الأكبر في ذلك لما كانت تملكه من صفات تشد الشخص المقابل إليها ببساطة، لهدوئها الظاهر ورزانتها ودماثة خلقها بالإضافة لتلك الثقافة وسعة الأفق الذي يدفع بالشخص الذي يتعامل معها للالتصاق بها وعدم الابتعاد عنها نهائياً، وكان لما كانت تقوم به من مبادرات تجاهي الأثر الكبير في أنها استطاعت الاستحواذ على كل وقتي وحتى على تفكيري، حيث كانت تسعى جاهدة للانفراد بي في زوايا قصية من أي مكان كنا نجتمع فيه.

- ممتاز! ها أنت مرة أخرى تحظى برفيقة رقيقة.
- نعم صحيح وكنت في غاية السعادة حينها.
- ما الذي استجد إذاً؟
- " ذات يوم وبينما كنت أقوم بزيارتهم كعادتي فوجئت بحضور كل العائلة إلى الركن الذي كنا نجلس فيه وكانت ترتسم على وجوههم معالم توتر تدل على أنهم قد عزموا طرح موضوع هام. لذا بادرت بسؤالهم قائلاً:
- خيراً إنشاء الله– يا سادة– لم كل هذا القلق والتوتر؟

- يا سيد شاهر جئناك بأمر نرجو أن تتقبله برحابة صدر قالها الأب.
- تفضلوا أفضوا بما لديكم، فكلي آذان صاغية.
- عندها انبرت السيدة بالكلام قائلة:
- يا سيد شاهر أنت تعرف أننا نعيش في مجتمع ضيق وكل شيء قد يفسره الناس على سجيتهم وحسب ما يرونه ويشاهدونه.
- كل ما تفضلت به يا سيدتي صحيح ومنطقي لذا أرجو إيضاح فكرتكم.
- يا سيد شاهر ألسنة الناس لا ترحم لذا نرجو منك أن تضع حداً لكل ذلك.
- أنا حاضر وجاهز لأي إجراء تطلبونه.
- نريد أن تكون علاقتك بابنتنا رسمية فبذلك تقطع على المتطفلين والفضوليين الطريق وتخرسهم تماماً.
- هذا أقصى ما أتمناه. لذا أنا تحت أمركم في كل ما تطلبوه.
- ممتاز، لقد أرحتنا يا سيد شاهر أراحك الله في الدنيا والآخرة.
- ما الذي علي فعله يا سيد احمد في الوقت الحاضر؟
- عليك أن تعلن خطوبتك من ابنتنا وعلى الملأ.
- أنا جاهز حددوا الموعد المناسب."

- ممتاز لقد خطوت خطوة جيدة أخيراً.
- نعم هذا ما كنت أظنه يا سيد سعد.
- لماذا وهل حدث ما يزعج لاحقاً؟
- نعم وبعد أن تم عقد القران وقدمت الفيلا لزوجتي كعربون محبة وبعد أن سجلت كل ذلك رسمياً، غادرنا أنا وزوجتي في رحلة عسل زرنا خلالها عدة دول وكان سفرنا براً، إذ بدأنا من تركيا مروراً بكل الدول الأوربية حيث وصلنا أستراليا بعد ستة أشهر، ومن هناك انتقلنا بحراً إلى معظم دول شرق آسيا حيث مررنا بأندونيسيا وماليزيا وكنا نمضي في كل بلد نزوره بضع أيام كانت مجملها من أيام العمر انتهى بنا المطاف في الهند، ذاك البلد الرائع حيث الطبيعة الخلابة والمتنوعة حيث امضينا هناك أكثر من أسبوعين، ومن ثم انتقلنا جواً إلى تركيا من حيث بدأت رحلتنا كانت مسيرة العودة بعد ان أمضينا بضع أيام على ضفاف تلك المضايق. وما أن وصلنا حتى بدأت تهل علينا أخبار السوء، حيث باع والد زوجتي الفيلا لشخص غريب لم أكن أعرفه من قبل وبعد الاستفسار تبين لي أنه قد سدد بثمنها ديناً لذاك الشخص بدلاً عن سند كان قد منحه إياه عندما خسر أمامه في إحدى جولات القمار.

- على أي أساس قام بذاك التصرف ألم تكن الفيلا باسم زوجتك؟
- فوجئت حينها أنها قامت بمنح والدها وكالة عامة قبل قيامنا بتلك الرحلة وبالسر.
- كيف فعلت ذلك؟
- كانت قد وقعت ضحية مؤامرة حاكها كل من والديها إذ كانوا قد رتبوا ذلك ليتصرفوا بما قاموا به لاحقاً.
- ما كان تصرفك حيال ذلك؟
- أصبت بصدمة كبيرة إلا أن ما كانت قد قدمته لي تلك الفتاة سهل وقع الأمر علي حيث قبلت بالأمر الواقع ومررت الأمر كونها أكدت لي عدم معرفتها بالذي حدث.
- وهل صدقتها؟
- نعم وما دفعني للاعتقاد بذلك إصرارها على طلب الطلاق محملة نفسها وزر ما قامت به عائلتها.
- وهل وافقت؟
- في البداية رفضت ذلك بشدة كونها إنسانة رائعة وممكن التعايش معها.
- ما الذي حدث إذاً
- ألحت بطلبها كثيراً وعندما لم استجب اختفت من حياتي نهائياً.

- أين ذهبت؟
- وقتها لم أكن أعلم، كوني بحثت عنها كثيراً وفي كل مكان ممكن ان تلجأ إليه دون جدوى، وكذلك فعل ذووها الذين أرادت من تصرفها هذا معاقبتهم كونهم قاموا بتدمير حياتها وهدم سعادتها.
- ما الذي فعلته إذاً؟
- انتظرت فترة طويلة ولكن دون جدوى..
- كم انتظرت؟
- حوالي السنتين.
- وبعد ذلك؟
- بعد أكثر من سنتين أرسلت لي رسالة من بيروت تطالبني بأن أطلقها.
- ألم تذهب إلى هناك لتقوم بإعادتها؟
- لم تكن قد أرسلت عنواناً لأن المظروف كان قد دون عليه رقم صندوق بريد فقط.
- ألم تراجع تلك الدائرة؟
- فعلت ذلك إلا أنها كانت قد غيرت عنوانها بعد تلك الرسالة.
- مشكلة حقيقية وضعك بها أنسباؤك الجدد.

- نعم لقد وضعوني وكذلك نفسهم بذات المأزق لأنهم عانوا الأمرين نتيجة لغياب ابنتهم، حيث تعرض والدها لأزمة قلبية كادت أن تودي بحياته.
- يستحق كل ما جرى له، أليس هو السبب بكل ما حصل؟
- نعم ولكن عندما رأيته في المشفى أشفقت عليه وسامحته.
- سامحته بعد أن سلبك أغلى شيء على قلبك بيت ذكرياتك وإرث والديك.
- معك حق ولكن بعد مرور تلك الفترة من الزمن تناسيت كل ما حصل واعتبرته ككل الانتكاسات التي تعرضت لها خلال مسيرة حياتي لذا تراني لا أفكر بذلك مطلقاً كوني كما أسلفت لقد برمجت عقلي وكل حواسي على تقبل كل مستجد والتأقلم مع كل طارئ قد أمر به لذا تراني هادئاً بارداً الأعصاب.
- أحسدك على طبيعتك هذه يا رجل، لأنني لو كنت مكانك لكنت قد تصرفت غير ذلك.
- ما الذي كنت ستفعله لو كنت مكاني؟
- كنت سأرتكب جريمة بحق كل تلك العائلة.
- وتدمر نفسك إلى الأبد؟
- ما قيمة حياتي بعد أن أكون قد خسرت كل ما أملك؟

- الإنسان وحسب قناعاتي هو من يضع ويجمع ويؤمن المال وليس العكس.
- معك حق ولكن مثل هذا العمل الخسيس وتلك الخيانة تفقد الإنسان عقله.
- أنا على عكسك تماماً أتقبل الأمر بشكل عادي وأعتبره سوء تصرف مني وأسجله في سجل أخطائي التي أعمل على ألا تقع لاحقاً.
- أنت عجيب يا رجل، بالمناسبة ما الذي تصرفته حيال زوجتك؟
- قمت بخلعها من حياتي إذ أرسلت صورة عن الحكم إلى ذاك الصندوق البريدي في بيروت ونسخة أخرى إلى أهلها كي يبلغوها بذلك إن تمكنوا من الاتصال بها.
- هذه حلقة أخرى من سلسلة حياتك الحافلة.
- نعم حلقة مميزة جداً كون خسارتي الفادحة ترافقت مع قمة سعادتي ومتعتي لأن ما لقيته على يديّ تلك الرائعة لم أكن لأنساه ما دمت حياً.
- ألهذا الحد كانت مميزة؟
- نعم.
- كيف تكون كذلك وهي ابنة ذاك الغادر؟
- معك حق ولكن الشوكة تلد وردة كما يقول المثل.

- نعم بهذا أنت محق إذ لا يجب أن يؤخذ الولد بجرائر والديه ولا الوالدين بأفعال أولادهم.
- أنا أخالفك الرأي في ذلك.
- كيف؟
- الولد قد لا يؤخذ بجرائر والديه لكن الوالدين يحاسبان على أخطاء أولادهما لانهما لم يقوما بغرس الفضيلة وحسن الأداء في نفوس أبناؤهم ليسيروا على الدرب الصالح.
- هذه حكمة أخرى.
- احفظها لأنها مفيدة
- نعم ليت جل الآباء يلتزمون بذلك لكنا قد قللنا تلك المظاهر السلبية التي نشاهدها ونتعرض لها في معاملاتنا اليومية.
- نعم ولكن من يلتزم بذلك قلة ونسبتهم تتضاءل مع تطور وزيادة تعقيدات الحياة وبالأخص في الأوساط التي تتعرض لضغوط مادية.
- هنا الطامة الكبرى فجُلُّ مجتمعاتنا تتعرض لتلك الضغوط المتزايدة اضطراداً مع زيادة جشع أولئك المتحكمين بخيوط اللعبة الاقتصادية، في مجتمع غابت فيه تلك الهيئات الناصحة والناظمة لكل ذلك، لذا نرانا نرى الحبل قد ترك على القارب حيث يقع الفرد ضحية

سهلة في براثن أولئك الشرهين، تلك الفئة التي لا أخلاق لها ولا قيم تردعها.

- صحيح– قالها مع هزة من رأسه.
- في أي الأعوام حدث ذلك؟
- في فترة الثمانينات.
- في أي الأعوام من عقد الثمانينيات.
- أولها تقريباً، حيث كانت مغامرتي الأخيرة.
- أية مغامرة؟
- عندما يئست من العثور على زوجتي وبعد أن طلقتها غادرت إلى بيروت، حيث قضيت فترة لا بأس بها هناك وبينما كنت أقوم بجولة في إحدى مناطق الجنوب، حدث ذلك الاجتياح المشؤوم. وقتها لجأت إلى بيت من بيوت معارفي هناك حيث شاهدت بأم عيني ما حصل من فظائع قام بها أولئك الغزاة وبالمقابل تلك الأعمال البطولية والمشرفة التي كانت تقوم بها فصائل المقاومة العربية بكامل تنظيماتها واتجاهاتها السياسية وكذلك منبتها كونها ضمت في صفوفها العديد من الشبان العرب من مشرق الوطن ومغربه وكان أهم ما شد انتباهي ووقفت عنده، تلك الثلة التي تمكنت من وقف ذاك الزحف في قلب الشقيق.
- وأنت ما الذي فعلته وقتها؟

- لبثت هناك حيث كنت، إلى أن حضرت مجموعة من المسلحين اللبنانيين المتعاملين مع تلك القوة الغازية، حيث قاموا باقتحام المنزل الذي كنت فيه واقتادوني مع كل من كان موجوداً آنذاك إلى مكان مجهول تبين أنه معتقل تشرف عليه قوات إسرائيلية هنا.
- وهل عذبوكم؟
- لقد أذاقونا الويلات وكان أقسى ما يطبق علينا ذاك الشراب الذي كان يفرض علينا احتساءه كل صباح، والذي تبين لاحقاً أنه شراب مسهل، حيث يتعرض السجين لأقسى أنواع الآلام والتي كانت تترافق مع موجات من الإسهال حيث يفقد المرء المقدرة على الوقوف.
- كم بقيتم هناك؟
- حوالي الشهرين.
- وكيف أطلقوكم؟
- لا أدري وقتها إلا أننا علمنا فيما بعد أن ما قامت به المقاومة من عمليات بطولية أجبرت العدو على الانسحاب وبالأخص من العاصمة، بعد أن كانت قد نفذت ما أتت لأجله ألا وهو طرد وإبعاد المقاومة الفلسطينية من لبنان حيث غادر المقاومون وقادوهم إلى تونس. وفي الوقت نفسه تبين لهم أننا لم نكن نعني لهم

شيئاً لذا تركونا بعد أن قاموا بسلبي كل ما كنت أملكه فبذلك عدت إلى بلدي ربي كما خلقتني. ومن وقتها أعيش هكذا كما تراني الآن.

- ألم تفكر بالسفر للالتحاق بأولادك؟
- في البداية نعم.
- وهل نفذت ذلك؟
- نعم لقد سافرت إلى حيث يقيم كل من ولدي إلا أنني ما أن أمضي بضعة أشهر حتى يبدأ الملل والشعور بالوحدة والعزلة تسيطر علي فكل شخص هناك همه الوحيد عمله ولا تجد من يجالسك ويسليك في وحدتك.
- ألم يرسل لك ولداك مساعدات مالية؟
- نعم في البداية فعلوا ذلك، إلا أنني طلبت منهم وقف ذلك كوني لست بحاجة لأن ما ترده علي تجارتي البسيطة هذه يكفيني ويزيد.
- وهل وافقوا على ذلك؟
- نعم وبالأخص عندما علموا بأني أقيم في فندق يشرف عليه ابو محمد.
- ألهذا الحد يثقون بذاك الشخص الطيب؟
- أكثر مما تتصورون كونهم عايشوه فترة من الزمن وخبروا سجاياه جيداً.
- وأقاربك، ما كانت ردة فعلهم؟

- لقد قاطعوني إذ ألقوا باللائمة علي في كل ما حصل معي وما آلت إليه حالتي.
- وأصدقاؤك؟
- لقد انفضوا من حولي باستثناء قلة منهم ممن ذكرت سابقاً حيث نتبادل الزيارات بين الحين والآخر كلما سمحت الظروف.
- ألم تحاول إقامة أي مشروع بالمشاركة مع من ذكرت؟
- لقد حاولوا كثيراً معي إلا أنني رفضت ذلك تماماً ونهائياً.
- لماذا؟
- لأني لا أريد أن أكرر ما مررت به سابقاً ، وما أقوم به من أعمال حالياً يكفيني كما قلت، وبنفس الوقت، لم يبق في العمر ما يستحق المغامرة.
- أطال الله في عمرك يا رجل.
- شكراً ولكن هذا لا يفيد فللعمر حقه.
- معك حق ولكن لو فعلت لكنت قد حسنت من شروط حياتك.
- أنا سعيد جداً في حياتي هذه وبالأخص تلك الرعاية التي يحيطني بها أبو محمد.
- جميل أن يجد المرء شخصاً وفيّاً كهذا الرجل الطيب.

- نعم فهو وأمثاله ثروة لا تقدر بثمن في هذا الزمن الرديء.
- صدقت فيما قلت.
- أليس كذلك؟
- نعم ولكن قل لي: ألم تسافر إلى لبنان بعد ذلك؟
- نعم بعد أن هدأت الأوضاع نسبياً لأنني أحضر هذه البضائع من هناك.
- وهل التقيت بزوجتك الأخيرة فيما بعد؟
- نعم أكثر من مرة.
- أين؟
- هنا في هذه المدينة.
- وها عادت لتقيم هنا؟
- نعم
- منذ متى؟
- بعد أن طلقتها ببضع سنين حيث استعرت تلك الحرب العبثية في لبنان.
- وهل تزوجت؟
- كلا.
- وكيف تعيش إذاً؟
- حالياً تشرف على روضة أطفال خاصة.
- ألم تحاول إعادة المياه إلى مجاريها؟

- لا .
- لماذا؟
- لأنني لم المس لديها الرغبة في ذلك.
- وهل كانت عندك رغبة في إتمام ذلك؟
- نعم.
- لماذا؟
- لأنني أكن لها كل الود والاحترام ولانني في غاية التأكد من أن حياتي معها ستكون سعيدة.
- خسارة ألا يتم ذلك.
- نعم خسارة ولكن ليس باليد حيلة.
- نعم أنت محق فالظروف تتحكم بنا في كثير من الأحيان.
- أجل نحن ضحية الظروف دائماً.
- هذه سنة الحياة قد تجري الرياح بعكس ما نريد ونشتهي في كثير من الأحيان.
- نعم وليتها كانت مؤاتية في هذا الأمر فقط.
- كما قلت ليس باليد حيلة.
- نعم هذا ما توصلت إليه وأقنعت به نفسي به وتعايشت معه .
- أهنئك مجدداً على مقدرتك هذه.
- كل شخص يستطيع ذلك كما ذكرت سابقاً إن أراد.

- نعم ولكن عند اختلاف الطباع تختلف التصرفات.
- هـذا صـحيح وإلا لمـا كنـا بشـراً.. هـات نـاولني تلـك الزجاجة يا سيد سعد.
- آه عفواً. لقد سـهوت عنـك كونـك شـددتني بحـديثك هـذا لدرجة أنني نسيت نفسي لذا إقبل اعتذاري.
- لا عليك يا رجل.. كأسكم.
- بالصحة والهناء.
- ألـم تنتهـي هـذه الجلسـة، ونخلـد للنـوم لـبعض الوقـت فالصبح قد أزف.
- معك حق.. هيا بنا.
- ألن نرتب ما كنا قد خربناه.
- لا دعوا كل شيء إلى الغد.
- لا يصح ذلك.
- أنا معتاد على ذلك لذا دعوا كل شيء على حاله.
- هكذا إذاً.. تصبحون على خير.
- وأنت من أهله يا سيد شاهر.

.....

بعد أن وصلتُ جاسر إلى القرية استحممتُ وصعدتُ سطح المنزل واستلقيتُ هناك حيث كانت جلستي المفضلة في مثل هذه الأوقات من السنة حيث تكون السماء صافية بشكل يثير كل المشاعر وبالأخص الدفينة منها.

نظرتُ إلى الأعلى وحدقتُ بكل شغف وقلتُ لنفسي:

" ما هذه؟ أهي نقط أم مشاعل أفلت جذوتها وما بقي منها بجهد ليثبت وجوده كعجوز هرم، حمل عصاه وأسند عليه إقامته منتصباً مدعياً أنه في عز شبابه وكل من عداه خرب العقل والجسد.

ألا تظنون ذلك كم من الزمن مر على ما أراه؟ وكم من الأقوام عبرت واختفت في عالم النسيان؟

هل سجلت ما رأته في ذاكرتها السرمدية أم دعته يمر هكذا مرور الكرام؟

ألم يثر فضولها شيئ؟ أتأثرت سلباً أم إيجاباً بما رأته؟ لا أدري

هل شهدت كل المآسي التي مرت على هذا الكوكب الخالد خلود الزمن؟

هل سجلت انتصاراتهم وانكساراتهم التي هي ذاتها؟ فما حدث يرى من عدة جوانب كون من ادعى الانتصار هو مهزوم لأنه فاز مرحلياً على ابن جلدته. وكذلك الخاسر فهزيمته أمام أخيه في البشرية.

هل سجلت ما كان يدور في تلك النفوس من كلا الطرفين؟ أحست بفرح المنتصرين المزيف وكذلك ذاك الحزن الدفين الذي كابده أولئك الذين مالت كفة الحظ لغير صالحهم.

ألاحظت ذاك الوجوم البادي على ملامحهم هم كلا الطرفين لما قاموا به من أفعال؟ وبالأخص أولئك الذين لم يزالوا يحتفظون ببقية باقية من شعور اقترب ولو قليلاً مما يسمى الضمير.

هل كانوا يطلقون على قتلاهم شهداء وقتلى الطرف الآخر موتى كما يحدث الآن؟

أكانت إنجازات أولئك المبدعين الذين قدموا للبشرية ثمرة عقولهم رافعةً إياهم إلى فضاءات الرقي والسمو. أم ركزت على تلك الوجوه الكالحة وكأن الدم الإلهي قد تسرب منها خلسة تحت جنح الظلام هاربة من أتون حرب ضارية نشبت حقداً على أولئك الناجحين.

أكانت تغريها بهرجات المجتمعات المخملية؟ أم كانت تفضل مراقبة تلك الجلسات اللطيفة والتي لم تكن تخلو من لحظات حميمية؟ قام بإفراغ عواطفه – شخص غمر قلبه حب عميق لآخر وجده مصادفة أمامه دون مقدمات وخصوصاً في ساعات السهر الدافئة.

هل أعجبت بما كان يفرضه حكام روما على سجنائهم؟ إذ كان أولئك القادة ينزلوهم إلى ساحات مسارحهم ليتصارعوا حتى الموت ومن يفز يقتل بأنياب وبراثن وحوش ضارية تم حبسها في إحدى زوايا ذاك المكان.

هل حضرت تلك المفاوضة الأسطورية بين الطبيعة الأم وهذا الكوكب كي يقبل في باطنه جسد ذاك القتيل الذي سقط على يد أخيه وفي أول عملية قتل ذكرت في عمر هذا الجنس من الكائنات الحية. عندما طغت غرائز داخلية على ما عداها من مكونات جسدية عند القاتل..

وكان ما قدمته من عروض مغرية كأن تلبسها حلة جديدة زاهية كل حول تتباهى بها أمام أخواتها في الطبيعة.

أشهدت ذاك اللقاء السرمدي الذي ولد جنساً فعَّل مخه لينتفض ممزقاً غشاء غلف به قسرياً لتتم المحافظة عليه حتى تحين اللحظة المناسبة والتي يكون فيها هذا المولود قد أصبح قادراً على اكتشاف كل خفايا وموجودات الكون ومن فيه.؟

أصحيح ما تناهى إلى أسماعنا عن ذاك المخلوق المسمى أنثى التي ما إن شبت وتفتحت بصيرتها حتى بدأت بالبحث عن نصفها الآخر دائرة في كل فضاءات هذا الكوكب بحثاً عن ضالتها؟ وما إن رأته حتى جلست في ظل شجرة مدعية اللامبالاة على أنها تختلي بنفسها مراقبة الطبيعة.

وكيف فعلت لتسلبه لبه ساحبة إياه خلفها كفاقد البصر والبصيرة في غابر الزمن ولم يزل حتى هذه اللحظة؟

هل دونت في دفتر ذكرياتها ما أنتجه أحفاد تلك الأنثى والتي باتت تدعى بالمرأة؟ أم كانت تميز بين ما قام به المميزون من أتباع الأمم الغنية وما تم تقديمه من قبل مماثليهم من أبناء الأمم الفقيرة؟

هل تابعت أقوال وأفعال أولئك الذين كلفوا بهداية أبناء جنسهم وكيف عذبوا وشردوا وهجروا؟ وبالأخص ما قام به أولئك الذين ادعوا تفضيلهم على من عداهم، رغم احترابهم فيما بينهم، ورغم وجود ذاك الحادي الذي قاد شتاتهم، مؤسساً لهم مملكتهم الأولى والتي ما لبثت أن تفككت إلى ممالك متحاربة فيما بينها، حيث وقعت فريسة لأطراف

أخرى بسطت سيطرتها عليها، لكن ولطبيعتهم وطريقة تفكيرهم التي ترسخت عبر الزمن ومن خلال تعاليم ألزمتهم بممارستها حتى عبر الدسائس والمؤامرات التي كانوا يحيكونها لكل من جاورهم ولم يزالوا يمارسونها حتى هذه اللحظة، لتقسيم المقسم وتجزيء المجزء لتسهل عليهم عملية السيطرة واستنزاف خيراتهم بكل الوسائل الممكنة، وما أن تتم السيطرة حتى تبدأ بنسب كل ما تم إنجازه عبر الزمن لهم هم وحدهم. حتى الكلام المنزل لم يسلم من عبثهم إذ قاموا بتحويره وتزويره ونسخه بما يتلاءم ومصالحهم، وكيف كانوا يزكون الخلافات لخلق صراعات ذهب ضحيتها الآلاف المؤلفة من البشر عبر الزمن ولم يزالوا يفعلون ذلك حتى يومنا هذا.

وقبل كل ذلك، هل استوقفت عند تلك المؤامرة التي حاكتها تلك الماكرة؟ والتي أشعلت حرباً بين قبائل أهلها دامت عشرات السنين طحنت العديد ممن شدتهم عصبيتهم لخوض حرب عبثية.

وأهم من كل ذلك، هل رأيت ما قام به ذاك الملك الجاهل الذي قرر توجيه فيلته في مقدمة جيشه لهدم البيت العتيق؟ وكيف تحدث القيم على المكان موضحاً أن ما يخصه من هذه المنازلة هو ممتلكاته أما البيت فله صاحب يحميه ويصونه.

هل رأيت حقاً تلك الطيور السماوية التي هاجمت الجيش المهاجم داحرة إياه بحجارتها الخارقة؟ والأهم من كل ذلك هل عاينت كيف قدم ذاك القيم ابنه كأضحية وهل افدي بأضحية أخرى دفع بها بأمر سامي المقام؟

أتابعت مكر أولئك وكيف أنتجوا عبر الزمن آلاف المبعوثين ليلتف حولهم الكثير من ضعاف النفوس؟ موسعين الشرخ الحاصل أصلاً في جميع الأمم داخلياً وبين بقية الأمم الأخرى.

هل أرضاك ما قام به ذاك القائد الذي قاد قبائله ليجتاح أراضٍ مجاورة؟ مستولياً على ما يسمى خلافتهم ليتقلدها ويحكم بها البلاد لأربع قرون ونيف كرس خلالها كل أصناف التخلف. مكتفياً بأمجاد شخصية عاش بنعيمها هو وحاشيته وأتباعه في كل المناطق، غاضاً الطرف عن كل ما قام به الأقوام المجاورة من قفزات في كل المجالات وبالأخص في مجال الصناعة، وما ترتب عنها من تفكير بالمواد الأولية والأيدي عاملة وبالتالي الحاجة لأسواق تصرف بها المنتجات. وكيف تآمرت تلك الأمم على ذاك الرجل الذي أصبح كهلاً مريضاً وكيف طردته من تلك البقاع متقاسمة تركته بمن فيها من بشر وحجر.

والأخطر من كل ما تقدم كيف قامت بتجميع أولئك المكرة من كل اصقاع الأرض، لتوطينهم في أرض ساهمت وإياهم بطرد أهلها وتشريدهم، وكيف لم تكتف بذلك بل قامت بإحاكة الدسائس بين فرقهم المتعددة، موقعة بينهم وبين أهالي وحكام الدول التي لجئوا إليها مشاكل أدت لقيام حروب جانبية عبثية أضعفتهم ومستضيفيهم. الأمر الذي أدى إلى إطالة أمد غربتهم وبالتالي عمر تلك الدولة المغتصبة.

ها.. ها أنت من المعجبين بتلك النهضة وذاك التقدم والتطور الذي كرسته الدولة المسماة متقدمة، مستغلة كل ما كانت قد نهبته من خيرات البلدان التي سيطرت عليها ولعقود عدة. رافعة من جراء ذلك مستوى معيشة أبنائها، ومزيدة من حدة فقر وحرمان شعوب مستعمراتها.

لله درك! وأنت تسكنين هذا الجزء من القبة مما يمكنك من مراقبة كل شيء، وبالأخص ما يحصل تحت ستار الظلام.. وفي هذا الخصوص أريد أن أسألك عن شي شغل بالي، وبالأخص عن أولئك العشاق الخالدين، كالقيسين، وجميل، وروميو، وغيرهم ممن شاع ذكرهم عبر الزمن.

هل كان عنترة أكثرهم شهرة كونه كان فارساً مقداماً؟ أم لأن لونه كان مغايراً؟ أم لا هذا ولا ذاك؟ بل لأنه ابن غير شرعي لوالد غني من زعماء عشيرته، أكان بهذه الشهامة التي ذكرت ولم تزل حتى يومنا هذا؟ أصحيح كان الفعل لأخيه والشهرة له؟

أكلُّ ما تم ذكره حقيقي؟ أي أنه قام بتحرير محبوبته وبقيت نساء قبيلته، هل ينتصر الحب في النهاية؟ أم هناك عوامل أخرى تلعب الدور الأول والأخير في ذلك كالمصالح الفردية لأولي الأمور؟ كما حدث مع فارسنا هذا حيث تمت الموافقة لتضمن الحماية لكل أفراد القبيلة.

وإلا، لماذا كانت نهاية روميو وحبيبته والقيسين كما وصلتنا قصصهم؟ هل أثارك أمر أولئك؟ أم كنت تهتمين بأمور أكثر عملية وجدية ؟ كإنجازات العلماء عبر التاريخ، والمصير الذي آلوا إليه كما حدث لغاليليو، أم أنك ترصدين كيف كان رجال الدين يتدخلون في عمل أولئك، ومحاولاتهم فرض سيطرتهم وآرائهم على نتاج ابتكاراتهم؟ ولم يقتصر على ذلك بل تجاوزه إلى التصرفات الفردية، إذ كانوا يعاقبون كل فرد يخالف أو يعترض على تعاليمهم كما حدث لجان دارك وكيف أحرقت علناً. وكيف لم يجد جثمان ذاك الموسيقي مكاناً ليدفن فيه.

وكيف قام رجالات تلك الصروح بإخفاء كل المؤلفات بعد جمعها من كل مكان في أقبية صروحهم، وعدم السماح إلا للقلة القليلة من الإطلاع عليها.

أصحيح أنه كانوا يضيفون مواداً سامة على الورق كي يموت كل من يلمسها ممن يستطيعون التسلل والنفاذ من بين أيدي وأعين أولئك؟

أصحيح أن قصور وبلاطات الملوك والأمراء لم تكن تحوي دورات مياه؟ إذ كان صاحب العظمة يتغوط أمام النخبة من قومه وحاشيته.

هل صحيح أنهم كانوا يحاربون فكرة الاستحمام لدرجة أن أحد الظرفاء أطلق فكاهة مفادها أن الصليبيين كانوا ينتصرون لأن أخصامهم كانوا يهربون من رائحة أجسادهم؟

وبالمقابل، هل سجلت ما قام به بعض الأقوام من هجومات على الحضارات؟ وكيف قام ذاك الغبي بإلقاء كل المخطوطات في مياه

ذاك النهر العظيم حيث تحولت مياهه إلى اللون الداكن من الحبر؟ وكيف كان يقتل كل صاحب فكر؟

هل شهدت كم مر على هذه البلاد من غزاة قساة القلوب؟ أم كنت تراقبين حفلات السمر واللهو والمجون في قصور الأندلس، وكيف تناحر أمراء الطوائف والمناطق فيما بينهم مفسحين بالمجال لقوات الفرنجة التي قامت بكسرهم وطردهم من ملكهم الذي لم يحافظوا عليه كالرجال؟

أم كان ناظرك يرنو إلى ذاك الشيخ الذي قاد عشيرته بدعم من القوة الصاعدة ليقضي على ملك كل العشائر، ويوحد بلداً صار في يومنا هذا من أغلى بلاد العالم لما وجد من خيرات دفينة في أرضه، وكيف عقد صفقات لعشرات العقود من السنين مع تلك القوى على أن يضمن ملكه ولو على حساب خيرات أرضه؟

وكيف أكثر من الزيجات لينجب العدد الأكبر من الأولاد، وبالتالي الأحفاد الذين خصص لكل منهم نصيبه من إنتاج بلاده دوناً عن بقية سكان هذه الأرض. وكيف أسس دولاً مجاورة له أساسها مشيخات اسمية.

هل أزعجتك بأسئلتي هذه؟ اعذري حشريتي لأني لم أجد أمامي غيرك أفرغ له كل همومي. "

.....

حضرت زوجتي وهي تحمل صينية حوت طعام العشاء.

- ألا تريد أن تناول العشاء؟
- نعم لقد أتيت في الوقت المناسب كوني كنت مسافراً عبر بساط ريح الزمن.
- بم كنت تفكر؟
- بأشياء عدة لا تهمك، المهم كيف هي حال العائلة؟ هل حدث شيء أثناء غيابي؟
- كل شيء على أحسن ما يرام، المهم كيف هو حال ابن عمنا كيف صارت؟
- بخير وهو يتماثل للشفاء وما هي إلا أيام ويعود.
- إنشاء الله فهو يستحق كل الخير.
- نعم صحيح، ما هذا؟ يا سلام! "جبن وخيار وسوركي"!
- كل هنيئاً، هل تريد شيئاً آخر؟
- اجلسي وشاركيني طعامي.
- لدي بعض الأعمال أنهيها وأوافيك.
- عافاك الله.

أثناء ذلك صعد إلى السطح الابن الأكبر:

- مساء الخير يا والدي.
- أهلاً تقدم وشاركني وجبتي.
- شكراً لقد تناولت طعامي قبل قليل.
- هل من أخبار؟

- نعم وهي مثيرة للقلق.
- ما يحدث هناك وأشار بيده شرقاً.
- نعم.
- ألم يركن ذلك المتهور؟
- الظاهر من الأمر أنه لن يفعل.
- فليحمنا الله إذاً.
- نرجو ونطلب ذلك قالها وهو يغادر.

في صباح اليوم التالي استفقتُ على صوت ولدي البكر ليفاجئني بالخبر المشؤوم.

- لقد اجتاحت قوات التحالف الذي تقوده تلك الدولة أرض الكويت لطرد جيش ذاك المتهور منها.
- وقعت الكارثة– لقد جر المنطقة بهذا العمل الطائش إلى معاناة ستدوم لسنوات عدة ندفع كلنا ثمن ذلك.

تمت